عبدالله عبد

مات البنفسج



غ. أدرس

مجموعة قصصية

عبد الله عبد

الرأس والجدار

رواية

منشورات
وزارة الثقافة والارشاد القومي

دمشق
١٩٧٧

شد عضلات رجليه ثم ارخاهما ليبعث فيهما الحياة .
كان يشعر بالاعياء . وغير مرة خيل اليه ان ركبتيه شرعتا تئنان. وان مفاصله ترسل صريراً موجعاً بعد التيبس الذي فرضه السفر الطويل بالجلوس على نحو معين في السيارة. الآن يستطيع ان يقول بكل بساطة انه أنهى خدمته الالزامية. وتنفس بعمق . ثم نتر حقيبته من اذنها ومشى مبتعداً عن السيارة .

حلوة مدينته في ليالي الخريف ورائعة سماؤها . انه يعرف هذا الصفاء الرائق كالبلور عقب زخة مطر عابرة في ايلول . ويعرف ايضاً لذعة برده هذه التي تقرصه قرصاً لذيذاً .

ترك الشارع وانحرف في زقاق جانبي خافت الاضاءة . كان الطريق خالياً . لم يكن ثمة مايعكر صفوه سوى ايقاع خطواته . وكان لها وقع طيب في اذنيه . نعم كان سعيداً من قمة الرأس الى اخمص القدم بعودته الى الحياة المدنية .

انه يعلم ان والده مريض وان هذا الامر محزن حقاً .

وانه عما قليل سيصير في مركز المسؤولية . بل انه صار فعلاً ، بشكل ما ، في هذا المركز وهو في الجيش و من قبل في الميناء . ولكن كل ذلك يجب ان يدفع الى الخلف الآن ليخلي الطريق امام لحظة الفرح الغامرة الراهنة .

ومضى في طريقه الهوينا يستقطر نشوته على مهل . انه انسان محب انهى خدمته الالزامية فهل لكائن ما ان يتصور مدى رغبته القوية في الحياة .

صعد عدداً من الدرجات ثم دقّ باباً . سمع خطوات ثقيلة تقترب فقال لنفسه « انها امي بلا ريب » . انفتح الباب وما كاد بصر الوالدة يقع على ولدها حتى هتفت :

— من ! احمد ؟

وفتحت ذراعيها .

— ياعين امك .

وضمته الى صدرها .

كان مايزال منتشياً عندما دخل البيت . كان السكون شاملاً فخمّن إن اخوته نيام . واجتاز صحن الدار تتقدمه امه نحو الغرفة الكبيرة .

ثمة شيئان استقبلاه منذ الوهلة الاولى عندما دلف

الى الغرفة وراءها . دفء لطيف متميز عن لذعة برد منتصف الليل الخريفي ورائحة الكاز الحادة .

« سوف إستبدله بالكهرباء ذات يوم . ان رائحته لا تطاق » . همس بذلك لنفسه ووضع الحقيبة التي كانت في يده حذاء الطاولة التي استقر عليها مصباح الكاز . ثم جلس على خوان لايبعد كثيراً عن الطاولة نفسها واسترخى متكئاً بظهره الاعلى الى الجدار الملاصق للخوان . اجال نظرة عجلى حوله . كان هناك تعديل طفيف قد طرأ على الغرفة منذ ان سقط والده مريضاً . كانت الزاوية في اقصى الغرفة خالية فهمس لنفسه « المستشفى نقل الى الغرفة الثانية » . ولعل امه حدست ماجال في خاطره فقالت :

— كم مرة قلت لك لاتردد هذه الكلمة . انني اتشاءم منها .

— اية كلمة ؟ المستشفى ؟

ثم ضحك ولم يعلق بشيء آخر .

لم يكن في البيت سوى سرير واحد . وكان احمد قد أطلق عليه اسم المستشفى ذلك انه ماان يمرض احد افراد العائلة حتى يعزل عن الأخرين ويفوز بشرف النوم فيه . لكن ذلك الامتياز لايلبث ان يسحب من المريض عندما

يهبط الليل ، فيرجع السرير الى الاب صاحبه الاصلي لينام عليه .

نظر مرة اخرى الى مكان السرير الشاغر في أقصى الغرفة ، لم تكن عيناه قد اعتادتا بعد رؤية المكان فارغاً فقال مشيراً الى والده :

— كيف حاله ؟

— احسن . لكن لسانه لايزال ثقيلاً .

— انه الفالج . قال الطبيب . ويحتاج الى زمن حتى يشفى .

واضاف :

— هل يستطيع السير ؟

— ليس بمفرده . يحتاج الى من يسنده .

— عال . سوف نجلب له احسن الادوية وسيتحسن حتماً .

وقلبت الام يديها في الهواء استسلاماً او حيرة . ولكنه سمعها تستدرك بعد لحظة .

— ان شاء الله .

وبعد فترة صمت قالت :

— سأهيء لك شيئاً تأكله .

ومضت الى المطبخ .

كانت الغبطة بادية على الام لعودة ابنها رغم المظهر الجاد الحزين الذي اتخذه وجهها وحركاتها . وداخل الارتياح احمد . كانت الام مختلفة قليلا عما رآها عليه في آخر اجازة عندما مااستدعي برقيا بسبب مرض والده .

عندما صار وحيداً نظر الى اخوته . كانوا مستغرقين في نوم عميق على فرش بسطت على الارض . انفاسهم تتردد بهدوء وايقاع . عاطف اصغرهم ينام كالعادة بعينين نصف مغلقتين . ومحمد بفتحتي انفه المتوترتين لكأنه يوشك على البكاء . ونديم على شفتيهظل ابتسامة . اما فاطمة فقد زوت مابين حاجبيها تساءل « ترى هل تحلم . وماذا تعاني في حلمها » ؟

عادت الام بعد قليل تحمل صينية كانت تستعمل ذات يوم لتقديم القهوة ، ثم حولت بعد ان تساقط دهانها وعتقت ليأكل عليهافرد واحد.وضعت الام الصينية على الخوان . كان عليها صحن شوربة ورغيف خبز . كان احمد جائعاً فراح يلتهم طعامه بصمت .

جففت الام يديها المبللتين بخرقة . ثم مدت فراشاً في الزاوية الفارغة التي كان يحتلها السرير . عادت فجلست على الخوان قبالة ابنها .

قالت :

— مر علينا ابراهيم اول امس . قال انك ستكون هنا خلال يومين . لماذا تأخرت ؟

قال :

— لقد سلّم حاجاته قبلي . كان هناك ماينقصني فتأخرت قليلا .

بعد ان انتهى من طعامه قالت له امه :

— مارأيك ان تحلي ضرسك ؟

وحملت له بعض البلحات المجففة ثم أضافت ضاحكة :

— حلوى الفقير .

فعلق ضاحكاً :

— وما لها حلوى الفقير ؟ اطيب من حلوى الغني .

كان ثمة سؤال مافتىء يراود احمد منذ مدة ولم يشأ ان يمضي إليه مباشرة فقام بحركة التفاف . قال :

— كيف حال الحارة والجيران ؟

— بخير . عائشة بنت محمد سمسم خطبت . بنت لقطة . لو كنت في شغلك لخطبتها لك .

فقال لها .

— الله كريم .

ثم تابع بلا مبالاة في الظاهر :

— هذه كل خطوبات الحارة ؟

تمنى لو كانت فاطمة مستيقظة في تلك اللحظة . اذ كان يستطيع ان يتحدث اليها عن رتيبة بلا حرج كبير .

قالت :

— ورتيبة .

ونهضت لتسوي اللحاف الذي انحسر عن احد اخوته . فقال متضاحكاً بقلق :

— وما لها رتيبة ايضاً ؟ خطبت ؟ .

فقالت الام بعد ان سوت اللحاف وعادت الى مكانها من الخوان :

— طلبت يدها . ولكن رفض الطلب . ويقال ان البنت هي التي رفضت . بنات آخر زمان. متى كانت الفتيات تتدخل في مثل هذه الامور ؟ . في أيامنا كانت البنت لاترى عريسها إلا في يوم الزواج .

داخله الارتياح فقال :

ــ لكل زمان عاداته .

بعد قليل نهضت الام ولعلها لاحظت تثاؤب ولدها منذ بعض الوقت فقالت :

ــ لاشك انك متعب . فقم وارح جسمك .

خلع ثيابه وتمدد على الفراش . تململ في استلقائه ـ كم نام في هذه الزاوية من البيت في الاصائل او في الاصباح المتأخرة . عندما كان مريضاً اومتعطلا عن العمل . وكان السرير قد شغر من صاحبه الاصلي . احساس بالهدوء والسكينة كانت تسكبه هذه الزاوية على قلبه . ولكن مابال الأن يتقلقل في فراشه ؟ ماالذي حدث ؟ أهو الذي تغير ام الزاوية ؟

عندما تمدد في فراشه كان قد تهيأ تماماً للنوم . ولكن هاهو ذا النوم يجفوه ويهرب من عينيه . ربما لم يعتد النوم على هذه الصورة في هذا المكان من قبل . كان فيما مضى من الايام ينام ههنا احياناً على سرير والده . فإذا هو يجد نفسه محشوراً ، فجأة ، في نفس المكان . ولكن لاعلى السرير . وانما على الارض.وشعر بالضياع لحظة . وتململ

كأنما اراد ان يتفقد ابعاد جسده الذي شك في وجوده لثوان، رأسه ويديه ورجليه . وانه هو احمد الذي يستلقي هناك . وداخله شعور بالغربة . تساءل « لماذا . أهو السرير ؟ » . وعجب كيف تؤثر الاشياء في الانسان حتى ان تغيراً بسيطاً مثل اخلاء زاوية من سرير يخلق في نفسه الفوضى والاضطراب .

ووجد نفسه ينتقل بفكره الى والده المريض هناك في الغرفة الثانية . غير ان دولاب فكره لم يلبث ان عرج على اخوته ورتيبة والميناء والزملاء في الميناء . فكره الآن عجلة مشحمة ، مزيتة ، تنتقل من صورة الى صورة . الحاضر والمستقبل ميدانها . ولكن هاهي ذي العجلةتدور الآن بنزق. تدور الى الوراء . الى الماضي البعيد . يوم كانت الدنيا غير الدنيا . والملاعب والأتراب والاحلام . وبهدوء ولين . ودون اية تعقيدات انفلت احمد من جلده ودخل في إهاب ولد صغير . ولد صغير يقبض على الزنابير وينزع إبرها .

دخل أحمد في اليوم التالي غرفة ابيه . ولقد احزنته الحال التي انتهى اليها . بدا له ان شعره قد ازداد بياضاً عما رآه آخر مرة ووجهه اكثر نحولاً وشحوباً . ولاحظ العين وجانب الوجه واليد التي امتد اليها المرض وتركها عاجزة

عن الحركة وعن اصدار الاوامر . ياللمرض الكاسح .. شيء يشبه الصاعقة انقض عليه فأمات نصفه الأيسر . اهذا هو الرجل الصامد الصابر الذي يعرفه ؟

حاول الاب ان يتكلم لدى رؤية ولده فخانه لسانه . عندئذٍ تكلمت عيناه . افاض الدمع في البوح عن مكنون الصدر .

كان والده بلاطاً ، معلماً في مدّ البلاط . لم يكن متعلماً . لكنه اراد ان يكون اولاده متعلمين وحلم بذلك كثيراً . وقد بذل جهده لتحقيق هذا الحلم . غير ان ظروفه الصحية لم تسمح له بذلك . كان كثيراً ما ينقطع عن العمل ويضطر للبقاء في البيت بسبب آلام ظهره التي كانت تعاوده من حين لآخر .

في البداية قال له البعض : انه البرد . فقال : نعم انه البرد . البرد سبب كل علة . لكنه ذات يوم عدل عن فكرة البرد وقال : اذا كان هذا الالم من البرد فلماذا يهاجمني في الصيف ؟ ثم بحث عن سبب آخر حتى وجده ، أوهكذا خيل إليه ، عندما حمل ذات يوم بين يديه تنكة رمل وقام بجبله من خليط الاسمنت والرمل بعد صرف عامله المعاون « من يومها احسست بشيء في ظهري » .

وعندما استشار طبيباً نصحه بالاخلاد الى الراحة لان القرفصاء تفاقم حالته . وافهمه ان مايشكو منه قد يكون بداية انقراص فقرات . فقال للطبيب « كيف يرتاح مبلط وراءه ستة افواه ؟ » .

عجيب امر هذه الحياة . كيف يمكن تصور ان مصير عائلة مؤلفة من سبعة افراد ، رهن لابشخص بالذات ، وانما بفقرة تائهة في ظهره . وما اكثر مااتجهت انظار العائلة في امثال هذه الأزمات المرضية بالدعاء الى العائل وبالتحديد ربما الى ظهر العائل وتساءلت برجاء متى يستوي عوده كي تأكل أكثر .

* * *

ـ متى وصلت

سأل ابراهيم وهو يجلس على الخوان ازاء احمد .

قال أحمد :

ـ ليل البارحة .

فقال ابراهيم :

ـ لقد تأخرت .

رد احمد :

ـ بسبب التسليم . كان عندي نقص فى حاجياتي . بطانية من بطانياتي كانت مسروقة . فسرقت بطانية غيري وسلمتها . ماذا أفعل ؟ انت تعلم. عسكرية دبّر نفسك . يدخل الواحد اليها خروف ويخرج منها ثعلباً . والويل لمن يبقى فيها خروف

ـ تماماً مثل الميناء . الويل للخروف فيها .

قال ابراهيم ذلك وهو يضحك . كان ابراهيم في مثل سن احمد . وكانت تربط بينهما كثير من الاواصر . فبالاضافة الى كونهما زملاء عمل في الميناء وابناء حارة واحدة ، فقد أديا خدمتهما الالزاميةمعاً . وصادفا سوية قليلا من اليسر وكثيراً من الضيق .

قال احمد :

— في الميناء وغير الميناء . هناك دائماً خروف . بين اربعة يوجد خروف . وبين ثلاثة يوجد خروف . وبين اثنين يوجد خروف كذلك . وحتى في الشخص الواحد نفسه خروف وغير خروف . محمود ابو لحية نادل المقهى ظل يعمل عند معلمه خمسة عشر عاماً . كل يوم من الصباح الى المساء يروح ويجيء بين الزبائن مثل النعجة . لم يشك منه زبون . ذات ليلة انقض على معلمه فذبحه وذبح نفسه .

قال ابراهيم :

— حادثة مروعة . لا اكتمك انني ذهلت يوم جئنا كعادتنا الى المقهى لنأخذ الشاي وفوجئنا بالخبر . ليسامحه الله . لقد كدر اجازتنا الاسبوعية في ذلك اليوم . من يدري ؛ مات وطوى سره معه . لم يعرف احد لماذا قتل معلمه ؟

قال احمد بعد تأمل :

— اما أنا فيبدو لي انني اعرف . لقد ثار شيء مافي نفس ابي لحية على الخروف فيه . استيقظ فجأة فقال له : اعطني اذنيك يا أبا لحية . انت تعمل منذ خمسة عشر عاما من الصباح الى المساء . فماذا جنيت من وراء ذلك كله . انت تعمل ومعلمك يجمع الفيش . ليس في رجلك حذاء مثل الخلق . ولا على عجيزتك بنطلون . ولا على كتفك قميص . طز في حياتك .

فقام على الفور وأخذ سكينه وانقض عليه .

أصغى ابراهيم إلى أحمد وهو في دهشة مما يسمع . فمثل هذه الأفكار لم تخطر على باله . ولكن لاغرابة أن ينطقأحمد بذلك . كان ابراهيم ينظر إلى أحمد نظرته الى شيء كبير . إلى إنسان ذكي دفعه سوء الطالع قبل أن يكمل تعليمه للعمل في الميناء . ولولا ظروف أبيه المالية الصعبة لواصل تعليمه ولكان يشغل الآن وظيفة محترمة . وكان يقول عنه « ولد دهب » والذهب عند ابراهيم هو مقياس الأشياء .

قال ابراهيم :

— يجوز الأمر كما تقول .

قال أحمد :

— بل هذا هو الواقع . أنت تذكر الشباب الذين كانوا يجلسون وراءنا عند النافذة . طلبة جامعة . .مثقفون . مرة سمعت أحدهم عندما عاد المحل إلى استئناف عمله بعد مضي فترة الحداد . سمعته يقول : أنا مع الفصل الأول من المسرحية أما الختام فلا .

ونظر أحمد إلى وجه ابراهيم فلم يلاحظ أي صدى لما يقول في عينيه أو أي من ملامح وجهه . وعندئذٍ تابع يقول موضحاً :

— يعني أن الشاب كان مع الجزاء الذي أوقعه أبو

لحية على معلمه المرابي ولكنه لايوافقه على قتل نفسه .
وقال ابراهيم :

ــ آه فهمت. يعني ان هذا الكلب يستأهل مثل هذه العصا.

ــ هذا هو .

ــ أبو لحية هذا لم أكن أتصوره يوماً قادراً على قتل ذبابة .

ــ الرجال مخبأون في ثيابهم أخي ابراهيم . ألم تر كيف كان يمازح أولئك الشباب ويمازحونه عندما يقترب من طاولتهم يحمل اليهم الشاي والقهوة . لاشك ان كلمات الاستغلال والعدالة والاضطهاد التي كانوا يرددونها في جلساتهم قد وجدت طريقها إلى أذنيه وعششت فيها . نظر أبو لحية إلى نفسه يوماً فوجد أن أولاده سائبون عراة في الطرقات لايستطيع أن يدفع بهم إلى المدارس . وإن سيف التهديد بالطرد مسلط فوق رأسه كلما طالب بزيادة أجره . لقد هبت عليه رياح هؤلاء الشباب فكان ما كان . تألق لحظة مثل الشهاب ثم هوى .

قال ابراهيم :

ــ مضى على ذلك الحادث سنة وأنت مازلت متأثراً به.

ــ أحياناً أتساءل ماالذي حدث لأولاده من بعد ذلك .

ــ مسكين أبو لحية ومساكين أولاده .

– أقول لك . لو لم يكن خروفاً في وقت ما لما حدث ماحدث . خذالحال في الميناء مثلاً . قبل التأميم كنا نشتغل ثماني عشرة ساعة أوتسع عشرة . وإليك الوضع . في جانب كان هناك قطيع من الخرفان . وفي الجانب الآخر ملتزمون قساة غلاظ . ذات صباح تجمع العمال على الرصيف وبدلاً من أن يذهبوا إلى البواخر مضوا باتجاه باب الميناء الخارجي ورفضوا أن يكونوا خرفاناً .

– ذلك عهد مضى . الله لايعيده علينا .

– الله لاعلاقة له بشغل الميناء .

– شغل الميناء ليس من اختصاصه ؟

– ليس من اختصاصه . لو كان له ضلع في الأمر لما سمح بكل ذلك الاستغلال والقسوة اللذين مارسهما الملتزمون.الله والفساد لايجتمعان . وإذن شغل الميناءمن شأن الناس . لقد أراد العمال المضطهدون أن يغيروا الوضع في الميناء فغيروه . ثاروا على الفساد . تمردوا على الظلم . فقط عندما ركلوا الخروف في داخلهم .

قال ابراهيم بزهو :

– جنى العمال أخيراً ثمار نضالهم وصاروا محاصين(١). صاروا هم الملتزمين .

---

(١)المحاصة : توزيع الدخل حصصاً متساوية بين العمال .

ـ صاروا هم أرباب العمل . الدخل على قد العمل . لااستغلال ، لالصوصية .

قال أحمد وسرح بخياله لحظة ثم تابع :

ـ تدري ياابراهيم ؟ إنني آسف على شيء واحد . هو أني لم أكن هنا يوم طرد الملتزمون وأمسك إخواننا بزمام الأمور في الميناء . لكم كنت أود أن أنظر في عيونهم وأرى هزيمتهم .

ـ كنا وقتها في الجيش .

ـ نعم كنا وقتها في الجيش . قل لي ياابراهيم كيف تجري الأمور هناك . اليوم ؟

فقال ابراهيم ضاحكاً :

ـ ليس هناك ركل ولاصفع على القفا . لاأبوك ، لاأمك ، لاأختك ولادينك . انزل وسترى . سبع ساعات عمل وبعدها كل دقيقة بأجرتها . شغل لعب . ثماني ساعات أو تسع . شغل شوكولاتة . تصور خمسة أيام شغل بثمانية وأربعين ليرة . ليس ذلك فحسب وإنما هناك ثلاث أربع عشاءات أيضاً .

ـ لكم اشتقت إلى العمل . .

ـ لقد سألني الاخوان عنك . ألن تنزل غداً ؟

ـ سأنزل .

وطار أحمد بخياله إلى الميناء . عندما هم ابراهيم بالنهوض نسل من جيبه . ورقتين من فئة عشر ليرات دسهما تحت علبة تبغ صاحبه في غفلة منه ثم ودعه وانصرف .

ماكادا يخلفان وراءهما الشوارع والطرقات حيث يحتمل أن يتعرف عليهما أحد حتى تناقصت المسافة بينهما شيئاً فشيئاً ثم مشيا جنب إلى جنب . كان أحدهما يسير خلف الآخر تفصل بينهما مسافة تزيد أوتنقص تبعاً للزحام حيناً أوخوفاً من مصادفة أحد الأقارب أو معارف الأهل حيناً آخر . أما الآن وهما يسيران في شارع البحر وقد أمنا خطر الرقباء فلا بأس أن يسيرا معاً.

وانحدرا فتركا الطريق العام ونزلا إلى الشاطىء. اختارا لمجلسهما صخرة حتى إذا ماكشفتهما عينا فضولي بدوا كخطيبين أو كزوجين . مخاطرة في كلا الحالين . ولكن المخاطرة لابد منها في بعض المراحل . الحب لايقف عاجزاً أمام الخطر . إنه يفكر ويصمم وينفذ مع الحذر . من ساعة أن يولد الحب ينشأ معه الحذر . كأنما الحب يمشي أبداً في حقل ملغم .

ـ هل أنت خائفة ؟

سأل أحمد رتيبة ولم يكن هو أقل خوفاً . بل لعله لم يكن خائفاً قدر ما كان سعيداً .

قالت رتيبة :

ـ الستر قال بها الله .

قال :

ـ الستر لمن يرتكبون المعاصي .

قالت :

ـ ماذا تسمي ذلك ؟

ـ حباً

ـ أوليس الحب معصية ؟

ـ كلا .

وضحك .

ـ أو على الأقل ذلك الذي يوصل إلى المأذون .

وأمسك بيدها . كانت يداً رخصة بضة . وقلبها ظهراً لبطن .

ـ هل أنت خائفة حقيقة ؟ هذه ليست أول مرة نلتقي فيها .

ـ أخشى أن يرانا أحد .

ولم تفته نغمة الدلال التي شابت صوتها . أتراها تلوح من طرف ما إلى الخاطبين وتذكره بما اتفقا عليه . تساءل في سره : رتيبة فتاة في الثامنة عشرة من عمرها . حلوة وممتلئة صحة وفتوة. صارت في سن تؤهلها للزواج . وهاهي ذي العائلة قد رفعت بيارقها .

قالت في شبه اعتذار :

ـ لقد انتظرت طويلاً حتى وجدت الجو مناسباً . قلت لنفسي : الآن لم يعد في الغرفة الغربية غيرك . وبدأت أدق على الجدار .

قالت رتيبة :

ـ في البداية حسبت أختك هي التي تدق . ثم ميزت دقة إضافية ضعيفة . لماذا لم تدق بعد ذلك ؟

قال وهو ينظر إلى شفتيها الممتلئتين النديتين :

ـ جاءت أمي إلى المطبخ فلم أستطع أن أعاود الدق .

ـ لعلها سمعت دقاتي أنا على الجدار .

ـ آه . نعم. قالت رتيبة تعرف أن فاطمة الآن عند معلمة الخياطة . فقلت ربما نسيت ذلك .

سألت :

ـ ماذا قالت عني ؟

قال مداعباً :

ـ احزري .

فقالت متخابثة :

ـ مامكافأتي إذا حزرت ؟

فتابع مداعبته ملوحاً بيده :

ـ كف .

ـ وإذا لم أحزر .

ـ كف أيضاً .

ـ في الحالين أنا خاسرة . فلماذا إذن أحزر ؟

ـ إذا حزرت كف ناعم .

ـ وإذا لم أحزر ؟

ـ كف أنعم .

وضحكا . وأخذ راحتها بين يديه وقبل باطن يدها .

ـ هذه عربون

ونظرت في وجهه بوله . ثم غلبها الحياء فغضت من بصرها .

— ماذا قالت عني ؟

— قلت لك احزري . ألم يعجبك عربوني .

وظلت تغض بصرها .

— كيف كنت تقضي وقتك هناك ؛ ألم تكن تشعر بالملل .

قال :

— الرجل يجد دائماً مايتسلى به في بلاد الغربة

قالت وقد ظهر على وجهها تعبير احتجاج .

— ولكنك قلت غير ذلك من قبل .

قال محاولاً أن يعطي لهجته ايحاء خاصاً .

— في البداية نعم . ثم عرفت بعد ذلك كيف أقضي وقتاً طيباً .

— بالدق على حيطان الجيران .

وانفجر ضاحكاً .

— سجلت عليك نقطة . لقد أثرتك .

قالت :

— هل حسبت أنني صدقت كلمة مما قلت . أنت لاتستطيع أن تبتعد كثيراً .

وتطلعت في عينيه ولم تضف كلمة أخرى . حتى عادت إلى القول من جديد :

— كنت ألاحقك من وراء النافذة وأنت تمضي إلى الميناء مبكراً حتى تغيب في الحارة الثانية . وفي المساء أنصت إلى خطواتك المتعبة تصعد الدرج . ثم . ثم يصر الباب « سييك » ويصر مرة أخرى وهو يغلق فأقول : إنه الآن في أمان .

قال :

— ياله من باب لعين . قلت لنفسي سوف أزيته . صريره يوقظ أهل الحارة

فقالت باسمة على استحياء :

— بل صريره هو الذي يطمئن الحارة ويجلب النوم إلى عيون أهلها .

فاكتفى بالابتسام وضغط على يدها التي كانت في يده. قالت :

— لماذا تأخرت البارحة ؟ شد ماانتظرت . هل سمعت بأحد ينام وقلبه مستيقظ ؟ فاتني صرير الباب . ولكني أدركت الحركة في البيت . جلبة ماسورة الماء . وهدير وابور الكاز . كنت أقول لنفسي : إنه الآن يغتسل .

إنهم يسخنون طعامه . وبعد بعض الوقت هدأ كل شيء .
قلت إنه ينام . ونمت .

قال :

ـ كانت هناك سهرة البارحة في الباخرة . كنا نشحن القطن . رصيد الشحنية كان مائة طن . عند المغرب قالوا : هيا ياشباب . مائة طن لاتستأهل أن تبيت من أجلها الباخرة . يومية الباخرة تكلف آلاف السترلينيات . وسهرتنا ببضع مئات من الليرات .

ـ مرات قلت لنفسي . لعلي سهوت فلم أشعر بمجيئه . وأحياناً كنت أقول ربما جرى له حادث . أمضيت الليل تأخذني موجة وتعيدني موجة ،. سمك البحر نام وأنا لم أنم .

وتابع ببصره شفتيها المكتنزتين وهي تسأل :

ـ أهناك خطورة في شغل الميناء ؟

وابتعد اللنش عن باخرة السكر .

ـ « بسرعة إنه ينزف بكثرة .

ـ « على مهل خذوا قدمه .

ـ « ماذا هناك ؟

ـ « الصبّان حلق القدم مثل المنشار .

ـ « يقولون إنهم نسوا القدم في الماعونة . ثم رموها بعد ذلك إلى اللنش »

همس أحمد لنفسه « مهنة محفوفة بالمخاطر . ولكنها مهنة لذيذة على كل حال . ومن ذاق يوماً خبز الميناء الذي جففته الشمس ومرت عليه أنسام البحر محال أن ينساه »

قال أحمد :

ـ بالعكس شغل الميناء ممتع .

ـ « مسكين صار برجل واحدة

ـ « كم ولد عنده ؟ »

وأضاف أحمد :

ـ شغل الميناء شغل رجال حقيقيين .

وبان الاطمئنان في عينيها . وظل يتابع شفتيها المكتنزتين :

ـ قل أنك ستحافظ على نفسك

ـ طيب سأحافظ على نفسي

ـ هل تتعهد ؟

ـ أتعهد

وهي تنظر إلى البحر .

ـ كنت أعد الدقائق

وهو ينظر إلى البحر أيضاً .

ـ كنت أعد الثواني .

وبعد فترة صمت .

ـ هل أخبرت فاطمة ؟ هل ألمحت لها بشيء ما ؟

ـ كلا وإن كنت أعتقد أنها تعرف

وعضت على شفتها السفلى :

ـ قلت أنك ستفعل في زيارتك الأخيرة .

ـ تركت الأمر ريثما أنتهي من الجيش . فكرت أن الوقت مازال مبكراً .

ومرت فترة خيل للفتاة فيها أن ذهنها خلا تماماً من أية فكرة خليقة بالاهتمام كموضوع للكلام . وهنا نظرت إلى كنزة رفيقها فقالت :

ـ هل أعجبتك الكنزة ؟

ونظر الفتى إلى الكنزة الكحلية التي يرتديها .

ـ فكرت ربما دخل الشتاء ولم تسرح . يقولون إن الشتاء قاس في الداخل .

قال :

ـ من صنعها لك ؟

قالت :

ـ يداي هاتان .

وأخذ يديها بيديه وقبلهما :

ـ سلمت يداك .

ـ لم تقل هل أعجبتك ؟

ـ لم ألبس في حياتي لاأحلى ولا أغلى .

وطفرت فجأة :

ـ آه . ياللأنانية.نسيت أن أسألك عن أبيك . كيف حاله ؟

ـ بخير . إنه يتقدم في طريق الشفاء .

وبعد برهة صمت :

ـ وأنا نسيت أن أسألك عن الحال في البيت . وعن مصير بعثة الخطّاب .

كانت رتيبة تشعر بالسعادة في تلك اللحظة . فلم تشأ أن تتعرض لأحوالها العائلية . فتعكر ، كما بدا لها ، صفو هذه الجلسة الهادئة .

إن رتيبة فتاة عجية ماتت أمها منذ عشر سنوات دون أن تخلف غيرها. كان عمر الفتاة آنذاك ثماني سنوات . وكان أبوها واسمه حامد المكاوي يملك مخزناً لبيع الخرضة بالجملة . يحب النساء بلا أية تحفظات . كما يحب التوابل الكثيرة في الطعام . حتى إن المرء ليلحظ في أي وقت آثار هذه التوابل على فمه الشهواني الواسع وشفتيه الممتلئتين النديتين كأنه ترك المائدة لتوه. أو إنه انسل من جانب امرأة ، رغم أن صاحبهما كان قد تجاوز العقد الخامس . ولقد تزوج حامد بعد انقضاء أقل من شهرين على وفاة زوجته من فتاة كان من الممكن أن تكون في مثل سن أولاده لو أنه رزق بأولاد في سنيه الأولى للزواج .

وبالرغم من أن حامد المكاوي كان نمراً في عمليات البيع والشراء والمساومات وكل مايتعلق بمهنته ويمت بسبب من طرف ما إلى الناس الدائرين في فلكها ، وإلى المجابهات اليومية مع الآخرين . هذا النمر كان يتحول إلى قط بين يدي زوجته الثانية التي تصغره بنحو عشرين عاماً .

قالت رتيبة متجاهلة الشق الأول من السؤال :

– فشلت في مهمتها .

وعندما عادا إلى بيتيهما تذكر كل منهما أشياء

كثيرة كان يود قولها للآخر . وفكرت الفتاة « كيف سرقني الوقت . أشياء كثيرة . في المرة القادمة حسناً . في المرة القادمة سأذكرها حتماً » . وأيضاً كان هو يفكر ويهمس لنفسه « كم يمضي الوقت سريعاً عندما أكون برفقتها . كيف نسيت ؟ في اللقاء المقبل . . أشياء وأشياء . في اللقاء المقبل سأذكرها بالتأكيد » .

* * *

في منطقة المرفأ وفي المقهى القريب من الاقبية التي اتخذتها فرق المحاصة مكاتب لها ، جلس بعض العمال يقطعون الوقت بلعب الورق ، او يتنادرون في انتظار قدوم باخرة لتفريغ مائتي طن بضاعة منوعة منها قبل أن تواصل طريقها إلى بيروت .

وبمرور الوقت ازداد الجو ثقلا وتكاثف بالدخان كما اشتد فيه الصخب . وعندها نهض احمد وانسحب إلى الخارج . كانت امام المقهى فسحة ترابية مثلثة جلس في طرفها القصي عجوز ينسج شبكة . كانت الشمس قد وجدت طريقاً لها إلى الركن الذي اختاره العجوز . وبدا ذلك الركن منوراً دافئاً يغري بالجلوس فيه .

تناول احمد كرسياً وجلس . كان العجوز منكباً على عمله . يده تروح وتغدو وتخرج وتدخل لتصنع عيوناً

للشبكة . قال احمد : « ما اشبهه بعنكب » . كان الرجل يدمدم باغنية قديمة بينما عيون الشبكة تزداد واحدة بعد اخرى . تساءل احمد عما جاء بهذا الصياد إلى هذا المكان وليس في الميناء منطقة صيد . وفكر انه كان من المفترض أن يكون الآن في مغارة الصيادين في ميناء القزاز او وراء الدبجيات او في ابن هانيء ورأس البسيط . ولاح لعيني احمد لحظة انه واحد من صيادي اقوام الايام الخالية التي عاشت في هذا الميناء الصغير .

ترك الرجل طرف الشبكة يفلت من يده واخذ كيس تبغه . وخطر لاحمد انه لن يلبث أن يتناول غليوناً من الفخار ويحشوه تبغاً .

التفت العجوز ناحية احمد وبدا عليه انه لم يشعر بوجود الفتى إلا في تلك اللحظة .

كان العجوز في حوالي السبعين من عمره . له وجه مغضن حافل ينتهي بذقن عريضة يعلوها فم شهواني . كث شعر الحاجبين والشارب ابيضهما .

لكن الرجل واأسفاه لم يتناول غليوناً من الفخار ليحشوه تبغاً كما لاح لاحمد ، وانما فرد بين سبابته

وابهامه ورقة ليلف لنفسه سيكارة . وقتها مد احمد يده بعلبة سجائره وقال له :

— سيكارة !

نظر الرجل إلى احمد وكأنه يروزه بنظره . ثم مد يده وتناول سيكارة من علبة التبغ المقدمة إليه . قال له :

— يعطيك العمر . بفرحتك .

واشعل سيكارة .

— متزوج ؟ لا يبدو عليك .

ضحك احمد لهذا الاستهلال الطريف . تساءل :

— وهل هناك ما يميز المتزوج ؟

قال الرجل :

— طبعاً . اذناه .

فاتسعت ضحكة احمد وردد مستغرباً من هذه القرينة :

— اذناه ؟

فأكد الرجل :

— نعم اذناه مهدلتان .

كان في العجوز شيء محبب جذب احمد إليه .

فتساءل :

— واذناي ؟

— مازالتا مشرئبتين .

فقهقه الفتى . كانت الطلقة الثانية له فقال :

— اما انت فيبدو لي انك تزوجت كثيراً .

فتابع الرجل مداعبته :

— كم تبدو اذناي مهدلتهين اذن . الخائنتان ؟

— انهما تفضحانك .

قال الرجل :

— كرهت الاذنين دائماً . غيري يعتبرهما من زينة الوجه . لم اثق بهما يوماً في الكتّاب والبيت كانتا الشيء الوحيد الذي يقهرني . ولم اكن استطيع حيالهما شيئاً . بالفلقة كنت اتمكن دائماً من الافلات برجل .. بالضرب أراوغ . أما الاذنان فكنت أقتنص بسببهما تماماً . ومن ناحيتهما ، كانتا لا تحاولان شيئاً . وهاهما تشيان بي الآن الخائنتان .

قال احمد :

— لم تكن محظوظاً مع اذنيك .

— كانتا تحرجانني دائماً وما أكثر المآزق التي وجدت نفسي فيها بسببهما . مرة وانا امشي في حي في احدى المدن التقطت اذناي صريراً . توقفتا . حاولت دفعهما إلى متابعة السير فرفضتا . حرنتا مثل بغل . قلت : وماذا بعد ؟ قالتا لنر ماذا يجري في الداخل. لم استطع مقاومة الاغراء . فقلت لبيكما . اقتربت من النافذة . كان الوقت ليلاً والنوافذ مشرعة بسبب الحر . أصغيت . استمر الصرير وتتالت التأوهات . قال صوت انثوي بعد قليل : لا تطل غيبتك . انا في انتظارك . الوحدة قاتلة . ثم صفق الباب وخرج رجل . بعد ذلك ساد السكون . فقالتا والآن هل تترك المرأة تقتلها الوحدة . اين شهامتك ؟ .

بعد ذلك لم اجد نفسي إلا في قلب السرير بجانب المرأة . كيف؟ لست ادري . اذناي هما اللتان قامتا بترتيب الامور . اللعنة . ما الذي ذكرني بهذه الحادثة ؟ أه صحيح الاذنان . حاولت المرأة أن تصيح فوضعت يدي على فمها . حاولت أن ترفس فطوقتها برجلي . كانت مثل مهرة برية . لكني عرفت كيف أسلس قيادها .

فضحك احمد ودفع للعجوز بسيكارة اخرى. قال له :

— لعلك ضربتها .

— يضربها ولد احمق مثلك . تضربها فتخسرها . لا تضرب امرأة إلا عندما تريد هي ذلك . سوف تعرف هذا في حينه . تقوله لك عيناها ولسانها ويداها .

واشعل الفتى السيكارة للرجل .

— كانت منيعة مثل بنك . وكدت افلس في العثور على كلمة سرها .

قال احمد مداعباً :

— كانت لها كلمة سر ؟

— كل امرأة لها كلمة سر والرجل الشاطر يعرف كيف يكشف عن هذه الكلمة . إنهارت مناعة الحصن عندما لمست شيئاً ما هناك وراء الاذن تماماً .

ونظر في عيني الفتى :

— هل تستغرب مثل هذا الأمر ؟ سوف تتحقق من ذلك عندما تعرف عدداً كبيراً من النساء .

فقال احمد مداعباً :

— كنت احسب أن الفم هو المفتاح .

قال العجوز منذراً بأصبعه :

– حذار أن تقرب فم امرأة قبل أن توقع لك اتفاق الاستسلام . الفم هو البوابة . اذا سلمتك المرأة فمها فإنها تقول لك : ادخل فأنت في أمان . ولكن قبل ذلك قد يكون هو شرارة الحرب التي تستفزها . ويقفل دونك كل الابواب من اجل التفاهم .

وبعد برهة صمت :

– هل تعتقد أن الحادثة انتهت ؟ بعد أن صار كل شيء . قالت لي المرأة : اقضي ليلتك هنا وغداً باكراً تمضي لشأنك . فقلت لنفسي لا ضير في هذا القول . وهكذا بقيت . وسرعان ما استغرقتُ في النوم . ولكن فجأة استيقظت على اضاءة النور . فماذا وجدت ؛ كان هناك في وسط الغرفة رجل بوليس برتبة قومندان . وبسرعة فهمت كل شيء . كان رجل البوليس ذاك هو عشيقها كما كانت قد قالت لي . وكان مقدراً له أن يقوم بمهمة خارج المدينة . ولعله لسبب ما الغيت المهمة فعاد إلى بيت عشيقته . كان علي أن اتصرف بسرعة . تظاهرت بالغباء والدهشة من وجودي بجانب المرأة وزعمت انني كنت مخموراً فتهت في منطقة الميناء وحسبت أن البيت فندق فأويت إليه.اما المرأة فلم تكن اقل تظاهراً مني بالدهشة والفزع

لوجودي بجانبها . سألها رجل البوليس هل اعتدى عليك ؟ فقالت له انها استغرقت في النوم حال خروجه (رجل البوليس) من عندها . وانها لم تستيقظ إلا بعد أن دخل الغرفة واضاء النور فيها .

قال احمد وقد ظهر عليه الاهتمام :

— هيه . ورجل البوليس هل اقتنع بروايتك ؟

— لم يكن امامه إلا أن يقتنع . لكن الشيء الذي ظل يحيره هو كيف انني دخلت الغرفة من النافذة دون أن انتبه لخطأي . ولا شك أن استغرابه من المرأة كان اشد إذ توجه إليها بقوله : لم أر في حياتي امرأة تنام بمثل العمق الذي تنامين به بعد آن . .

ونظر إليها نظرة ذات مغزى . فرنت إليه بمثل نظرته ثم تضاحكا ضحكة لها معناها .

ولقد ختم هذا المأزق اجمل ختام يمكن أن يخطر في بالك . إذ لم نلبث أن قرعنا الكؤوس نخب هذه المصادفة الغريبة .

بعد أن افرغت عدداً من كؤوس الانخاب التي

ابتكرتها لاسد حاجتي إلى الشراب في تلك اللحظة اندفعت إلى الشارع وانا اقرأ الصمدية . كان الميناء في الجوار فاندفعت اليه جرياً وكأن كل قومندنات العالم تطاردني فادركت مركبي على وشك الاقلاع .

واقبل نادل المقهى فأوصى احمد على قدحي شاي . وتابع المراكبي :

— ايه فضحتني الخائنتان اذني . لماذا اخفي عليك ؟ في كل ميناء كان لي عشيقات وكان لي معارك . ولكن كل ذلك مضى .وها انت ترى الآن انني اصنع شباك الصيد أو ارفوها . انها الشيء الوحيد الذي بقي يربطني بالبحر . الوحيد الذي استطيع أن افعله من اجل البحر . انني اقول لنفسي كل يوم : من يدري فقد يمر بالميناء مركب صيد يحتاج إلى عجوز يصنع الشباك او يرفوها . فقط انتظر الفرصة المناسبة .

وبعد لحظة صمت تطلع المراكبي إلى وجه احمد وسأل :

— هل اتفق لك يوماً أن سافرت في البحر ؟

— كلا .

— لماذا ؟ ماذا تشتغل ؟ انت لم تعرف الدنيا اذن ؟

— في الميناء .

— هه في الميناء ! في جورة الكفر هذه .

قال أحمد :

— ماذا أفعل ! تركت المدرسة قبل أن احصل على الثانوية . في البداية كنت انزل في الصيف ككثير من الطلاب للعمل في الميناء . ولكن ذات مرة جاء الصيف ورحل . ثم جاء الخريف ورحل . ثم جاء الشتاء ورحل وانا مازلت في جورة الكفر كما تسميها ؛ فأدركت انه لن يكون هناك عودة إلى المدرسة . وهكذا وطنت نفسي منذ ذلك اليوم على الاقامة الدائمة في الميناء .

— وهكذا جئت لتصير ابن كلبة . ولكن قل لي ماذا تشتغل في الميناء ؟

— في البواخر . تنضيد .

— في البواخر أو في المواعين هذا لا يعفيك من أن تكون ابن كلبة ايضاً .

جاء النادل بالشاي ثم وضعه على تربيزة ومضى . حمل احد التربيزة إلى قرب العجوز ثم نقل كرسيه

وجلس صوبه . قال له مشاكساً وقد احب في الرجل طرافته .

— مادمت تصر على ضمي إلى عائلة الكلاب فأفضل ابن كلب على ابن كلبة .

— وما الفرق ؟

فضحك احمدولم يفطن العجوز لاول وهلة إلى ملاحظة الفتى ولكن سرعان ما استدرك :

— آه ابن ابيك وليس ابن امك . لفتة طيبة . ابن كلب حقيقي اذن ؟ وهذا ما يصلح تماماً للبحر . ما كاد بصري يقع عليك حتى قلت لنفسي : هذا بحار . ولكن كم خدعت . اسأله ماذا تشتغل ؟ يقول في التنضيد . طز في التنضيد . هيا لم يفت الوقت بعد. سيأتي الزمن الذي تعجز فيه عن السفر . لو كنت في مثل سنك ماوطئتقدماي الارض . ولكن أنت ترى . كم كبرت ؟

رشف احمد رشفتين من شايه وقال للمراكبي :

— خذ شايك قبل أن يبرد .

ثم اضاف متأثراً

ـ أنك تغربت كثيراً ؟

فرد العجوز :

ـ تغربت !

وضحك ضحكة قصيرة هي اقرب إلى الاستهزاء :

ـ لم اعرف الاستقرار ابداً . كنت اصغر منك عندما اعتليت ظهر أول مركب . لم يكن شعر ذقني قد نبت بعد . كنت احس أن اليابسة لم تعد تحملني . وكان لدمي الفائر في عروقي ضجيج في سمعي . قلت لريس مركب : هل تأخذني معك ؟ قال : وماذا افعل بولد مثلك ؟ ماذا تستطيع أن تشتغل ؟ قلت ادهن بويا. اقلفط. اكنس العنابر بعد التفريغ . احمل الماء للطباخ واقشر البصل والبطاطا . اتسلق السواري . اربط الحبال . أفك الحبال واساعد في نشر الخام . وتسلقت سارية من سواري المركب لاريه براعتي . وعندما نزلت ضحك وقال : انت تجري على السارية بخفة الفئران في عنابر مركبي . غداً احمل ثيابك وانزل إلى « ام السعود» . السفر عند الغروب . وفي اليوم التالي جعلت ثيابي في صرة ورحلت مع المركب . بقيت فيها حتى بيعت. اشتراها رجل يشتغل بالتهريب . ثم عملت على ظهر باخرة وبعد مدة غيرتها .

وهكذا كلما مللت من واحدة انتقلت إلى اخرى حتى وصلت إلى شواطىء صيد الحيتان . تهت في البحار . نزلت إلى الجزر وعشت على فاكهتها اياماً بل شهوراً . عريت واكتسيت ابهى الحلل . زرت مرافىء العالم وضعت في ازقتها . سكرت في خماراتها ونمت مع نسائها . عرفت اللصوص والقتلة والسكيرين والاوغاد وانصاف الالهة حتى لأحس الدنيا كلها في داخلي . خيرها وشرها . طيبها وفاسدها .

كان المراكبي يتكلم بكل كيانه . بفمه ، بعينيه ، بيديه وجبينه وكل عضلة في وجهه . وكان احمد يتابعه ويعيش معه . لقد خرج لينعم بدفء الشمس هرباً من الضجيج في الداخل . فإذا بالارض تنشق على غير توقع عن هذا المارد ليخلق الضجيج في قلبه وعروقه وخياله .

— امض في البحر . انت مازلت صغيراً . في مركب . في باخرة . الامر سواء . فقط امض . اركب لوحاً خشبياً وانشر قميصك قلوعاً . الدنيا مازالت امامك عذراء . غابة بكر . جزيرة . شاطىء منسي لم تقرعه قدم قبلك . كل خطوة اكتشاف . وكل اكتشاف يسلمك إلى لغز لتفتحه بيدك وقلبك . غداً تنظر إلى نفسك في المرآة وستهولك السرعة التي ابيض فيها شعرك وتخلخلت اسنانك .

وفرد المراكي ورقة بين سبابته وابهامه ونشر عليها التبغ . نفس الورقة التي كان قد اهملها منذ بعض الوقت . كانت يده ترتعش فسارع احمد يعرض عليه سيكارة من علبة تبغه. فقال وقد ران عليه انقباض مفاجىء على نحو تلك الفجاءة التي اندفع فيها من قبل وقد انبسطت نفسه :

— إليك عني انت وسيكاراتك . مازلت اقوى على لف سيكارة لنفسي . قال تنضيد قال .

قال أحمد :

— لاتغضب قد أسافر يوماً .

واضاف في سره « ياله من رجل غريب . لاأدري إذا كان عاقلاً أو غير عاقل . لاأدري مامقدار الصدق في كلامه . كلهم يقولون نفس الشيء . في كل ميناء لهم معارك وكل ميناء لهم فيه نساء . ولكن المرء لايحتاج إلى إيمان كبير كي يصدق عندما يجلس مع بحار . حسبك أن تنظر إليه وتصغي إلى قصصه حتى يلهب خيالك ويمسي كل غريب يقوله رائعاً ساحراً » .

واشعل المراكي سيكارته ورشف شايه على دفعات مهمهماً بين رشفة وأخرى ، متلذذاً أو متأسياً ثم نهض. قال :

– اسكن القبو الثالث إلى اليسار من هنا . تعال لزيارتي يوماً اقدم لك قدحاً طيباً من الشاي .

ولمس كتف أحمد . ولم يلبث ان انحنى فلملم شبكته وحمل خيطانه وصنارته وتبغه ومضى في الاتجاه الذي أشار إليه . وتابعه احمد وهو يبتعد . كان طويلاً مديداً أميل إلى النحول منه إلى الاكتساء . وكان يظلع في خطوه . وتحركت عينا أحمد تبحثان عن موضع العيب فيه . ونقل بصره حتى وقف عند قدمه اليمنى . كان وضعها وهي تستقر على الأرض مغايراً لوضع القدم اليسرى . فأدرك أحمد على الفور أن الخلل من هذه القدم . قال لنفسه « هذه ضربة سيف أو طعنة مدية . لقد تركت حياة القرصنة الحافلة أثرها عليه » .

* * *

— شغيلة الطلياني والدانمركي والألماني جاهزون ؟

— جاهزون .

رد ملاحظو البواخر على كاتب الفرقة . ثم راح العمال يقفزون ، من كل ناحية ، فوق الرصيف إلى الماعونة . وما أن استقروا فيها جميعاً حتى تحرك اللنش الذي يقطرها وهدير آلته يتراوح بين الضعف والقوة تبعاً للمناورة التي يقوم بها . لقد وجد السائق نفسه محصوراً بين لنش آخر وطرف ماعونة ثانية فراح يعمل على تخليص لنشه . وكان معاونه يساعده في مناورته هذه بواسطة رمح خشبي متحركاً على ظهر اللنش منتقلاً هنا وهناك بفتوة ونشاط .

وعندما شق اللنش طريقاً لنفسه وتخلص من معوقاته شخر مرة بعد مرة يلتقط أنفاسه وكأن هذه العملية التي لابد أنها قد أتعبت السائق انتقلت إلى محركه بدورها . ولم يلبث أن انتظم هديره فتحرك إلى الأمام قاطراً الماعونة وعلى متنها العمال . كان بعضهم واقفاً على جوانبها

يتلهى بالنظر إلى الحوض الداخلي للميناء منقلاً بصره بين المراكب والمواعين المحملة والفارغة واللنشات والبواخر . وقعد آخرون في قاعها . يتمازحون ويتناقرون كالديكة . بينما اكتفى البعض بالمشاهدة أو اعتلى مقدم الماعونة أو مؤخرها .

كان أحمد يجلس في المقدمة . وبعد أن اشبع عينيه وروحه بالميناء وما فيه أرتد ببصره إلى الماعونة .

كان أحد العمال يجري هنا وهناك لاسترجاع طاقيته التي راح يتقاذفها نفر من زملائه . عبثاً كان يحاول . لكنه مالبث ان انقلب من الدفاع إلى الهجوم . وبدلاً من أن يحاول استعادة طاقيته اختطف طاقية أحدغرمائه . وسرعان ماوجد انصاراً له فنزعوا ماعلى رؤوسهم من طاقيات أو كوفيات دسوها في جيوبهم تحسباً للطوارىء وراحوا يتقاذفون الطاقية الجديدة . وهنا انتقل المتفرجون بأبصارهم بين الضحك والصفير من هؤلاء إلى اؤلئك .

نظر أحمد إلى ذلك الجمع من العمال الذين علا البشر وجوههم ، هؤلاء الذين طالما تاقت نفسه وهو على بعد مئات الكيلو مترات ان يكون بينهم ملطخ اليدين ، ملوث الثياب ، مغبر الشعر والوجه . يستيقظ في الأصباح الباكرة ، ناثراً — وهو عجل من امره يلوك لقمة كيفما اتفق

لتدخين السيكارة الأولى — تاثراً زوادته التي هيأتها له امه . مسارعاً إلى أخذ مكانه في الماعونة المبحرة لترابط بجانب باخرة . وهاهو الآن في قلب الرفاق ليس بالفكر ، وإنما في الواقع بلحمة ودمه وروحه .

ماأيسر ماتسير به الأمور هذه الأيام . التسجيل والنزول إلى الماعونة والأقلاع . سلسلة بسيطة من الأجراءات . كل واحدة تنتهي إلى الأخرى بلا اية انفجارات ودون بذل للنفس .

وجنح بفكره إلى الماضي . وخال نفسه يقف على طرف الرصيف بين عشرات العمال .

كان الوقت مبكراً تماماً آنذاك والدنيا مسربلة بغبش الصباح الرمادي . وابن الملتزم يقف في قاع ماعونة . وعلى مبعدة متر وقف اثنان من ملاحظي العمل في البواخر . كان يرتدي سترة من الجلد المبطن وسروالاً ازرق على رأسه طاقية من الصوف كحلية اللون وينتعل حذاء مطاطياً طويل الساق . كان في حوالي الثامنة والعشرين من عمره يرفل جسمه في اهاب من الصحة .

انه هناك في الماعونة رمز للغطرسة وقد باعد مابين ساقيه واتجه بوجهه من ثم إلى العمال الذين وقفوا على الرصيف ، يشير بيده للعامل الذي وقع عليه اختياره قائلاً :

— تعال انت .

وما أن يرى العامل الإشارة التي خصه بها ابن الملتزم ويسمع « تعال أنت » حتى يقفز من الرصيف إلى الماعونة. هو ذا عامل يمر ببعض الطقوس التي صارت من أصول اللعبة الصباحية مع الأيام قبل أن يأخذ مكانه بين العمال الذين حبتهم العناية الالهية برضى الملتزم فكان لهم حظ العمل في ذلك النهار. انه يمر من امام ابن الملتزم فيوجه إليه هذا ، بين ضحك المتفرجين وسخريتهم ، صفعة على قفاه يلحقها برفسة من قدمه في مؤخرته.

لكن لاضحك ولاسخرية والدور ينتظر الجميع. المهزلة تفجر الغضب في النفوس والتحدي يحتدم في بعض الصدور.

— « الحمير لاتشتغل كما نشتغل نحن.

— هذا ظلم.

— هذا كفر.

— نحن نسوان.

— عيب ان تكون في وجوهنا شوارب.

— هذه الحالة لم تعد تطاق ».

وعاد أحمد من رحلته إلى الماعونة على صوت يقول له :

— العبد في التفكير والرب في التدبير.

فالتفت أحمد وقال باسماً :

— اهلاً بالحسان.

والحال في الخامسة والخمسين اشتغل أول مانزل

إلى الميناء حلاقاً على الأرصفة ثم وجد أن صنعته لم تلق الرواج الذي كان يتوقع فما كان منه إلا أن باع نصف عدته وأحتفظ بموسى وماكنة حلاقة ومقص وبالمشط طبعاً والتحق بالعمل في البواخر . في البدء أخذ يصطحب معه سراً موساه وماكنته ومقصه ومشطه ليحلق لزملائه خلال الأوقات التي يكون فيها العمل متوقفاً لمدة طويلة لسبب من الأسباب ان على الأرصفة او في البواخر . غير أن الملتزم والملاحظين افهموه بشدة ان بطيختين بيد واحدة لاتحملان ، وأن عليه ان يختار بين العمل في البواخر ، او مهنة الحلاقة . فامتنع الرجل نهائياً عن اصطحاب عدته .

قال أحمد :

– شطح خيالي إلى الماضي . رأيت مرة فيلماً يدور حول سفينة يملكها طاغية في اعماقها عبيد ربطوا بسلاسل حديدية ويضربون بالسياط باستمرار لدفع السفينة بالمجاذيف بأقصى مايملكون من قوة . لاأدري لماذا تعاودني هذه الصورة كلما تذكرت حالنا في الماضي .

فقال الخال :

– الشيء بالشيء يذكر .

اقبل ابراهيم من اقصى الماعونة وتسلق مقدمها . انضم الى زميليه احمد والخال فقعد صوبهما متربعاً . وضع

إبراهيم كيس زوادته الذي كان يتدلى من كتفه في حجره .
قال أحمد مداعباً :

— ماذا تقول الروزنامة في هذه الحال ؟

— اية حال ؟

— حالنا اليوم وحالنا بالأمس . اعني مع الطغاة ؟

كان من عادة الخال ان يحتفظ في جيبه باستمرار برزمة من أوراق الروزنامة ذات الأقوال المأثورة . فما أن يثار موضوع ما ويشتد فيه النقاش حتى يتناول ورقة من مجموعته الخالدة ويتلو مافيها بهذه المناسبة . قال الخال :

— نسيت ان انزع ورقة اليوم . ولكن معي ورقة البارحة واعتقد انها تليق بهذه المناسبة .

قال عامل فتى جلس في مقدم الماعونة على مقربة من المتحاورين لزميل له :

— عجبت لهذا الخال .

كان العامل ريفياً ، نزل حديثاً إلى الميناء ولم يكن قد استوعب بعد الروافع والبواخر واللنشات وعادات العمال وأحاديثهم وصراخهم وتجديفهم وايمانهم ومزاحهم وصفيرهم . ولا القبح والجمال وعجلات الطنابر وزعيق السيارات ، ولا الجري واللهاث والمساومات والسرقات . ولا الأشرار والأخيار والبضائع في الميناء .

قال الزميل :

— ماالأمر الذي جبت له فيه ؟

قال العامل الفتى :

— ماأكثر العمال الذين هو خالهم . ياإلهي كم له من ابناء الأخوات في هذا الميناء ؟

انفجر العامل بالضحك وقال :

— ولكن هذا خال كل الناس . خالي وخالك وخال الجميع .

التفت احمد ولعله سمع طرفاً من المحاورة فأدرك الالتباس . واضاف ضاحكاً :

— وخالي أنا ايضاً .

ازداد حرج الفتى فصعد الدم إلى وجهه . ولم يجد مناصاً ، إذا شاء الخروج من حرجه ، إلا ان يشارك الآخرين ضحكهم ، فضحك بدوره .

قال أحمد :

— هيه ماذا تقول روزنامة البارحة ؟

عندئذ مد الخال يده إلى جيبه وأخذ منها دستة من أوراق الروزنامة قلب عدداً منها بعد تردد حتى

عثر على ضالته . فمزدها من بين المجموعة وعرضها امام عينيه وقرا باحتفال مهيب :

– لكل زمان دولة ورجال .

هز أحمد رأسه مؤيداً . وقال ابراهيم بعد أن رأى رأس احمد يهتز بالرضى :

– هذا القول طيب والله .

سأل الخال وكان من عادته ان يسأله عقب كل قراءة قول مأثور :

– هل من تعليق ؟

لم تكن معرفة الخال بأحمد حديثة العهد فهي تمتد إلى الأيام الأولى لنزول احمد إلى الميناء . وكان الخال يميل إلى أحمد ويقول عنه انه ولد هكذا تاركاً لحركة كفه المستقيمة مهمة التعبير عما في ذهنه . وكان خليقاً أن يولي اراءه من التقدير مايوليه لأوراق الروزنامة ولو تعارض معها أحياناً .

نظر الخال إلى أحمد مستطلعاً . لكن أحمد كان في هذه اللحظة منشغلاً بهذه القضية . اليس من الجائز ان تذهب دولة ما ويبقى مع ذلك بعض رجالها ، خذ يوسف العريان مثلاً . كان ملاحظاً في الماضي وسوطاً يلاحق

العمال في دولة الطغاة وها هو ذا الآن رئيس فرقة .
لماذا ؟ . ذهبت دولته واستمر في دولة غيره . بل صعد
إلى مركز افضل في دولة غيره . اما كان العدل يقضي
بأن يرحل مع الراحلين .

ومد احمد بصره إلى الشرق . كانت الشمس
قد ارتقت من خنف البيوت الهاجعة إلى المكان الذي في
ميسورها ان تطل منه على المدينة . وبدت للحظات
انها توقفت لترسل آخر صيحاتها في إستنهاض المترددين
قبل ان تحث الخطى في الأعالي .

وابتعدت الماعونة المقطورة شيئاً فشيئاً عن فم الحوض
الذي خرجت منه منذ بعض الوقت . وظهر الشاطىء
الصخري المتعرج كحد فاصل بين الماء واليابسة . ولكنه
لاح في نفس الوقت وكأنه مقدم المدينة التي ارتفعت من
جهة فمالت من الجهة الثانية وراحت تنزلق نحو الماء
لتستحم فيه .

ارتد احمد ببصره وقال بعد أن تنهد :

— لاشيء يبلغ الكمال .

فأعلن الخال على الفور ودون ان يفهم العلاقة بين
هذا القول وبين مايدور في ذهن أحمد :

— الكمال لله وحده ياأخي .

واضاف الخال بعد برهة .

— ترى شخصاً يبيع الترمس وهو اهل لبيع اللوز أو البندق .

فسأل ابراهيم وقد نظر بطرف عينه إلى احمد :

— يبيع أم يأكل

فقال الخال :

— لاتزعل « يأكل » . وآخر يبيع اللوز أو الجوز وهو اهل لبيع الفول .

وسارع ابراهيم مصححاً :

— يأكل .

ونظر مرة أخرى بطرف عينه إلى احمد .

فكرر الخال مؤكداً :

— نعم يأكل .

واضاف معقباً :

— دنيا مخلوطة .

فابتسم أحمد . واعلن صوت قوي في تلك اللحظة :

— شغيلة الدانمركي .

ورد عليه آخرون :

ـ أليسطا يا ريس

وخفف اللنش من سرعته وبدأ بالانحراف ليصف الماعونة التي يقطرها وراءه إلى جانب الباخرة .

* *

— هؤلاء الطليان مثل العرب .

قال إبراهيم ذلك تعليقاً على ملاسنة جرت بين بحارين إيطاليين قبل لحظات . كان البحاران يعملان دهانين في الباخرة وقد اختلفا حول هذه المسألة . هل يبدآن عملية القشط في جسم الباخرة الخارجي وبالتالي الدهان من اليمين أم من اليسار .

كان البحاران يحملان ادوات القشط وجرادل الدهان . وحينما حمي النقاش دون أن ينتهيا إلى نتيجة ايجابية ذهبا ليحكما رئيس شغيلة الباخرة في الموضوع الذي اختلفا بشأنه .

قال الفهد وهو عامل فلسطيني شاب في عينيه بريق وذكاء :

— كنت احسب ان العرب وحدهم يختلفون حول مسائل صغيرة مثل : هل يبدآن قشط البويا القديمة وطلاء بويا جديدة من اليمين أم من اليسار .

وأكد إبراهيم مرة أخرى:

— انهم مثل العرب يملأون الدنيا حركات وإشارات بأيديهم . وتنتفخ أوداجهم ويعلو صراخهم من أجل لاشيء .

فقال احمد مازحاً .

— لاغرابة في ذلك . فهم جيران ولهم نفس الطبيعة العصبية . إنهم يعيشون على شواطيء البحر المتوسط .

قال ابو الذهب وهو ينظر من مكانه الى الشاطيء :

— دعونا من قصة العرب والطليان .

كان أبو الذهب رجلاً في الستين أو أكثر قليلاً . حول جبهته عصابة دائمة . لماذا ؟ لاأحد يعرف بالضبط سوى ماأعلنه هو شخصياً من أنها تحمي الرأس من الشمس وتقفله منعاً للصداع . فعلق على كلامه ظريف . واحد من جملة الذين كانوا يعلقون مازحين . علق قائلاً : من الصداع أم تقفله من حذائها (يقصد زوجته) فاستشاط أبو الذهب غضباً ووجه السباب إلى أمه . بل إلى عضو معين من أمه وليس لأمه كلها . وبمرور الأيام تناقص عدد الظرفاء الذين كانوا يعلقون حتى انعدم تماماً . ذهبت تعليقاتهم . بطلت وبقيت العصابة على الجبهة كالعلم .

فقال له الخال :

— عن أي شيء تريدنا أن نتحدث ؟ عن النسوان ؟

— وماذا في الأمر ؟ حديث النسوان يبل الحلق ويطرب القلب .

قال الفهد برماً من تحويل الحديث عن الموضوع الذي يشغله :

— هذا هو الشيء الذي يشغل بال ابن العرب . النسوان .

ثم أضاف بأسى :

— يبدو لي مع ذلك أنه عندما يخوض فيه يكون صادقاً مع نفسه أكثر من حديثه عن الحرب مع اليهود .

قال الخال :

— ياجماعة اتركونا من قصة الحروب والنسوان .

فاندفع ابراهيم .

— من أجل امرأة يبيع ابن العرب ثيابه .

قال الخال :

— ليس الكل هكذا .

قال أبو الذهب محكماً أحمد .

— هل جئتنا لنتقاتل أم لنهزل ؟

قال أحمد ضاحكاً

— طالما أن كل مايجري حولنا هزل أو يشبه الهزل . فلا بد لنا أن نهزل نحن أيضاً .

قال أبو الذهب :

— لاخلاف إذن. اتفقنا .

ثم مضى إلى سور الباخرة فألقى نظرة على الشاطىء وقال لنفسه « متى ينزل البحر » . كان أبو الذهب كثيراً مايشاهد في أمكنة معينة في الشاطىء يصول الرمل بحثاً عن الذهب . وكان قد اكتسب عادة التحدث إلى نفسه في وحدته الطويلة مع الصخر والماء والرمل والسراطين التي تجري مذعورة على الشاطىء .

عاد إلى مجلسه فقال له الخال :

— عيب عليك رجل في الستين

فقال أبو الذهب :

— عيب لمن كان مثلك يتظاهر بشيء بينما هو يبطن شيئاً آخر . لماذا أهرب من قول الحقيقة . عندما أتحدث عن النسوان أحس في داخلي شيئاً يهتز أكثر مني عندما أتحدث عن الحرب .

فاندفع الفهد وقبل أبا الذهب في جبينه فأصابت شفتاه عصابته :

— تقبرني عينك . عبرت ماأردت أنا التعبير عنه . هذه هي نقطة ضعف العرب . النسوان .

فقال الخال :

— ها نحن نعود إلى اللعنة . حكاية الحيات .

قال ابراهيم :

— أحترنا ياأقرع . لاتريد التحدث عن الحرب ولا عن النسوان .

قال أحمد بلهجة ذات مغزى :

— الخال لايرغب في التحدث عن الحرب . هذا أمر لايمكن نكرانه .

فتساءل ابراهيم :

— وماذا عن النسوان ؟

فقال أحمد غامزاً بعينيه :

— يرغب ولكن بنسبة أقل . يرغب إذا رغب الجميع في ذلك .

ثم إلى الخال :

ـ مارأيك خال ؟

فبدرت من الخال حركة لاهي قبول في الظاهر ولاهي رفض ، وإن كانت هي في الواقع أقرب إلى القبول .

كان الخال يعاني بعض المتاعب مع زوجته بسبب الوصال . كانت زوجته معتلة الصحة تشكو من مرض معد مزمن . وكانت قد درجت على استنفار حواسها ويقظتها كلها لمراقبة مرضها . الامر الذي كان لا يدع لها فضلة من وقت لتفكر بالوصال . فما أن تبدأ هجمة الألم حتّى تنهض من فورها لتشرب قدحاً ساخناً من منقوع الأعشاب وتستلقي من ثُم على فراشها متعبة مهدودة . وكان الخال قد راض نفسه منذ زمن على هذه الحال الشقية مع زوجته . لذلك كان ماإن يعرض لحديث المرأة في مجلس أمامه حتّى يسارع إلى الاختباء وراء رغبة الآخرين في المشاركة في ذلك الحديث الذي لم يكن ، كما يرى الخال فيما بينه وبين نفسه ، خليقاً بمن كان في مثل سنه أن يشارك فيه بشكل سافر .

فأيد الفلسطيني ولعله قال في نفسه « من الجنون الجدية في مجالس الهزل » . أيد قائلاً :

ـ الخال يلبس ماتفصلون .

وظلت ملامح الخال على حيادها الظاهري فانبرى أبو الذهب وقال بحماسة :

— لاتصدقوا تظاهره الكاذب . سلوني أنا . لقد مررت بمثل حالته . إذ لاشيء يمتع قلب الرجل مثل الحديث عن النسوان في هذه السن اللعينة .

فقال الفهد :

— مررت بها ولعلك مازلت تعاني منها ...

فقال أبو الذهب :

— لماذا النكران ؟ هذا صحيح وحق الله .

قال أحمد :

— أنت حقيقي أكثر منا كلنا وحق الله .

وقال ابراهيم :

— جهلة الستين .

وقال الخال في آخر محاولة دفعاً للشبهات عنه . وإن كان غرضه لم يخف على أحد :

— لعلك خرفت ياأبا الذهب

لكنه مالبث أن ندم عندما تهيأ أبو الذهب ليرد عليه .

ويخشي أن تسوء الأمور فينصرف القوم عن الحديث الذي يتشوق له .

غير أن أحمد سرعان ماأمسك بزمام الأمور :

— دعونا من المسائل الجانبية ولنتحدث في الأهم .

والتفت إلى أبي الذهب :

— إيه مارأيك بالطليانية ؟

— أية طليانية ؟

وكور أحمد يديه وجعل إحداهما ترتفع والأخرى تنزل في حركة ايقاعية متناوبة :

— لاتتجاهل . كنت أراقبك من هناك . يومان مضيا وأنا أراقبك من وراء الونش . كلما مرت أكلتها بعينيك من الخلف .

— فضحتني ياابن اللئام .

— الله جميل يحب الجمال .

— آه آه ياأبا الذهب .

قالها ابراهيم وهو ينظر في الوجوه حوله .

قال أحمد :

- عندما رأيت تعلق عينيك بعجيزتها قلت : أبو الذهب والله شرقي أصيل .

- وأنت ابن كلب أصيل .

وقال ابراهيم بحرارة :

- قبل قليل كنت شجاعاً تماماً . ماذا حدث لك ؟

ومال أحمد على ابراهيم وقال له هامساً :

- وأنت أيضاً لم تغفل عيني عنك .

فانتفض ابراهيم مثل النابض وقال :

- ولكن أنا لم أنظر من الخلف .

فقال أحمد :

- بل من الأمام ..أعرف ذلك .

وعززت هذه الملاحظة من ثقة ابراهيم بأحمد بأنه شخص لايمكن خداعه بسهولة . وتلاقت عيناهما في ابتسامة ذات معنى .

وقال أبو الذهب :

- إلى ماذا تقودوني لعنة الله عليكم .

- للحديث عنها . لماذا تحبها كبيرة ؟

وكور أحمد يديه .

ـ لإنها تملأ الحضن . لعنة الله عليكم . تشبع منها العين مثل طنجرة الطعام الكبيرة .

وقال الفهد :

ـ صار أبو الذهب يكتفي من طنجرة الطعام الكبيرة بلذة النظر .

ـ باطل.قال أحمد :

وقال أبو الذهب للخال :

ـ اضحك.ريقك سال لحديث النسوان .

وقال الفهد :

ـ وإذا سمعت أم علي ؟

ـ أم علي في البيت .

وقال الخال :

ـ ماذا ادخرت لآخرتك ؟

ـ لاتبيع أخلاق يامنافق .

واندفع أحمد قائلاً :

ـ مالكم هجمتم عليه دفعة واحدة . العمى صهيوني .

ـ دعهم أخي أحمد . علي بهم جميعاً . ليتهم يتحمسون للأرض مثل تحمسهم للعرض .

وقال ابراهيم :

— فكر في الغد .

وقال أبو الذهب :

— اليوم أنا موجود وغداً .

وعض لسانه وأمال رأسه :

— طز في كل شيء .

وارتفع صوت ملاحظ الباخرة من مكان ما :

— تحركوا ياشباب . جاءت مواعين الشعير .

فنهض المتحلقون وتفرقوا إلى أعمالهم . بينما اقترب أبو الذهب من سور الباخرة وألقى نظرة على الشاطئ وتساءل :

— متى ينزل البحر ؟

* * *

بعد أن كشف العمال أغطية العنابر الثلاث ١ و ٢ و ٣ وهيأوها للشحن لم يجدوا مايعملونه . كان الوقت صباحاً ، ومواعين القطن لم تصل إلى الباخرة بعد . كانت الباخرة في يومها الأول وشحنتها من القطن تجهز هناك على الرصيف . تنقل على عربات تجرها البغال من مستودعاتها خارج الميناء . ثم توزن وتنزل إلى المواعين لتأخذ طريقها إلى الباخرة . في هذه الأثناء ربما فكر عامل أن يشغل نفسه بتناول الفطور مادام ليس ثمة مايعمل . وتقرقر معدته فيتقدم على الفور من المكان الذي علق فيه صرته فيأخذها ويجلس على ظهر الباخرة متربعاً حيث يفرش زوادته ويشرع في تناول طعامه . وبعد قليل يحذو حذوه عامل آخر . ولايمضي وقت طويل حتى تسري العدوى بين العمال . ولعل نفس الأفكار تدور في ذهن أحمد وابراهيم فيتنحيان ركناً وهناك يفردان صرتيهما ويروحان يطعمان . ولايلبث أن يلحق بهما محمد الطفران .

ومحمدالطفران هذا عمل جمالاً عند أحد الأغوات لمدة

عشرين سنة ينقل على ظهور جماله العدس والتين والتبغ المدخن والحمص والشوفان والشعير والزيتون والسمسم والحطب من القرى إلى المدينة . وقد تعلم من الجمال التي يسوسها أشياء كثيرة . تعلم الصبر والهدوء والتأمل كما تعلم الاجترار . كان غالباً مايجتر طعام الوقعة الفائتة . وإذا لم يجد في معدته مايجتره راح يجتر صور الطعام ويجتر معها أحزانه .

لم يكن في بيته سوى صندوق تزين صدره مرآة وعشرات المسامير التي كانت رؤوسها لماعة ذات يوم . وفي داخله كان يرقد سرواله البلدي بطياته العديدة وسترته وقميصه وحذاؤه وجرابه . وقد كان فخوراً بهذا الصندوق أيما فخر . ليس لأنه الشيء الوحيد الثمين في بيته بل لإنه من ذكرى أمه وأبيه . وكان عنده فراش مفرود على الدوام فوق حصير مضفور ضفراً خشناً . إذ ماحاجته إلى طيه وليس في البيت أولاد . كان عازباً وكثيراً ماراودته المرأة في أحلامه . وُجد ذات يوم من يهمس في أذنه :

- ماذا يعطيك الآغا ؟

قال له :

- ليس بيني وبين الآغا حساب . إنه يقدم لي من التنباك مايكفيني طوال العام .عندي في صندوق أمي سروال وجاكتة وقميص وحذاء . أعطاني الآغا بيتاً وراء الزريبة لأنام فيه . كما عندي حصير ضفر وفراش ولحاف وقبقاب للوضوء .

- وماذا بشأن الدراهم ؟

- في صندوقي خمس عشرة ليرة .

- هل تحب الآغا ؟

- الآغا رجل طيب .

وقد همس نفس الرجل في أذن محمد الطفران إن الآغا يسرقه ، واستطاع أن يخلخل قناعته بطيبة مخدومه. وأفهمه أن أجر يوم في الميناء يعادل أجر عام عند الآغا . فما كان من محمد الطفران في اليوم الثاني إلا أن شال صندوق أمه على ظهره وترك للآغا كل شيء . ترك الحصير والفراش واللحاف وقبقاب الوضوء ومضى بصندوقه إلى جهة ما ثم راح يعمل في الميناء .

وفي الميناء وضعوا في يده مدبة وقالوا له : ابقر أكياس الحنطة والذرة والشعير . لقد عتل على ظهره خلال حياته مايكفي من الأكياس من وإلى ظهور الجمال .

وآن له أن يستريح بعمل خفر مثل فتح الأكياس . أما لماذا جاء إلى باخرة ستشحن قطناً مع أن هناك باخرة تشحن ذرة بيضاء فربما حدث ذلك بطريق الخطأ لدى توزيع العمال . المهم بالرغم من أنه قد مضى على محمد الطفران في عمله الجديد بضعة أعوام فقد كان لايزال مبهوراً في عالم أعمال البواخر والبحر .

قال أحمد :

– هل أفطرت يامحمد ؟ تعال و شاركنا فطورنا .

واقترب محمد مثل قط مستوحش وجلس متربعاً .

ردد أحمد مرة أخرى :

– شاركنا فطورنا يامحمد .

كان يتعين على المرء أن يطرح السؤال أكثر من مرة على محمد حتى يظفر منه بجواب مقتضب :

– أكلت

ثم صمت .فبالاضافة إلى صفات الهدوء والتأمل والصبر والاجترار التي تعلمها من الجمال كانت هناك مزيةالصمت أيضاً . ولم يكن ثمة مايخرجه عن صمته إلا التحدث إليه عن الآغا والمرأة .

قال ابراهيم :

– هل اشتقت إلى الآغا ؟

– كلا

– وإلى الجمال ؟

– الجمال مخلوقات صبورة وطيبة .

– ماذا تملك الآن ؟

– عندي صندوق وسروالان وجاكتة وقميصان وحذاء جديد وجوربان .

ثم ضحك كأنما لكزه شيء في جنبه :

– أملك حصيراً وفراشين ولحافين وامرأة وولد .

وغمز ابراهيم محمد الطفران بعينيه وقال له :

– إذن أنت لم تعد طفراناً ؟

– كلا معي مائة ليرة .

– وهكذا سبقتني وسبقت أحمد .

وغمز ابراهيم بعينيه ثانية ولكن غمز أحمد هذه المرة :

– نحن مازلنا طفرانين .

فقال محمد الطفران بعفوية :

ـ لاتتأخرا أكثر من ذلك . فالجمل الأخير هو الذي يضحك منه الأولاد دائماً .

قال أحمد :

ـ جزاك الله يامحمد هاأنت ذا تنطق بالحكم .

ثم إلى ابراهيم :

ـ إلحق قبل أن يجري وراءك الأولاد .

قال ابراهيم :

ـ لماذا لاتفعل أنت ؟

ـ أنت تدري أني سأفعل . ولكن ماذا بشأنك أنت ؟ هل مازلت هائماً بالطليانية ؟

ـ آه بنت الكلبة . فقط لو لم تسافر .

فقال أحمد وهو يدفع قطعة خبز في فمه ويلحقها ببضع حبات زيتون :

ـ هل علقت بها ؟

ـ كلا وإنما كنت أفكر في شيء .

ثم ضحك . وحثه أحمد :

ـ تفكر بماذا ؟

ـ كنت أقول لنفسي ..

وبدا أنه عدل عما كان يريد أن يقول وقال بدلاً منه :

ـ ياإلهي كم كانت شقراء .

ولاحقه أحمد وهو يلوك لقمته :

ـ لم تقل لي ماذا كنت تقول لنفسك ؟

وقال على استحياء :

ـ كنت أقول لنفسي . هل هي شقراء في كل جزء منها . أعني كل شعرها .

فقال أحمد وقد دارى ضحكة كادت تفلت منه .

ـ طالما هي شقراء وشعر رأسها أشقر فلا بد أن يكون كلماينبت من شعرها أشقر أيضاً .

ـ أعني وهناك أيضاً ؟

ـ وهناك أيضاً .

وأسند ابراهيم ظهره إلى حديد الباخرة ونفخ مرسلاً من بين شفتيه صفيراً وقال أحمد مداعباً :

ـ قدرك يغلي فوق النار .

ـ ولكن ليس فيه إلا الحصى .

ـ استبدل الحصى بالبطاطا .

ـ البطاطا يلزمها مال .

– المال دائماً . يلعن دين المال .

ثم بعد فترة صمت

– قل لي ياابراهيم ماذا قبضت البارحة ؟

– سبعين ليرة . لماذا ؟

– هل تدري ماذا قبض علي السمّاك ؟ مائة وثلاثين ليرة .

– ولكن السماك محاص .

– لماذا لانكون نحن أيضاً محاصين ؟

– هل بحثت الأمر مع أبي لهب . قلت لي إنك ستبحث معه الموضوع .

– أبو لهب أو غيره . هناك خمس فرق محاصة . قلت لنفسي . اتركهم ياولد حتى يطلبوا هم ذلك . قلت لعلهم يخجلون .

– أنت تتحدث عن الخجل في الميناء ياأحمد وقد خبرت أهله .

– لست أدري . لاأريد أن أظلم أحداً من الرياس . أشغالهم كثيرة كما تعلم . حركة الشحن والتفريغ معلقة في رقابهم . ربما كانوا يحتاجون إلى شيء من

التذكير. لاتتسرع في الحكم على شيء قبل أن تخبره .
العجلة من الشيطان .

فقال إبراهيم وهو يزدرد ريقه الذي سال ويروّح بكفه امام فتحة فمه في حركة عابثة . كان قد أكل قطعة فليفلة حريفة اطلقت دمعه من عقاله .

قال :

ــ انت تحكم عقلك دائماً .

فقال احمد:

ــ لم نر من الإخوان إلا المعاملة الطيبة .

ــ طز في معاملتهم الطيبة . إنهم يشغلون الكلاب عند الحاجة . حكّم عقلك انت . يبدو لي مع ذلك انهم مقصرون في حقنا .

قال أحمد :

ــ لنترو

ــ طيب . الرياس في رؤوسهم مايشغلهم عن التفكير في قضيتنا . ممكن . ولكن ماذا بشأن أولاد العاهرة الشغيلة . ماذا في رؤوسهم غير الباصرة .

ــ الباصرة فقط ؟

- لنقل الباصرة ولنسكت عن البقية

وبعد وقفة قصيرة قال :

- اقول لك شيئاً ياأحمد ؟

- هم .

- إني اشم رائحة لاتعجبني

فتساءل أحمد :

- وكيف شممتها ؟

- بأنفي هذا

- ولكن انفك هذا ممخوط . والأنف الممخوط لايشم .

أما محمد الطفران فقد بدا وكأنه ينظر إلى شيء ما بعيد في البحر . كان على شفتيه طيف إبتسامة . إن المرء ليلحظ في ايما وقت ينظر فيه إلى الطفران آثار ابتسامة منسحبة . لكن البحر كان خالياً من أي شيء حتى الافق .

- وأنت يامحمد مارأيك ؟

وبلحظة عاد الطفران من رحلته البعيدة .

- رأيي بماذا ؟

- رأيك في الآغـا ؟

- أي آغـا ؟ هل في الميناء أغوات ايضاً ؟

* * *

كانا يدرجان كتفه يكاد يلامس كتفها . بل ما اكثر المرات التي تلامس فيها كتفاهما . لقد خلفا وراءهما منذ قليل آخر بيوت المدينة وبدآ يسيران الآن في احضان الطبيعة . كعصفورين ، كزوج من الحمام بدوا متقاربين اليفين لاينقصهما إلا الأجنحة كي يحلقا . لكن ماحاجتهما إلى الأجنحة وقد حلقا بخيالهما . كعصفورين او كزوج من الحمام بدوا متقاربين متفاهمين حتى أن المرء ليخال أن الطيور لم تكن إلا كذلك .. سارت في البدء ، مرة بعد مرة ، ولعهود طويلة ازواجاً متحابة تحلق بخيالها . طارت أولاً بخيالها . ثم طارت بالفعل . لكن ذلك اقتضاها زماناً طويلاً حتى تحقق لها كمالها .

اما اليوم فما اقصر اللحظات التي يكرسها اثنان للتحليق . وماأسرع مايعودان إلى الأرض ببحث شؤونهما اليومية .

قالت :

— لم اتوقع وجودك اليوم في البيت . كنت احسب انك ذهبت إلى الشغل

فقال :

— انا نفسي لم أكن اتوقع ذلك . كنت امر في فناء الدار بعد أن غسلت وجهي . ولكن فجأة ماذا اسمع ؟ أكان هناك عصفور يزقزق في نخلة الجيران . لا أدري أما اثار فيّ . فقلت ليذهب الميناء إلى جهنم . اليوم حب وغداً شغل . وعدت إلى الفراش من جديد . لم تكن الشمس قد طلعت بعد . كانت العتمة خفيفة . والعصفور يزقزق . أي نوع من العصافير يزقزق في مثل هذا الوقت ؟ أهل تدرين ان العصافير تسبقنا في الاستيقاظ من النوم ؟

فجارته قائلة وهي تبتسم :

— هي أيضاً تبكر في الذهاب إلى اشغالها .

ولمع في خاطره هذا السؤال :

— ايكون بينها مياومون ومحاصون ايضاً ؟

ولكنه قال مشاكساً على الفور :

— عجباً وهل العصافير تشتغل . أهذه أول مرة اسمع فيها أن العصافير تشتغل .

– ذلك يعادل شطحتك عن العصافير ياخيالي .

– أنا لم اشطح وإنما قلت . كانت هناك عتمة خفيفة . وكان هناك عصفور يزقزق على شجرة نخيل . زقزقته اثارت فيّ شيئاً . ماالعيب ان تثير زقزقة عصفور شيئاً في نفس شغيل ميناء محب .

وقالت رتيبة بنفس الأسلوب الهازل :

– منذ متى كان شغيلة الميناء يحبون ؟

– آه . لعلك تتصورينهم قساة غلاظاً لاقلوب لهم .

– هذا ماتصورته بالضبط .

وتابع أحمد :

– لايميزون بين رب البندورة ومربى الدراق .

وجارته قائلة :

– هذا صحيح .

وتابعا مسيرهما . فوراء الطريق مباشرة كان ثمة فلاح يقلب الأرض بزوج أحمر من البقر . وغير بعيد كثيراً من الناحية الأخرى كان راع صغير يسوق غنمه صافراً بشفتيه وملوحاً بعصاه . وعلى طول امتداد جانب الطريق من ناحية اليمين كان ينمو نبات الصبار . قال أحمد :

— ياعزيزتي ان لشغيلة الميناء مزايا عديدة .

قالت :

— هذا مالمسته فعلاً . ومنها انهم يعرفون كيف يصفون انفسهم .

— ان بين ضلوع شغيلة الميناء قلوباً تحب ، تخفق للجمال .

— آه هكذا إذن . وكيف نتحقق من مزاعم شغيل ميناء .

— الأمر بسيط . فعندما يرى شغيل ميناء .

قالت :

— انت مثلاً .

قال :

— نعم أنا مثلاً .

وتابع :

— يرى فتاة حلوة .

ضاحكة :

— هم .

— أنتِ مثلاً . ينظر في وجهها ويقول لها : آه

ماأحلى عينيك . ثم يهبط ببصره إلى شفتيها ويقول : ماأحلى شفتيك المكتنزتين . ثم يمسك بيديها وينظر إليها جملة . انت أيتها الفتاة الرائعة هل تقبلين شغيل ميناء مياوم لكنه سيصير محاصاً يأتي في الأماسي ملوث الثياب مغبراً لايميز بين رب البندورة ومربى الدراق . لكنه محب . هل تقبلين مثل هذا الرجل زوجاً لك ؟ فضحكت وقالت على استحياء :

ـ لااخال هذه الفتاة تقول إلا على هذا النحو . . إلا هكذا : أيها الشغيل المياوم الذي سيصير محاصاً . أيها الشغيل الذي يأكل علب البندورة والسردين والدراق بصفيحها .أيها الشغيل المتصف بالغلظة والجلافة (وازداد احمرارها) مادمت قد وقعت في هواي فإني أقبل بك زوجاً .

واستدرك قائلاً :

ـ لكن هناك عيباً في شغيلة الميناء . .

واقترب منها فنظرت إليه متسائلة فتابع :

ـ عيبهم هو أن يدهم طويلة .

وندت عنها :

ـ هم .

اقترب أكثر :

— لكن بالرغم من أن يدهم طويلة فإنهم لايغامرون بتغييب شيء في جيوبهم أو أكياس زواداتهم . .

متابعاً اقترابه :

— قبل ان يجربوه .

وخطف قبلة من زاوية فمها فقالت ضاحكة :

— هل لك ان تضيف مزية أخرى إلى شغيلك هذا .

— هم

— انه مبتذل تماماً .

وقال ضاحكاً :

— هل لك ان تقولي شيئاً لفتاتك هذه ؟

— اية فتاة ؟

— فتاة شغيل الميناء .

ضحكت أكثر فتابع :

— إن شغيل الميناء هذا وجد ، بعد المكسر ، ان البضاعة ممتازة حقاً وإنه لامانع لديه ان يمد يده الطويلة ويحشرها في كيسه .

* *

اقترب احمد من ابي لهب . وابو لهب هو رئيس فرقة المحاصة الثالثة. كان قد نزل لتوه من قمرة القبطان حيث بحث معه بعض الامور المتعلقة بالعمل . قال احمد بعد ان القى عليه تحية الصباح .

— لقد قدمنا استدعاء الى الشركة ياريس

فتساءل ابو لهب :

— استدعاء ؟ لماذا ؟

فقال احمد :

— من اجل المحاصة .

فقال ابو لهب :

— آه . نعم . طيب بسيطة .

وانتظر احمد شيئاً آخر غير « طيب . بسيطة » . وعندما لم يزد حرفاً واحداً على ماقال انسحب احمد .

كان ثمة مايشغل فكر ابي لهب . او هذا مابدا لاحمد على الاقل . واحاط برئيس الفرقة الثالثة ستة من عمال المحاصة بما فيهم فارس ملاحظ الباخرة .

ولم يطل ترقب احمد اذ لم يلبث فارس بعد حديث قصير مع ابي لهب وبقية المحاصين ان استحضر العمال من جوانب الباخرة فمثلوا امام رئيس الفرقة .

بدأ فارس الكلام فقال بنبرة قاسية :

— اين كنتم ؟ ماان صعدتم الى ظهر الباخرة حتى توزعتم مثل الفئران في كل مكان . هذه أول سفرة للباخرة على الخط . لانريد فيها متاعب .

بعد هذه المقدمة بادر ابو لهب الى استلام زمام الحديث فقال :

— بالامس سببتم لنا فضيحة . اشتكى الضابط الالماني الى أمن عام الميناء . استدعاني البوليس وقال لي . شغيلتك سرقوا ساعة الضابط . عرقت وارتبكت . حرت ماذا اقول له . أعرف شغيلتي اوادم (يقصد غير اوادم) ورائحتهم طيبة .

خرج صوت من بين عمال المياومة وقال :

— والله طيبة ياريس .

قال محاص :

— اطيب من رائحة البصل .

تماوجت بين العمال ضحكة . قال الرئيس :

— مع ذلك . قلت له : غير معقول . شغيلتي لايفعلونها .
ربما اضاعها في مكان ما . البارحة رآه الاولاد في البلد . كان
سكرانا سكرة لعينة . فقال لي : اية سكرة يارجل سرقت وهو
يحلق . مدّ احدهم يده من الطاقة واخذها عن الطاولة وهو
يحلق . رأى اليد وهي تنسحب بالساعة من المرآة : وعندما
جرى مسرعاً خارج قمرته ليمسك بالفاعل لم يجد احداً . ولما
كان هؤلاء الالمان لايؤمنون بزيارة الملائكة او الشياطين
لسفينتهم فكان من الطبيعي ان ينصب اتهامه على شغيلتك .
واحد وواحد عندهم يساوي اثنين .

قال عامل مياوم :

— لم نكن في الالماني . نحن لم نفعل ذلك .

قال الريس :

— وكيف لي ان اعرف . عندي اكثر من مئة عامل .
يشتغلون عندي ويشتغلون عند غيري .

قال ابراهيم ببساطة :

— ارجع ياريس الى دفتر كاتب الفرقة . الاسماء مسجلة في
دفتر كاتب الفرقة .

لم يعن ريس الفرقة بالرد على ابراهيم لإنه مالبث ان

انشغل في حديث قصير مع المحاصين مضى على اثره في اللنش الذي كان ينتظره في اسفل سلم الباخرة

قال فارس بعد ان هدر اللنش مبتعداً بالرئيس :

— هيا الى العمل . ازيحوا اغطية العنبرين ٣و٤ . لاتورطونا في مشكلة مع الاجانب .

قال له عامل مياذم :

— كنا نتفرج على الباخرة ليس غير .

قال فارس :

— تتفرجون أولا تتفرجون . بالامس حصلت حادثة . انا لااريد متاعب في باخرتي وكل من يبتعد عن عنبره لسبب غير العمل فسأوقفه عن الشغل حالاً وأبعث به إلى البر .

انسحب العمال وراحوا يزيحون اغطية العنبرين ٣و٤ . فارس من احمد فبادره هذا قائلاً :

— ليس من الانصاف ان تقع التهمة على المياومين . فهناك المحاصون وكتبة البواخر وكتبة التجار وجامعو الاكياس الفارغة وشغيلة المواعين وحراس البواخر .

فقال فارس وكأنه يودع لدى احمد سراً من الاسرار :

— يجب اخذهم بالشدة أخي احمد من وقت لاخر كي لاتعم الفوضى

ويضيع العمل . هؤلاء المياومون مثل القطيع . اذا غفلت عينك عنهم قوي عددهم . وربما تسللوا من وراء ظهرك فأفسدوا كل شيء ليملأوا بطونهم . قد يحرقون الغابة لاشعال سيكارة .

ولعل فارس شعر في قرارته انه قد آلم احمد من حيث لايقصد بحكمه على المياومين فاستدرك قائلاً :

— انت واحد منا . لن يمضي وقت طويل حتى تصير محاصاً .

قال ذلك ثم مضى لمراقبة العمل .

بعد ذهاب فارس بقي احمد وحيداً . استند بمرفقه الى سور الباخرة واعتمد ذقنه في راحة كفه ثم انشأ يحدث نفسه « لكأنني سمعت مثل هذا القول من قبل . اين ومتى لست أدري في باخرة . في ماعونة او على الرصيف . لم أعد أذكر تماماً. لكن المشهد والقول ليساغريبين عني ابداً. التهديد بقطع الرزق. تفاصيل الصورة ضاعت وبقي موضوعها. شخص مايزمجر. الملتزم؟ ابن الملتزم ؟ أو احد كلا به . يرغي ويزبد . شدقاه مفتوحان على اشدهما . الشرر يتطاير من عينيه . من انفه . من فمه . من سحنته كلها. والشغيلة مذعورون . منكمشون لايجرأون على الرد . ولكن الزمن تغير. عجباً هل ممكن هذا ؟ الملتزمون رحلوا . جبابرة الميناء طردوا . تركوا العمل . والشغيلة المذعورون صاروا اسياد الميناء . لكم هذا مفرح. وصاروا يمشون بالعرض.

وصاروا يستكرون العمال باليومية .لكن ربما كان فارس منزعجاً من حادث الساعة . العمال اذا وجدوا ثغرة نفذوا منها . هذا كلام صحيح . واذا تركت لهم الحبل على غاربه ، ولم تسارع فتمسك بزمام الامور ضاع العمل صحيح أيضاً . لعل فارس على حق . الادارة ليست شيئاً سهلاً . وفارس ستيفادور الباخرة وعليه تقع مسؤولية ادارة الامور فيها .

بعد كشف العنابر وتهيئتها للعمل في انتظار شحن المواعين من على الرصيف تفرق العمال حماعات . وفي مكان مامن الباخرة جلس احمد وابراهيم وابو الذهب والخال .

قال ابو الذهب مستدرجاً :

— لم يطل حديثك مع ابي لهب .

كان احمد يبدو خلافاً لعادته منقبضاً لايميل كثيراً الى المشاركة في الحديث . فبالرغم من الحوار الذي دار بينه وبين نفسه وحاول به ان يبرر تصرف فارس وابي لهب ازاء العمال ، فقد ظل شيء ينتش في قلبه . وبدلاً من ان يضفي الطمانينة على نفسه فقد اهاج تخوفها الكامن .

قال احمد مسوقاً الى الجواب بفعل السؤال ليس غير :

— حدثته عن الاستدعاء .

فتساءل ابو الذهب :

ـ اية استدعاء ؟

فانبرى ابراهيم للرد :

ـ قدمنا احمد وانا استدعاء للشركة من اجل المحاصة

قال ابو الذهب بلهجة لاتعوزها السخرية :

ـ آه . أنعـم وأكرم .

ثم اعتدلت لهجته فقال جاداً :

ـ المحاصةشيء جيد . وما يحق للمحاصين لايحق لغيرهم

قال ابراهيم :

ـ عندما تكونت فرق المحاصة كنا في الجيش .

قال الخال :

ـ وقت تأليف الفرق استبعدوا كبار السن . انا وأبو الذهب من الذين استبعدوا . نحن مضى زماننا .

ثم الى ابي الذهب :

ـ اليس كذلك ؟

فرد ابو الذهب بلهجة ذات مغزى محاولاً ان يضحك احمد بالمعنى الذي رمى إليه :

ـ مضى زماننا ! باطل . ليجربوا اذا شاؤوا .

قال الخال وهو ينظر الى احمد غامزاً :

— والله مضى زمانك ياأبا الذهب . دخلت السبعين وتتحدث عن التجريب .

— فشرت . مازال بيني وبين السبعين اشواط . والعبرة بالتجريب .

فقال الخال مستفزاً :

— لاحاجة للتجريب . فالكبير لايصير صغيراً كما ان الصغير لايصير كبيراً .

قال ابو الذهب :

— طز في اوراق روزنامتك اذا كانت تقول مثل هذه الحكَم .

قال الخال :

— مالها روزنامتي ؟ احسن افكار العظماء موجودة فيها . قادة وكتاب ورجال سياسة .

وتابع ابو الذهب :

— وطبخات طعام ايضاً .

قال الخال :

— ذلك في رمضان .

— في رمضان فقط ؟

— في رمضان فقط .

فأكدا ابو الذهب :

– مع ذلك الطبخات موجودة بين اقوال القادة والكتاب ورجال السياسة .

ولدي ابراهيم عنان الحديث :

– كنتما تتحدثان عن التجريب .

ثم الى احمد :

– اليس كذلك ؟

فأجاب احمد بنصف رأسه :

– اجل التجريب .

اما نصف رأسه الآخر فكان موزعاً تماماً بين عدد من الصور البيضاء يقابلها عدد من الصور السوداء . فإذا ذكر برود ابي لهب تجاهه في هذا الصباح قفز الى ذهنه تلقيه له في الاحضان يوم عودته الى الميناء . واذا تراءت له قسوة فارس على المياومين تداعى الى فكره قوله انت واحد منا . ان يمضي وقت طويل حتى تصير محاصاً . والفرح . الفرح الذي غمره اول امس لحظة قدم استدعاءه الى الشركة من اجل المحاصة لم يعد هو نفسه . شابته لطخة ما . شعور بالقلق مبهم . لماذا ؟ لايدري .

وبشجاعة امر اصبعه في خياله ومسح قائلاً « لعلي واهم لم

ار من الاخوان الا كل معاملة طيبة » . ونفخ في فرحهالذي خبا فأعادله تألقه . واكد مرة اخرى .

— اجل التجريب .

وضحك فانفردت اسارير أصدقائه . انقشعت الغمة التي تركت ظلالها على الوجوه عندما زايله انقباضه . فأقبل الخال على الحديث بحماسة بينما تقلقل ابراهيم في جلسته واتخذ وضعاً أكثر استعداداً . قال الخال .

— وكيف نجربك ؟

— كما ينبغي ان يجرب الرجال .

قال ابو الذهب بهدوء . كان واضحاً انه تهيأ لمثل هذا السؤال فلم يكن مفاجأة له وهو الذي قاد إليه من قبل . ثم الى الخال :

— ثور مثلك يجرب بشده الى المحراث . اما كيف يجرب الرجال فهذه مسألة لايختلف عليها اثنان . الذهب يمتحن بالنار والرجل بالمرأة .

وضحك الجميع وهللوا استحساناً . قال احمد لابراهيم :

— سجل باصرة لحساب اخيك ابي الذهب .

وبعد برهة صمت قال ابو الذهب لاحمد :

ــ بارك الله لكما فيما تسعيان . او كنت في مثل سنكما لناضلت من أجل دخول الفرق . ولكنها الشيخوخة . انتما تستأهلان المحاصة . المحاصة من حقكما . كنتما في المقدمة دائماً .

وتمهل ثم تابع مازحاً بجرس لايخلو من تأسف :

ــ لاتنسيانا اذا صعدتما الى فوق . (مسانداً قوله بحركة من يده) . الى الطابق العلوي .

ثم الى الخال بالمزاح نفسه وقد شابته رنة أسى :

ــ هيء نفسك لخسارة صديقين آخرين ياخال .

وقال أحمد :

ــ العين لاتعلو على الحاجب .

وقال ابراهيم مستنكراً :

ــ معاذ الله .

فقال أبو الذهب :

ــ ارجو ذلك.لكن الواقع ان العين علت على الحاجب وصارت بينهما مسافة متر . خذ ابا لهب مثلاً . الم تر كيف يتبختر مثل الديك .

ونبر ابراهيم بعفويته المعتادة ولكن همساً وقد قرب رأسه من الاصدقاء .

– ومن هو أبولهب ؟

قال ذلك ملوحاً بيده في الهواء .

كان أبو لهب رجلاً ضخم الجثة لم يتخط العقد الرابع . خدم في الجيش الانكليزي في مصر ابان الحرب العالمية الثانية . ذات يوم قال لنفسه « لماذا لااشتغل في الميناء ولي مثل هذه الهامة ؟ » . كان قد سرح من الجيش . وكان قد تقلب بين مهن كثيرة عقب تسريحه . كان يرى باستمرار انه اكبر من العمل الذي يمارسه حتى وجد ذاته في الميناء . تراهن مرة على حمل ثلاثمئة كيلو على ظهره . كسب الرهان ولكنه كسب فتقاً في نفس الوقت . وعندما تمرد العمال على الملتزمين كان على رأس المتمردين . بل كان احد الافراد المبرزين الذين قادوا الحركة العمالية . لكنه لسبب ما خلال اشتداد الازمة بين العمال والملتزمين اختفى فجأة . قال البعض انه تلقى انذاراً بالقتل من المتسلطين . وقال آخرون : عندما لاح له في الافق ان الحركة التي ساهم في قيادتها ستفشل في تحقيق الاغراض التي قامت من اجلها ذاب مثل قطعة الملح . ولكن الذي لم يختلف عليه لاهؤلاء ولاأولئك هو أنه حمل في جيبه عدداً قليلاً من بضع مئات من الليرات جمعتها بالمناديل لجان خاصة عطفت على الحركة العمالية . جمعتها من افراد الشعب لتوزيعها على العمال المضربين .

كان قد طلب منه في ذلك اليوم ان يبدل الاوراق المالية التي اعطيت له من القطع الكبير الى القطع الصغير . ولم يعرف احدحتى الآن فيما اذا كان هروبه قد حدثقبل ان يبدل القطع ام بعده . قال اصدقاؤه انه كان مضطراً لفعل مافعل . فقد ارسل المبلغ الى عائلته لتنفقه في غيابه . وقال خصومه : اصيب بفتقين . فتق بالة القطن وفتق الحركة الفاشلة . وعندما تغيرت الاوضاع في الميناء وبدأ الاستعداد لاجراء انتخابات رؤساء فرق المحاصة سرت اشاعة بين العمال بأن المبلغ الذي وضعه أبو لهب في جيبه — وكان قد عاد الى الظهور في الميناء — يوم ذاب مثل فص الملح انما كان بمعرفة اللجان الخاصة لاصدقاء العمال حيث بعث به كي يجري عملية لفتقه الذي اشتدت آلامه مع اشتداد الازمة نظراً للحركة والنشاط اللذين بذلهما وتذاك . وأياً ما كان فحين جرت الانتخابات نجح ابو لهب كما نجح المرشحون الآخرون . وكان نجاحهم بالتزكية لإنه لم يكن لهم من منافسين . ألم يقودوا حركة التمرد العمالية ضد الملتزمين ؟

قال أحمد :

— ما لنا وللناس . حسن واترك الاخرين يعيشون .

قال أبو الذهب :

— هذا كلام لاغبار عليه .

وقال ابراهيم :

— اصبر على المر حتى يحلو . وقد صبرنا . اكلناها مرة فمن حقنا ان نأكل من حلاوتها .

قال الخال :

— كثيراً مارأيت أحمد معهم

قال أحمد :

— كانت اياماً رائعة مليئة بالفخر .

وبلمحة كان في جامع المغربي يمدُّ يده ويقسم مع القاسمين على القرآن بالاخلاص لقضية العمال وبالاستمرار في الاضراب حتى النهاية .

قال أبو الذهب ساخراً مشيراً الى ابي لهب :

— «عندي اكثر من مئة عامل مياوم » . قال فردة . وضرب على ردفه .

لم يكن ابو الذهب يميل إلى ابي لهب . وقلة هؤلاء الذين كانوا يعرفون انه يلقبه الضبع . لكن ليس معنى ذلك انه كان يحب الملتزمين القدماء . لقد كرههم دائماً وحاربهم بأسلوبه الساخر . كان يقول مشيراً إلى هؤلاء واولئك شاملاً الجميع بهذه العبارة المقتضبة « كلاب خلفوا كلاباً » . ولم يكن مستعداً لنقض هذا الحكم ولا

النقاش فيه . ماذا تحب يا ابا الذهب ؟ . النساء . واذا قيل له : من اي وجه ؟ قال : الخبز يؤكل من الوجهين . واذا سئل . ماذا تكره ايضاً ؟ اجاب : الاستغلال . وذات مرة قال له احمد : ألا يتعارض كرهك للاستغلال والمستغلين مع سعيك الدائب من اجل الحصول على الذهب ؟ نظر اليه ابو الذهب ملياً ثم قال : الرجل يساوي ما في جيبه . الناس يجلونك لشيئين : النفوذ او المال . لقد عشت عمري اجيراً . شيء يشبه الحرقة . لم استطع الحصول على النفوذ فعلى الاقل عليّ استطيع الحصول على المال وقال له احمد : وما الضمان اذا حصلت على المال ان لا تكون مثل الآخرين ؟ اجاب : لا شيء . لكن حتى لحظة حصولي على المال اقول لك اني لن اكون كالآخرين . وسأله مرة اخرى : وبعد ان تحصل على المال . وهنا انفجر ضاحكاً وقال : لست ادري . ثم غمغم فيما يشبه الإسرار لنفسه : مع ذلك يبدو لي انني لن اكون كالآخرين .

قال ابراهيم لابي الذهب :

ـــ اذا كنت لا تحبه فهذا شأنك . لكن هناك (غامزاً إلى احمد) من يخالفونك في هذا الامر . هو ايضا له محبوه .

والواقع كان ثمة فعلاً من يحب ابا لهب ويتحمس له . وكان احمد واحداً من هؤلاء . ومهما يكن قد قيل فيه فهو بالنسبة إليه يشبه قطعة نقود لها وجهان مختلفان ولكن لها قيمة واحدة . انه يرمز في نظره إلى فترة نضال مشرقة في حياة العمال . هو وبقية الزملاء . وقبل ايام لم تكن ثمة قوة في الارض مهما بلغ من شأنها قادرة أن تزعزع هذه الصورة الرائعة لديه . لكن الصورة التي احيطت بكل مظاهر الحب والفخار ما لبثت آن اهتزت . امتدت اليها الاقاويل وهزتها . ومع اهتزاز الصورة نبت الشوك في الأرض التي حسب وهو عنها بعيد في الجيش قد صارت جنة . وكل يوم جديد ينبت شكا جديداً.يطرد زهرة حلم بها ، غصناً مورقاً أفاء اخضراره سماء خياله . بدأ يسمع لغطا هنا وهناك . الاستغلال التعالي . المحاصون . المياومون .

فقال ابو الذهب :

— يحبونه أو لا يحبونه . الذين قدموا ليسوا افضل من الذين رحلوا . هذا رأيي .

وقال الخال نابراً وكأنه ينتظر اشارة :

— كلما جاءت امة لعنت اختها .

وقال احمد بجرس لا يعوزه الاسى :

ـ مات القرد ذات يوم فخلف قرودا صغاراً .

وتساءل ابو الذهب ضاحكاً :

ـ أو صرت تقرأ الروزنامة اخي احمد وتحفظها أنت أيضاً ؟

فقال احمد بنفس الجرس وقد شابته رنة حزن غير خافية :

ـ كلا . لقد قرأت ذلك في مكان ما . في قصة أو على شاشة سينما . لست ادري اين تماما . لكني مررت على شيء من ذلك بالتأكيد .



مالت الشمس نحو المغيب كتلة حمراء متوهجة . كانت سريعة في ميلها وهي تنحدر منزلقة في صدر الافق . وبدت وقد اقتربت من مرقدها انها تريد وبأسرع ما تستطيع أن تخلد إلى الراحة بعد رحلة نهارية شاقة . ولم تتوان في اللحظات الاخيرة أن تقذف بنفسها إلى الماء لتغسل أوضار يومها ، فاصطبغ من احمرارها الماء والسماء . وارتفع هناك في مغطس الشمس غبار ذهبي مافتىء يشحب ثانية بعد ثانية حتى صار بلون البنفسج .

اما الغبار في الباخرة التي تشحن شعيراً فلم يكن ذهبياً ولا بنفسجياً وانما كان خانقاً . وقد هاج وماج حتى استقر على العمال فكسا وجوههم وشعر رؤوسهم وثيابهم بطبقة كثيفة . ولم يبق شيء على ظهر الباخرة نظيفاً دون أن يطاله الغبار . وهكذا بدا ظهر الباخرة ومَنْ فوقه من بشر اغبر مريداً كالحاً وسط مهرجان الالوان في صدر الافق وفيما بين نقاء زرقة البحر وزرقة السماء .

وعندما هدأت فرقعة الونش البخاري الحادة في العنبر رقم واحد توقف عصفور على مقدم الباخرة . وبقفزة واحدة استدار ينظر إلى الافق . ثم بقفزة اخرى عاد ينظر إلى ظهر الباخرة . ولم يلبث أن طار باتجاه اليابسة وهو يصرخ صرخات حادة ، كأنه يتساءل ما الذي اعاق هؤلاء النفر من الناس المغبرين الكالحين عن الذهاب إلى بيوتهم وقد بدأ كل ما في الطبيعة يستعد للراحة والرقاد .

ويبدو أن العصفور ليس هو الوحيد الذي القى مثل هذا السؤال . اذ لم يلبث ابراهيم ان تساءل يدعوه :

ـ لماذا لا يعتقون سبيلنا ؟

كان ابراهيم يقف مع الخال وابني الذهب مستندين بمرافقهم إلى سور الباخرة من جهة الغرب . كان العمل قد توقف نتيجة عطل طرأ على الونش(١) . وما هي الا لحظات حتى نهض احمد من وراء ونشه الذي تعطل بعد أن ترك امر اصلاحه إلى ميكانيكيي الباخرة ولحق بأصحابه. كان برفقته رجل آخر اسمه حيران عبد الواحد. وحيران هذا رحالة تنقل بين عدد من المؤسسات والوظائف . فلسبب ما كان في كل مرة يترك العمل أو العمل يتركه . كان

(١) الرافعة .

يقول : الانسان في الحياة ينتقل من خازوق إلى خازوق جتى يجد خازوقه . وهناك يستقر عليه إلى الابد . واذا قيل له : لعل خازوقك في الميناء ؟ قال : لا قدر الله ذلك . افضل في جهنم . واذا قيل له : ما الفرق ؟ قال : في جهنم على الاقل لن تضطر إلى حمل زوادتك كل صباح وتقف على ابواب الفرق . اذ ليس هناك مياومون ومحاصون . الكل فيها محاصون .

قال ابو الذهب لأحمد الذي وصل لتوه .

— قل لاخينا ابراهيم لماذا لا يعتقون سبيلنا ؟

كان احمد ينظف يديه الملوثتين بالزيت بخرقة . فقال دون أن يرفع نظره عن يديه المنشغلتين بعملية التنظيف .

— ما الحكاية ؟

فاعاد ابو الذهب :

— تساءل ابراهيم لماذا لا يعتقون سبيلنا ؟

فقال الخال مشيراً إلى احمد :

— تعطل ونشه .

فقال احمد :

— المسألة ليست مسألة الونش . هناك سهرة . وصلت

برقية إلى الباخرة من شركتها فيما وراء البحار يجب أن تقلع الليلة .

فتساءل ابراهيم وكان يبدو عصبياً بعض الشيء :

— وما شأننا في ذلك ؟

قال احمد في سخرية :

— شأننا ان نهيئها للسفر . هناك بضع طنات يجب أن ندلقها في بطن الباخرة . الباخرة يجب أن تأخذ وجبتها قبل السفر . هكذا تسافر البواخر من ميناء إلى آخر . ونحن من يتعين علينا أن نحشو بطون البواخر .

فتساءل ابراهيم بقلق :

— بضع طنات أم بضع مئات من الطنات ؟

قال أحمد وكان يمر بلمسات التنظيف الاخيرة على يديه :

— منذ متى كنت تسأل مثل هذه الاسئلة اخي ابراهيم؟ عشرات الطنات هي لقمات في فم الباخرة . وجبات البواخر كما تعلم بمئات الاطنان . كل ما في الامر هناك بين مئتي طن وثلاثمئة طن وعلينا أن ندفعها دفعاً في احشاء الباخرة . ثم تضرب على كفلها وتقول لها : والآن سيري يا مباركة . وبعد ذلك تأخذ طريقك إلى البيت لتنام .

ـ في الثانية ام في الثالثة من بعد منتصف الليل ؟

قال ابراهيم ذلك وهو ينظر بقلق نحو اليابسة . كان المساء يهبط بسرعة . وراحت الاضواء تنبعث من المدينة بسرعة هبوط المساء نفسه . كما اشتدت لذعة البرد عنها قبل المغيب .

قال احمد وهو يراقب ابراهيم باهتمام :

ـ وما اهمية الساعة اذا كانت الثانية او الثالثة وحتى الرابعة من بعد منتصف الليل . الأمر يصبح سواء اذا انتصف الليل وانت في العمل . كل الساعات تبدو لا قيمة لها بعد هذا الوقت ما دمت أنت بعيداً عن فراشك .

وقال ابو الذهب :

ـ لكن لا أدري ماذا يزعجك في الامر . هنا سهرة . وهناك (واشار نحو المدينة) سهرة ايضاً .

وقال حيران عبد الواحد :

ـ السهرة هناك تختلف .

قال الخال :

ـ ولماذا تختلف ؟ لا زوجة عنده ولا أولاد .

قال حيران :

ـ ربما خطيبة

واكد الخال مرة اخرى :

— ولا خطيبة ايضاً .

فقال ابو الذهب غامزاً :

— ربما اشياء من نوع ما .

فأمسك الخال قميصه بأطراف اصابعه وهزه مبرأ ذمته :

— هذا لا علم لي به . والله اعلم .

فقال ابراهيم :

— لسوف انزل إلى البر .

قال احمد :

— يبدو لي أنه من المستحسن ألا تفعل : سوف يغضب ابو لهب اذا نزلت وقد يؤثر على ضمك إلى المحاصة .

واكد الخال ضاحكاً :

— قلت لكم هناك أشياء من نوع ما .

قال حيران :

— ابق وسنجعل سهرتك ممتعة . سيدبر لك احمد بعض النبيذ من صديقه اليوناني .

فقال الخال ملوحاً نحو المدينة :

– هناك الماء والخضراء والشكل الحسن .

قال ابو الذهب :

– الماء وافر هنا والحمد لله . اما الخضرة والشكل الحسن فنترك امرها لاحمد . بضع كؤوس نبيذ خليقة أن توجدها في رأسه . واما مزتك فستكون لحماً أو جبناً وهي في كلا الحالين طيبة وعلى حساب الوكيل .

قال احمد :

– لقد اوصوا على وجبة من البر .

فقال ابو الذهب :

– وهكذا فالسهرة ليست شراً كلها . ليست بالسوء الذي تتصوره . بضع ساعات من السهر . مقابل سكرة واجورا اضافية ..

قال ابراهيم :

– طز في هذه الاجور الاضافية . ماذا سينوبني منها ؟ من الجمل اذنه . أنا أسهر الليل في البرد . وغيري يقاسمني ثمرة جهدي وهو هناك بعيد (واشار إلى المدينة) يغط في النوم . أو يعربد في الخمارات .

فتساءل الخال مستغرباً :

ـ لماذا الاذن فقط من الجمل كله .

وقال ابو الذهب بنفس الاستغراب :

ـ كيف ذلك ؟

قال ابراهيم :

ـ سلوا احمد . احمد يعرف فهو ممن يمسكون القلم

ونظر الخال إلى احمد متسائلاً . لكن احمد ظل صامتاً . فقال أبو الذهب :

ـ ماذا في الامر ؟ هل أكل لسانك القط .

ثم إلى من حوله :

ـ احمد لا يريد أن يتكلم . احمد سيصير محاماً . هذا لا يريد أن يفضح اسرارهم .

فقال الخال :

ـ القضية لم تعد سراً . الكل يعرفون . ينزل عدد من المحاصين إلى الباخرة . ثم ينسربون عائدين إلى البر الواحد اثر الآخر . اما البقية . اما الذين لا ينزلون مطلقاً فهم إما متمارضون او يستجمون (وهو يغمز) في حلب . والخلاف كله من هو صاحب الدور بالنزول إلى البواخر لتثبيت وجود المحاصين . ان قضية المحاصين تشبه قصة

ذلك الموظف الذي يأتي إلى دائرته كل صباح فيعلق معطفه ثم يمضي خارجاً .

وقال حيران عبد الواحد :

— لعلهم صاروا عمالاً فخريين بعد أن ناضلوا ضد الملتزمين القدماء .

فقال ابو الذهب :

— صه . لا تتكلم عن المناضلين . احمد واحد من الذين ناضلوا ضد الملتزمين القدامى وعما قريب سينضم إلى أسرة الملتزمين الجدد . وكل حديث عن اخوته في النضال يجرح شعوره .

لم تخف على احمد سخرية ابي الذهب اللاذعة . وشعر بالاحراج . فبالامس وضع يده بطريق المصادفة على شيء . لقد امسك بالقلم وقام بعملية حسابية بسيطة فوجد أن هناك عملية استغلال . جن جنونه في تلك اللحظة واحس بتصدع شيء في داخله . شيء ينهار ويتداعى . شعر أن من واجبه أن يتكلم . لكنه تساءل فيما اذا كان الوقت مناسباً للكلام . في البدء قال لنفسه « ربما كانت العملية غير مقصودة . ربما كانت من النوع البريء ساق إليها الجهل والفوضى والعماء .

غير انه لم يعف نفسه من مسؤولية الكلام . بحث الامر مع احد اصدقائه المحاصين القدماء . نظر إليه الصديق طويلاً ثم قال له : اسمع ! انت قدمت طلباً لتصير محاصاً . فلماذا تخوض في مثل هذه المسائل ؟ هل تريد أن تعلن الحرب على نفسك ؟

عند ذلك ادرك أن عملية الاستغلال ليست من النوع البريء ساق اليها الجهل والفوضى والعماء .

وازداد الواجب ثقلاً . مرة اخرى فكر أن يتكلم . لكنه تردد . احجم عن الخوض في مثل هذه المسائل كما قال الصديق . « لنفترض انني تكلمت فماذا يجدي ذلك؟». قال لنفسه « ما انا إلا مياوم . ولن اجلب لنفسي سوى المتاعب » . وبسرعة اتخذ قراره . لا كلام الآن على الاقل . لكنه سيفعل فيما بعد . عندما سيصير محاصاً سيتكلم من الداخل . سيكون وقتها محصناً بالمحاصة ولن يستطيعوا عمل شيء ضده اذا شاؤوا ذلك . وإلى هنا قفل الحديث في هذا الموضوع . ختم عليه بالشمع الاحمر ونام . ولكن ليس معنى ذلك انه نام على حرير . كلا . فقد ظل يتساءل بينه وبين نفسه لماذا ! ومع تساؤله لماذا كان يترك . التصدع تحول إلى شرخ . واحساس الالم بالفجيعة إلى غضب . غير انه كظم غضبه وختم عليه بالشمع الاحمر ايضاً . ولكن ها هو ابراهيم في لحظة من لحظات انفجاره النفسي العفوي يحطم القفل الذي حسب أن مفتاحه بيده

ويسوقه إلى الكلام سوقاً . وبسرعة ركّب احمد جهازاً كاتماً للصوت . ثم اطلق مهوناً :

– ليست المسألة بذات بال كبير . كل ما في الامر أن ثم المحاصين واسع بعض الشيء كما تعلمون . .

ثم اضاف بعد برهة صمت :

– انهم يشاركوننا اجور الاعمال الاضافية .

واختبر فعل جهازه الكاتم للصوت في وجوه من حوله بعد أن اطلق طلقته . كان رد الفعل ضعيفاً كما حسب . نعم ليس فهم هذه اللعبة ببضع كلمات بالامر السهل . وما اكثر البسطاء الذين جازت عليهم دون أن يفطنوا اليها . فأجور الاعمال الاضافية في باخرة ما يجب أن توزع على شغيلة تلك الباخرة . يجب أن يعمل لها حساب خاص وتوزع عليهم . لكن الذي يحدث هو أن تلك الاجور تدخل إلى جيوب المحاصين الذين لم يعملوا في تلك الباخرة ولا ينوب المياومين من تلك الاجور إلا شيء زهيد ، شيء رمزيْ .

واختبر مرة اخرى وجوه من حوله . كانت الوجوه لا تزال على حيادها . لا غاضبة ولا مندهشة . الكفتان متعادلتان . نفخة على احدى الكفتين فترجح . ونفخ احمد .

ولكن نفخ لا في هذه الكفة ولا في تلك . نفخ في الهواء .

— ليست القضية اكثر من تعليق المعطف .

وضحك ليجهز على الطلقة التي كتم انفاسها من قبل . وسارع ابراهيم الذي انحى على نفسه باللائمة لتسرعه بالتلميح إلى استغلال المحاصين ، سارع إلى نجدته فضحك بدوره . هو ايضاً له مشكلته مع المحاصين وله استدعاؤه بطلب المحاصة . له ظروفه العائلية وله آماله . تعلم ان يتكلم عندما يتكلم احمد ويسكت عندما يسكت . لكن لماذا أفلت بالهجوم على المحاصين؟ « لست ادري . انزلقت» قال لاحمد عندما عاتبه فيما بعد . ثم اضاف « لكن الامور من السوء والبشاعة حتى أن المرء لا يستطيع أن يمسك فمه طويلاً عن الكلام » .

كان الوقت عصراً حينما اغلق العمال فوهات العنابر ثم راحوا ينتظرون لنشاً ليقلهم إلى البر . وكان البشر يعلو وجوههم . انه لشيء رائع حقاً أن يعودوا إلى بيوتهم في مثل هذا الوقت . وبدت باخرتهم التي اخذت تستعد للاقلاع بعد أن افرغت حمولتها الثلاثمئة طن من البضائع بدت كخلية بشرية . فبحارتها يروحون ويغدون اما على ظهرها او في جوفها للقيام بالمهام الموكولة اليهم بحمية واندفاع .. كان في عيونهم ووجوههم توق إلى المجهول . انها ساعة الرحيل .

وعندما سئم العمال من الانتظار تفرقوا على جنب الباخرة الشرقي مثنى او أكثر بعد أن كانوا متجمعين قرب السلم . حتى اذا ما تحدث احدهم إلى الآخر تحدث بنصف انتباه . واذا ما نظر امرؤ إلى محدثه نظر إليه بعين وراقب بالثانية فم الميناء .

اما احمد فقد انصرف بكليته إلى مراقبة سرب من الاسماك جاء يبحث عن شيء يقتات به حول جسم الباخرة .

كان احمد يطل على الاسماك من عل . كان يجلس على سور الباخرة . وكان للبحر بدءاً من السطح حول الباخرة وامتداداً إلى الاعماق ، لون اخضر . وكان له رائحة البطيخ ايضاً .

وتناول الفتى من كيس زوادته قطعة خبز ورمى بها إلى البحر فتدافعت نحوها الاسماك . انها المرة الثانية او الثالثة التي يقوم فيها بهذه العملية . واستمر في تسليته باجتزاء الخبز ودفعه إلى البحر . لكنه لاحظ أن الأسماك الكبيرة هي صاحبة النصيب الأوفى في كل مرة . كانت تندفع بسرعة كبيرة نحو الفتات وتستولي عليه غير عابئة برفيقاتها الأسماك الصغيرة التي خلفها في المؤخرة . قال « ماأشبه صراع السمك بصراع البشر من أجل العيش » .

وتقلقل العمال المبعثرون على امتداد جنب الباخرة الشرقي بعد أن طال ترقبهم . وبدأ ينفد صبرهم . فما كان من أحد العمال إلا أن تسلق سلماً وهناك خلف برج المراقبة ، وغير بعيد عنه ، شد حبلاً ثلاث مرات فصعدت الباخرة على أثرها ثلاث صفرات أشبه بخوار ثور هائل .

وفي الناحية الأخرى كان أحمد لايزال يواصل لعبته مع السمك . قال في نفسه « سأجعل الأسماك الصغيرة تحصل على بعض الخبز » . ثم عمد إلى تغيير خطته .

فبدلاً من أن يرمي الخبز في مكان واحد القى به في مكانين مختلفين على التوالي . قطعات إلى الأمام لاتلبث ان تندفع نحوها الأسماك الكبيرة ثم يعقبها على الأثر بقطعات إلى الخلف تتجمع حولها الأسماك الصغيرة . غير أن الاسماك الكبيرة سرعان ماكانت تلتهم حصتها من الخبز ثم تنقض على مافي افواه الأسماك الصغيرة .

إلى هنا واللعبة تسير على هذا المنوال . لكن فجأة وعلى نحو غير متوقع اندفعت سمكة صغيرة نحو أخرى كبيرة بعد أن استلبت هذه حصتها وحصة رفيقاتها السمكات الصغيرات . اندفعت بغية استعادة الخبز . فما كان من السمكة الكبيرة إلا أن ابتلعتها . اسف احمد لمصير السمكة الصغيرة ، لكنه أكبر جرأتها .

جاء اللنش ونودي العمال لنقلهم إلى البر . ترك أحمد سور الباخرة ومضى بتثاقل . قال بلهجة اسيانة « ماأشد الشبه بين مايجري هنا في البحر وبين مايجري هناك في البر » .

وهناك عند أسفل سلم النزول والصعود اشتد لغط الماء المحصور بين اللنش المتقلقل وجسم الباخرة . وكان له لون اخضر ابتداء من السطح وامتداداً إلى الأعماق . وكان له رائحة البطيخ ايضاً التي ملأت انف أحمد .

لم يمض أحمد كبقية العمال إلى مكتب الفرقة ، ولا واصل طريقة مباشرة إلى البيت . وإنما سعى إلى قبو المراكبي الذي اتخذ من هذا القبو بيتاً له . كان احد صفقي باب القبو مغلقاً أما الثاني فمشرعاً . طرق صفق الباب المغلق طرقتين وانتظر . لم يتلق رداً . وإنما سمع ، أو هكذا خيل إليه ، بدلاً من ذلك كلاماً في الداخل . قال لنفسه « لعل لدى العجوز زائراً ما » . واطبق يده وطرق الباب كرة أخرى على نحو اقوى من السابق . ولم ينتظر هذه المرة طويلاً حتى سمع :

— من بالباب ؟

ولم يجد احمد تعريفاً أفضل من أن يقول :

— أنا .

فهو لم يسبق ان عرف العجوز باسمه ولابكنيته . وإنما أمل أن يعرفه بالصوت . أمل أن يتذكره من نغمة صوته . وحتى عندما اقتربت خطوات العجوز ووقف بالباب قائلاً :

— من أنت ؟ ماذا تريد ؟

لم يزد أحمد على قوله :

— أنا .

ونظر إليه العجوز متفرساً .

— آه انت . البحار . أدخل . ألم تبحر ؛ ؟

كان العجوز يقف في هذه اللحظة في العتبة فأخلى له الطريق .

تقدم أحمد إلى الداخل بخطى حذرة نوعاً . كان الجو معتماً هناك بعض الشيء عنه في الخارج . لكن أحمد استطاع مع ذلك ان يكون انطباعاً أولياً هو ازدحام المكان بالأشياء .

قال له العجوز :

— اجلس .

ودفع نحوه بكرسي نصفي . جلس الفتى وثانية بعد ثانية اعتادت عيناه الرؤية . كان القبو حافلاً وكل محتوياته أو معظمها بما يمكن ادراجه تحت اسم سقط الأشياء . فمن كنبة افرادية ذات مسندي يد ، إلى سلحفاة تسعى بحذر واحتراس. وقطع من أواني فخارية عتيقة .

مدامع ومشربيات واجران وقصبات غلايين متربة .
وحبال وشباك واسلاك وزجاجات خمر فارغة من كل الالوان والأشكال والاحجام . وواق وقبعة مطر جلديان بالاضافة إلى ثياب آخرى معلقة على حبل اثبت إلى جدارين متجاورين . كما كان هناك صناديق خشبية وعلب كرتون ودمجانة وعناكب في زوايا القبو . وصحاف طعام فخارية وأخرى نحاسية تبدو من النظرة الأولى أنه قد مضى عليها عهد طويل لم يوضع فيها ايما طعام مما حدا بأحمد إلىالاستنتاج ان العجوز يتعاطى لابد بيع بعض العاديات الشرقية للسياح والبحارة المارين بالميناء . وفي زاوية من القبو وعلى مقربة من المكان الذي جلس فيه احمد اصطنع سرير من الصناديق والألواح الخشبية طرحت فوقها حشية . ولم يكن هذا كل مافي القبو . فما يكاديمضي بعض الوقت ويتجه احمد بنظره ناحية ما حتى يكتشف شيئاً جديداً يضيفه إلى ماالتقطته عيناه في اللحظات الأولى . والآن هاهو ذا يكتشف هراً يموء . نظر ناحية مصدر المواء فوجد الهر يأخذ طعامه من غطاء علبة معدني .

قال أحمد :

– سمعت كلاماً فحسبت عندك بعض الزوار .

قال العجوز :

– ربما كنت أتحدث إلى الهر .

وبعد فترة صمت .

– فعندما يمضي وقت طويل وفمك مطبق تجد نفسك في وقت من الأوقات مضطراً للكلام بطريقة ما . يرغب لسانك بالحركة . تجول في رأسك خيالات اشخاص ومشاهد وكلمات . تريد أن تتأكد من أنك حي ، فيتجه لسانك بالكلام إلى الهر أو غير الهر . تعطي للهر اسماً . تفترض ان الهر انسان..تعامله كما تعامل الانسان.وتقول له ماتقول للانسان . تحدثه عن البرد عندما يكون الجو بارداً وأن عليه ان يأخذ حذره . وينظر إليك الهر ويهز ذيله . فيبدو لك انه يفهم أكثر مما نتوقع . وتمضي انت فتحدثه عن آلام المفاصل الموجعة في ليالي الشتاء الطويلة . ويستمر الهر في النظر اليك ويستمر اهتزاز ذيله . ويموء لك مواءاً ممطوطاً حزيناً فتشكو له الوحدة والشيخوخة . وأنك كنت طفلاً وكان لك أب وأم في يوم من الأيام يدفئانك في الشتاء ويغمرانك بالقبل .

وفكر أحمد انه لم يكن موفقاً في زيارته . إذ ان العجوز يبدو ليس في افضل حالاته النفسية .

قال له مواسياً :

– هل تؤلمك مفاصلك ؟

قال العجوز :

– ليس كثيراً . لكنها غلطتي مع ذلك . اذ يبدو انني لم آخذ نصيباً وافياً من زيت كبد الحوت عند ما كان يتعين علي أن افعل ذلك . والآن هاهي ذي مفاصلي تدفع الثمن . اقول لك . لم أكن استطيبه . كانت نفسي تعافه احياناً . وكان يكاد يدفع بي إلى الغثيان لاسيما في تلك الاصباح التي استيقظ فيها وفي فمي آثار من خمر الليلة الفائتة .

قال أحمد مشجعاً :

– لكن البركة فيك .

ونقر على خشب الكرسي .

فقال العجوز :

– إيه هل تعتقد انني خائف من الموت؟ كلا . لكن الذي يؤلمني هو أني لاأملك سوى حياة واحدة أهبها للبحر . وإن أسفت على شيء فلإني لم ابتعد إلى ماوراء بحار صيد الحيتان . إني ارثي لأولئك الذين تلامس

اقدامهم الشاطىء ثم لايمضون قدماً . أولئك الذين يكتفون من البحر بالنظر إليه .

ونبت شيء في جنبي أحمد . شيء ما يشبه الاجنحة ثم خفق وارتجف وفي ثانية أخرى كاد أن ينشر نفسه تحفزاً للتحليق لكن ذلك لم يدم سوى لحظة او لحظتين وبعد ذلك سكن خفق الاجنحة ثم طويت . وخطر لأحمد أن يقول « لولم يكن أبي مفلوجاً . ولو لم أكن المعيل الوحيد في البيت . . . » . لكنه قال بدلاً من ذلك :

ــ ماذا يحدث لوعمل الناس برأيك . ألن تقفر الأرض ؟

ولم تكن فكرة الابحار جديدة بالنسبة إلى أحمد . فهي قديمة قدم نزوله إلى الميناء . وكم من مرة قرر فيها الرحيل . ولكن شيئاً ما كان يحول دوماً دون تنفيذ قراره . وحتى عندما كان في الجيش كانت فكرة الرحيل على ظهر إحدى البواخر غير بعيدة عن ذهنه . كانت ضمن مشروعاته . بل إنه ذهب إلى حد رسم الخطط بالتفصيل لهذا الرحيل .

قال العجوز ساخراً :

ــ وهل تحسب أن كل من وقف على الشاطىء ومد

نظره إلى الأفق خليق بأن يمتطي ظهر البحر . الدجاجة لها جناحان والبطة لها جناحان . ولكن هل تطير البطة أو الدجاجة ؟ ماكل من حمل جناحين على جنبيه طار . ماكاد بصري يقع عليك منذ اللحظة الأولى حتى قلت لنفسي : « هذا بحار » . لعلك ستقول لي وراءك مسؤوليات . المسؤوليات أمراس . هل تصدق معجزة المسيح فوق الماء ؟ أنا أصدقها . أراد المسيح أن يمشي فوق الماء فمشى . تماماً مثلما أراد أن يصعد إلى السماء فصعد . ألم يكن وراء المسيح مسؤوليات ؟ بلى كان . لكنه قطّع أمراسه ومشى فوق الماء . ثم قطّعها مرة أخرى وصعد إلى السماء ؟

وبدأ العجوز بإيقاد المصباح. كانت العتمة قد أخذت تتكاثف في الداخل . وما إن أشعل الفتيل وأعاد زجاجة المصباح إلى جرنها حتى برم لولبه فنبق الفتيل المتقد وشاع في القبو النور . ثم مالبث أن أنشأ يعد العدة لاشعال النار في صفيحة معدنية . كان هناك بعض قطع من الخشب فيها الصغير وفيها الكبير . وعندما أراد العجوز تشقيف الكبير قام أحمد بهذا العمل بالنيابة عنه . فتفرغ المراكبي القديم لتنضيد الخشب في الصفيحة على نحو هرمي ..

حينما انتهى من بناء هرمه الخشبي أشعل فيه النار .

فإزدادت الاضاءة في جوانب القبو وتراقصت الظلال والأشباح على جدرانه وسقفه . قال المراكبي وقد انعكس على وجهه وهج النار :

— هيه أنت تخشى أن تقفر الأرض إذن ؟ حسناً لن يحدث ذلك أبداً . ستظل الأرض تعج بالناس لأنهم قلة أولئك الذين يجرأون على تقطيع أمراسهم ليعتلو ظهر البحر .

وملأ غلاية بالماء من جرة فخارية.والغلايةعبارة عن علبة معدنية من ذلك النوع الذي يستعمل لحفظ المأكولات اسودت جوانبها فبات من المستحيل معرفة الطعام الذي كانت تحفظه ذات يوم . وكان العجوز قد لفّ حول العلبة سلكاً معدنياً لعله كان من اللين ودقة الثخانة مما اضطره أن يعيد عملية اللف أكثر من مرة ثم برمه في جديلة ليجعل من أطرافه مقبضاً للغلاية . وكان السلك قد صار بمثل لون الغلاية في السواد أيضاً..

كان الخشب في الطور الأول من الاشتعال مما يتعذر معه وضع الغلاية في النار فحطها جانباً .

جلس العجوز على حافة السرير مقابل أحمد الذي عاد إلى كرسيه النصفي . كانت صفيحة النار غير بعيدة

كثيراً عن الاثنين . وكان الوهج يتردد على وجهيها .

قال المراكبي :

ـ حسناً ! لاشك أن الأمور تجري معك طيبة هناك مادام البحر لم يغرك حتى الآن بالسفر .

قال أحمد :

ـ ليست طيبة تماماً .

ـ ليست طيبة تماماً . لماذا ؟ هل العمل شاق ؟

ـ لا . ليس شاقاً .

فتساءل العجوز :

ـ وإذن ؟

ومرت في خيال أحمد بمثل لمح البصر الأسماك الكبيرة والأسماك الصغيرة وعبق أنفه برائحة البطيخ .

ـ كنت أعتقد بعد أن استلم العمال الشغل وصاروا أرباب العمل في الميناء أن الأمور ستكون أفضل .

فضحك العجوز وقال :

ـ أو اعتقدت ذلك ؟

قال أحمد على الفور :

ـ وكان العمال مضطهدين من أرباب العمل السابقين

فثاروا عليهم حتى قيض لهم أن يستلموا هم العمل . في الماضي كنا نعيش في فاقة وها نحن الآن في فاقة . ماذا تبدل ؟ يبدو لي أنه إذا كان هناك رب عمل فاسد في مكان ما ثم أتفق لرب العمل هذا أن يمضي إلى جهنم فيجب أن يمضي معه فساده أيضاً .

قال أحمد للراعي الصغير :

— « من ربط فم هذه العنزة الصغيرة ؟

— أبي

— لماذا ؟

— كي لاتفتح فمها .

— وإذا فتحته ؟

— إذا فتحته فإنها تأكل حليب الأم طبعاً .

— عجيب . أونحن نأكل حليب هذه العنزة الصغيرة إذن ؟ » .

ونظر أحمد في وجه المراكبي :

— يأكل الحليب غير أصحابه .

وقال المراكبي :

— والعسل من لايتعب في جنيه .

وبعد فترة صمت :

— اسمع ياصديقي البحار . أوليس أرباب عملكم الجدد من نبت هذه الأرض : أوليسوا يأكلون ويشربون وبالنتيجة يقرفصون ؟ هل وفدوا من كوكب آخر ؟

فهزّ أحمد رأسه نفياً .

كان ثمة للمراكبي رأي بالناس الذين يعيشون خارج البحر . فهم في نظره كذابون ومستغلون ومنافقون وفشارون وجبناء وانتهازيون ودساسون . ومصدر كل هذه الرذائل هو فقدان الشهامة وتراكم الفساد في الأرض . أما البحر فلا يقبل الفساد . ويضرب العجوز مثلاً بأن أعماق البحر تلفظ الجسم الفاسد وماتزال تدفع به بإتجاه الشاطىء حتى تتخلص منه . في حين أن الأرض على العكس تضم في أحشائها النتانة والفساد والعفونة . وهكذا فالأرض أكثر ماتحتاج إليه من أي شيء آخر هو حريق يأتي على الأخضر واليابس . أو طوفان جديد يغرق كل شيء . وكان إذا قيل له بأن الحريق غير ممكن لأنه يعدم كل حياة ونبت إلى غير رجعة دفع برأيه الاحتياطي وهو الطوفان وتشبث به . وإذا نوقش بحيثيات الطوفان وإنه يحتاج إلى نوح جديد يقوده ، قال سوف يظهر هذا النوح إن عاجلاً أو آجلاً .

لكنه سوف يظهر بالتأكيد . لكن عندما تلاحقت الأيام والشهور والسنين دون أن يظهر نوحه الجديد . انتهى إلى قناعة بأن الطوفان لن يحدث لا الآن ولا في أي يوم آخر لسبب بسيط ، هو أن أي نوح لم يعد يقبل أن تُوكل إليه مهمة قيادة أيما طوفان آخر لاسيما بعد ماثبت فشل تجربة نوح الأولى وعدم جدوى الطوفانات . ويضيف المراكبي : ومن يدري لعل محبس الله قد امتلأ بأولئك الذين يرفضون أوامره بالنزول إلى الأرض لادارة أي طوفان جديد .

وعندما انتهى إلى اليأس من تحقيق أي من حلميه الطوفان أو الحريق تساهل بعض الشيء . فاستبدل آراءه السابقة بالدعوة إلى الرحيل في البحر . فالبحر امتحان للرجولة ولاخلاص للانسان إلا بالعيش فيه ، أو على الأقل ، قضاء القسم الأكبر من حياته فيه ، حتى إذا ماعاد إلى الأرض ، لم تعد هناك قوة قادرة أن تغير من طباع الرجولة والفروسية التي اكتسبها البحار خلال حياته المديدة في البحر .

وعبثاً جاول واحد من الذين قدر لهم أن يستمعوا إلى فلسفته أيام كان أكثر انبساطاً على الآخرين . أن

يستدرجه لمعرفة المصدر الذي استمد منه افكاره الغريبة . لو لا أن اتفق لطالب علم غريب الأطوار مهووس بدراسة كل غريب ينتجه البحر ويلقي به إلى الشاطىء، مر بالميناء ذات يوم فاستمع إلى دعوته إلى التطهر بالسفر في البحر . في تلك الأيام كان لايزال لدى المراكبي قليل من القوة يمكنه من الشغل على الأرصفة بأخذ أطراف مدات المواعين وشدها إلى المرابط المعدنية على حوافي الأرصفة . وقد وفق هذا الطالب فيما لم يوفق الآخرون بكشف النقاب عن أساس هذه الفلسفة عندما رحب بدعوة المراكبي . وسأله أن يدله على المراجع التي استقى منها فلسفته للإلمام بتفصيلاتها . فأخبره المراكبي أنه لم يقرأ ذلك في الكتب ، وإنما توصل إلى هذه الأفكار مع بحار هندي شاركه قمرته في إحدى البواخر لمدة طويلة .

قال المراكبي وقد هبت عليه فجأة أنفاس من رياح فلسفته التشاؤمية في البشر :

— لماذا تنتظر من أرباب العمل الجدد أن يكونوا أفضل . الطينة واحدة .

قال أحمد :

— لكنهم ثاروا على الظلم . ذاقوا المر . فكان

يُنتظر منهم أن لايسقوا الآخرين من الكأس التي أكرهوا على تجرعها يوماً .

— كما قلت لك . الطين واحد . لكن الشكل هو الذي يتغير . هناك جرار ومشربيات وأباريق وخوابي . لكن الطين واحد .

كانت ألسنة النار قد خمدت وتحولت قطع الخشب المحترقة إلى كتل حمراء متوهجة . فنهض العجوز وجرّ صفيحة النار مسافة.ثم وضع الغلاية فوق الحجر الأحمر. وبعد ذلك حمل عدة الشاي ووضعها جانباً . ثم عاد إلى الجلوس على حافة السرير فكان في مقدوره أن يعد الشاي في موضعه ذاك .

عاد العجوز إلى استئناف حديثه فقال :

— الميناء مثل الغابة والقانون الذي يحكم الغابة هو ذاته الذي يحكم الميناء . إن عمليات الاستيلاء والقنص في الاثنين واحد . هناك فريقان لاثالث لهما . فأنت في الميناء إما صائد وإما مصاد ولاخيار لك .

فقال أحمد :

— أكره أن أكون مصاداً . ولكني وبالتأكيدأكره أكثر من أي شيء آخر أن أكون صياداً أيضاً . بودي

أن أكون بين الاثنين .. لاهذا ولا ذاك . لاصائد ولامصاد .

قال المراكبي وقد التمعت عيناه في وجهه الذي بدأ الآن أشد سمرة بعد أن خبا وهج النار :

— ليس هناك لاصائد ولامصاد . إذا لم تكن صياداً فأنت واقع في شبكة الصياد.لامحالة . لعلك تظن في نفسك من قوة العضل وضخامة الجسم مايكفل لك أن تظل في مأمن من شرك الصياد أنت مخطىء . في الميناء كما في البحر وكما هو في الغابة أيضاً وأي مكان آخر. هل في البحر لاصائد ولا مصاد ؟ هناك حيتان يزن الواحد منها خمسين ستين طناً . هل تدري ماذا تفعل عندما تهاجمها حيوانات أخرى أقل ضخامة ؟ إنها تستلقي على ظهورها ترخي أطرافها كأنها بذلك ترفع راية السلام وتعلن عن حيادها . لكن هل هذا الاعلان يدفع عنها أذى الحيوانات المهاجمة ؟ كلا . إذ سرعان ماتنقض الحيوانات الصيادة وتلتهم ألسنة الحيتان المسالمة قضمة بعد قضمة .

ورفع يده في الهواء :

— انتصب على قدميك وشدهما وحذار أن تكون حوتاً تستلقي على ظهرك وترخي أطرافك . ارفع راية الحرب بدلاً من راية السلام . كن صياداً كيلا تكون

مصاداً . تلك هي السبيل الوحيدة ليظل المرء في مأمن من أشراك الصيادين .

فسأل أحمد متأثراً :

— والحوت المستلقي ألا يفعل شيئاً عندما يتأكد من أذى الحيوانات المفترسة .

قال العجوز :

— كلا .

فتساءل أحمد بالتأثر نفسه :

— لماذا ؟

قال العجوز :

— لماذا ؟ هذا هو السؤال .

داق المراكبي قدراً من السكر في الغلاية التي أخذ يفور ماؤها . وعندما تأكد أن السكر ذاب في الماء الذي يغلي أسقط فيه شيئاً من الشاي . ثم أخذ الغلاية بعيداً عن النار فوضعها على الأرض وغطاها بقطعة من الزجاج فلاح البخار يتكاثف تحتها .

وواصل العجوز :

— نعم هذا هو السؤال . لماذا ؟ لماذا يسلم الخروف

رأسه للذئب والحوت لسانه لذئاب البحر الصيادة لعلك ستقول لي : الذئب أقوى من الخروف . وأنا أقول لك : إذن لماذا توجد القرون على رؤوس الخراف ؟ أتدري كيف يبدو الأمر لي ؟ كانت الخراف ذات يوم تقاتل ولعلها كانت صيادة أيضاً . وهذا هو السبب الذي يفسر وجود القرون على رؤوسها . لكنها لسبب ما تساهلت في شأن الذئاب . ربما استهانت بها من يدري . وانتقل ذلك إلى الخرفان جيلاً بعد جيل . حتى جاء زمان لم يبق فيه للخرفان من طبيعتها المقاتلة الصيادة سوى القرون على رؤوسها .

بعد أن انهى الهر وجبته مسح فمه وشاربيه . ماء ثم اقترب بخطى حذرة ولم يلبث أن قفز إلى السرير وربض بجانب العجوز مغمضاً عينيه نصف اغماضة .

أزاح المراكي غطاء الغلاية الزجاجي فتصاعد البخار في الحال وانتشرت رائحة الشاي . ملأ قدحين قدم احدهما لأحمد واحتفظ بالآخر لنفسه . نهض بعد ذلك فسكب قليلاً من الشاي في الغطاء المعدني الذي كان الهر يتناول فيه طعامه .

قال للهر :

— هيا وخذ شايك من هناك .

ثم ضربه بلطف على مؤخرته . فمضى الهر إلى وعائه وراح يلعق الشاي بخفة . نظر أحمد بعجب إلى الهر وتساءل :

— أويحتسي الشاي أيضاً ؟

فرد العجوز :

— ولم لا ؟ لقد عودته أن يأخذ القهوة وألا يعف عن طعام .

قدم أحمد سيجارة للعجوز وأشعل لنفسه واحدة من صفيحة النار . قال العجوز وهو يشعل السيجارة من الصفيحة بدوره :

— أتدري ماذا يعجبني في الهر ؟ لم ينس أنه حيوان صياد . ربما نسي أنه قدم من الغابة لكنه لم ينس طبيعته الصيادة . يجري وراءك . يتمسح بك . يتقبل كل ماتقدمه له حتى ليخيل إليك أنه كآلف مايكون . لكن فجأة ، في لحظة من اللحظات ، تستيقظ الغابة وكل أمجاد القنص الغابرة في نفسه . في حين تحسب أنها قد نامت فيه إلى الأبد .

ورشف أحمد رشفتين من شايه بعمق وأكد مرة أخرى :

ـ لست أدري . يبدو لي مع ذلك . أنني لاأريد أن أكون صائداً ولا مصاداً . لا ظالماً ولا مظلوماً . المحاصون كانوا مظلومين مصادين ذات يوم لكنهم انقلبوا إلى صيادين في يوم آخر . لماذا فعلوا ذلك ؟ هذا شيء غريب.

قال المراكبي :

ـ أنت وشأنك . هناك صيادون وآخرون ليس في مقدورهم أن يكونوا إلا مصادين .

وقال أحمد :

ـ مامن شغيل يرغب أن يكون صيداً بمحض إرادته، مقهوراً برغبته .

وقال العجوز :

ـ طيب إذا لم يكن الحروف صيداً برغبته فهو بالعادة . والعادة مع الأيام تصبح من طبعه . حتى يأتي يوم لايمكن التمييز بين ماهو من طبعه وما هو ليس من طبعه .

رمق أحمد المراكبي . تملته عيناه . حاجباه الكثيفان . شاربه.جبينه المغضن . لقد مال منذ اللحظة الأولى إلى هذا العجوز الذي طاف العالم وجاب البحار . وها هو شعوره

بالميل يزداد نحوه قال أحمد لنفسه « ماأشبهه بقوقعة من تلك القواقع الغريبة التي يلقاها المرء على الشاطىء » .

والواقع أنه ليس من العسير على المرء أن يعثر من وقت لآخر على أمثال هذا العجوز في الميناء أو الطوق الذي يحيط به . إنهم كثرة أولئك الرجال الذين كانوا مراكبية ثم انتهوا إلى شغيلة مواعين ، أو حراساً على أبواب عنابر اللوازم ، أو عمالا يقومون بخدمات صغيرة على الأرصفة . ويستطيع المرء إذا كان منطقياً أكثر مما ينبغي أن يسقط نصف رواياتهم ، أو كلها عن البحر والعالم . لكنه لن يملك نفسه في النهاية من الاعجاب بعنصر الطرافة في أقوالهم وهي أقوال تنبئك مرة أنهم مجانين ومرة أنهم حكماء .

وراق لأحمد حديث المراكبي الذي اتخذ هذا المسار الطريف فقال له مداعباً :

— ربما ماتقوله صحيح . ولكن يخيل إلي مع ذلك أن الخروف خروف . والذئب ذئب .

ورشف العجوز من شايه وأخذ نفساً من الدخان ثم قال متفكراً :

ـ طيب ! هل جرب خروفك الجديد الذي يحمل قرنين على رأسه . العلامة الوحيدة التي مازال يحملها من الغابة . هل جرب خروفك هذا أن يقف يوماً في وجه الذئب ؟

قال أحمد :

ـ لست أدري . لم أشهد يوماً معركة بين ذئب وخروف .

فتساءل المراكبي :

ـ ألم يكن المحاصون ذات يوم مقهورين . ألم يكونوا صيداً ثم انقلبوا إلى صائدين .

ومن حنايا دماغ أحمد وفيما يشبه الاشراق مدت فكرة رأسها . رأسها ليس غير . وحتى يتبينها تماماً تساهل فقال ضاحكاً :

ـ بلى .

ولفتت انتباه العجوز ضحكة أحمد فقال بلهجة لاتخلو من أسف :

ـ أنت تضحك من أقوال عجوز مثلي . إنك أصغر من أن تدرك أمثال هذه الأمور .

فقال أحمد بالجرس المنشرح الضاحك نفسه :

– وحق الاله إنما كنت أضحك لتشبيهك العامل بالخروف . وقد خطر لذهني أبو الذهب وهو يحمل على رأسه قرني خروف .

قال العجوز وقد عادت إلى صوته جذوة حماسته :

– هل أخطأت ؟ قل لي إذن ماالفارق بين خروف يسلم رأسه للذئب وشغيل يطأطيء رأسه لمستغل ؟

ومثلما تتقدم الغيمة من بعيد كانت الفكرة تقترب في رأس أحمد بحذر :

– ليس هناك من فارق .

– وأنت. أليس هناك من يستغلك الآن ؟

وأومأ أحمد برأسه :

– بلى

– في هذه الحالة أأنت خروف أم ذئب ؟

أبتسم أحمد وقال :

– خروف .

كانت الفكرة لاتزال تتابع تقدمها .

– هل تحب أن تكون خروفاً ؟

— كلا .

— يعني أن تكون صيداً ليس من طبعك ؟

واستمر أحمد في تبسمه :

— بالتأكيد لا .

— وإذا تساهلت في ذلك .

وتابعت الفكرة تقدمها .

— سيصبح شعوري بأني صيد من طبعي .

— وماذا يجب أن تفعل كيلا تكون كذلك ؟

وكالغيمة ايضاً كانت الفكرة تنتشر في نفس الوقت الذي تتقدم فيه .

ضحك أحمد وقال متساهلاً وهو لايزال يرقب استجلاء الفكرة :

— أن أصير صياداً

— إذن اتفقنا .

وضربا كفاً بكف وتضاحكا وأضاف العجوز بلهجة حاسمة لاتقبل النقض :

— الناس صنفان : إما صائد ، أو مصاد . إما ذئب أو خروف . فاختر لنفسك الفريق الذي ستأخذ مكانك فيه.

***

كان الليل قد أرخى سدوله عندما نهض أحمد وأعلن

عن رغبته في الانصراف . فما كان من العجوز إلا أن نهض بدوره ورافقه إلى العتبة . وهناك ودع أحدهما الآخر . لكن المراكبي الذي كان حريصاً على فلسفة الرحيل في البحر لم ينس أن يجدد دعوته لأحمد بوجوب السفر ، لأن البحر يجعل منه رجلاً حقيقياً .

وقال :

— أنا متأكد أنك سترحل ذات يوم . ولكن لاتجعل ذلك بعيداً جداً .

ثم أمسك رمانة كتفه بجمع يده وهزه بلطف مضيفاً :

— اليوم تهتز الأرض تحت أقدامك . وفي يوم ما سترى أنك أنت الذي تهتز .

وبينما اتخذ أحمد سبيله إلى البيت أنشأ يحدث نفسه « أنت لاتريد أن تكون صياداً ولامصاداً . طيب ماذا يمنعك أن تكون صياد صيادين » . ثم وجد نفسه يقول وهو يضحك « لاشيء . لاشيء » . كانت الفكرة الآن قد اتخذت كامل أهبتها وزينتها بعد أن طرحت خفرها وترددها وراحت تخطر في خياله حتى أشبعت غروره الفتي . لكنه في لحظة أخرى همس لنفسه قائلاً « لكن هل أنا قدها ؟ » .

* *

لم يضع أحمد الوقت سدى بعد تقديم الاستدعاء إلى الشركة الذي طلب فيه الانضمام إلى فرق المحاصة . فالشتاء يقترب وبحلول فصل الشتاء تقل فرص عمل المياومين لذلك كان همه في هذه الآونة أن يضع قدمه في احدى الفرق المحاصة ،فينتهي الاشكال بالنسبة إليه كما بدا له .

وقد وجدها فرصة مناسبة عندما ألفى نفسه اليوم يقف أمام مكتب فرقة (أبو المحمدين) يطلب عملاً يومياً . وجدها فرصة مناسبة لمفاتحة ريس الفرقة بموضوع المحاصة .

ففي الوقت الذي كان فيه نفر من العمال في الخارج ينتظرون ترحيلهم إلى البواخر بعد ذهاب الدفعة الأولى من العمال . أخذ أبو المحمدين يصلي داخل القبو . كان قد اصطنع من سترته مصلاة للسجود . وبالرغم من أن الوقت كان متأخراً نسبياً فقد راح أبو المحمدين يؤدي صلاة الفجر. لكم كان يرغب أن يقوم بفروض صلواته

الخمس في أوقاتها . ولكنها ظروف العمل في الميناء التي تجعل المرء لايعرف أحياناً رأسه من قدميه . وكان يرغب أكثر مايرغب أن تكون صلاته حاضراً . فهي أكثر حلالاً وأجدى بالنفع على صاحبها . ولكن للضرورة أحكام.وغير مرة قال لنفسه « لو لم يكن الدين متسامحاً يجيز للناس الصلاة خارج أمكنة العبادة لوقع المؤمنون في مشكلة . ولكنها حكمة الدين». وقد سمح لنفسه ذات مرة أن يتصور أن الدين ليس على هذا القدر من التسامح فماذا وجد ؟ وجد أن الناس أمام أمرين . فإما أن « يطفش»المؤمنون من حظيرة الدين . أو تعرقل مصالح الناس . ولكن الدين الذي كان حريصاً على المؤمنين في حظيرته أجاز لهم الصلاة خارج أمكنة العبادة الخاصة . إذ ليس المهم المكان الذي تؤدى فيه الصلاة وإنما الصلاة نفسها . وإن كانت الصلاة حاضراً أعود بالثواب على المصلي . هذا ماقاله رجل دين معمم لأبي المحمدين عندما سأله ليتأكد من صحة صلاته . وبذلك لم يجد أبو المحمدين أيما تعارض بين عمله وبين أداء فروض الصلاة مادام الدين على هذا القدر من التسامح . فكان إذا ماأدركته الصلاة في الباخرة أو في الماعونة أو في المكتب خلع سترته وصلى فوقها . أما إذا كان على الرصيف وقريباً من

الفنار فكان يؤثر أن يتسلق الصخر ويصلي فوقه ، بينما الموجات تلغط في الأسفل على مدخل الحوض القديم .

وقد تساءل أبو المحمدين غير ذات مرة : لماذالايصلي كل الناس إذا كان الدين متساهلاً إلى هذا القدر .

وهكذا كان أبو المجمدين راضياً تمام الرضى عن صلاته وعن عمله . مادام كل منهما يسير في السبيل التي رسمت له وينال نصيبه من الاهتمام والرعاية . مرة واحدة فحسب وخلال حياته الصلاتية كلها شك بصلاحية صلاته . كان ذلك في أسبوع حفل بالعمل إلى حد لم يجد معه متسعاً من الوقت لاقامة صلاة خلال سبعة أيام فما كان منه إلا أن اعتبر صلوات ذلك الاسبوع ديناً مستحقاً عليه وسددها في الاسبوع التالي بالجملة . واحدة فواحدة . وقد ابتدأ فقال بصوت مسموع : هذه صلاة الضحى ليوم الثلاثاء ثم ألحقها بـ (صلاة الظهر) وهكذا حتى وفى دينه المستحق لصلوات الاسبوع الفائت. أما إذا كان يردد بصوت مسموع قبل بدء كل صلاة هذه صلاة الضحى . هذه صلاة الظهر . . الخ . الخ . فلعله أراد في ذلك أن يبرىء ذمته أمام الرب ،ويلفت انتباهه بالصوت إذا كان في شاغل عنه .

ومنذ ذلك اليوم لم يعد أبو المحمدين إلى الصلاة بالجملة . وفي نفس الوقت لم يضطر للمثول بين يدي الله كدائن تخلف عن تسديد التزاماته الصلاتية . ربما لأنه لم يصادف أن مر به أسبوع يماثل ذلك الاسبوع المشهود الحافل بالعمل . ربما . وربما تناول أبو المحمدين المسألة من ناحية أخرى . ذلك أنه إذا تقاعس عن أداء التزاماته الدينية فلن يخسر الله شيئاً كبيراً . في حين أن خسارة أبي المحمدين غير محدودة النتائج إذا أعرض الله عنه . ولم يجد أبو المحمدين ايما مبرر لخلق جفوة بينه وبين الرب مادامت ريحه مواتية ومادام متفاهمين يقوم كل منهما بالتزاماته تجاه الآخر .

بعد أن أعلن أبو المحمدين عن انتهاء صلاته بالتسليم يميناً ويساراً استوى قائماً ثم أخذ سترته المفرودة على الأرض فنفضها وارتداها .

قال له أحمد الذي كان يرقب انتهاء الصلاة :

— تقبل الله .

فقطع أبو المحمدين الذي كان لايزال يردد بصوت خفيض بعض الأدعية ، قطع سلسلة الدعاء هذه ليقول :

— جميعاً .

ثم واصل تمتمته وهو يتجه إلى طاولة قامت في زاوية في أقصى القبو .

تناول عن الطاولة خاتماً ذهبياً أنزله في اصبعه ثم أخذ ساعته اليدوية ليحكم ربطها حول رسغه .

كان من عادة أبي المحمدين إذا مااستعد ليتميم شعائر الصلاة أن يخلع خواتمه الذهبية وساعته اليدوية . إذ كان يبدو له أن مثول المرء بين يدي الله مجرداً من زخارف الدنيا وبهرجتها أطيب وقعاً عند الله وأدعى إلى غبطته . في حين كان لعامل مياوم من عمال أبي المحمدين وجهة نظر مغايرة تماماً . كان يرى أن عملية أبي المحمدين هذه ماهي إلا محاولة لخدعة الرب ليتظاهر أمامه بالفقر .

قال أبو المحمدين :

ــ كيف أنت أحمد ؟

ثم مستدرجاً :

ــ هل الشغل على مايرام ؟

لقد شعر أبو المحمدين بغريزته أن هناك مطلباً وراء دخول أحمد إليه . فضحك أحمد وقال :

ــ أقول لك الحق ؟ ليس على مايرام .

فتضاحك أبو المحمدين بدوره وقال يتساءل بقلق عما يريد أحمد منه .

— لماذا ؟

وفي الحال وضع نصب عينيه لا . كان أبو المحمدين يعلم أن والد أحمد مشلول . فخمن أنه ربما يعاني ضيقاً مالياً فجاء ليستدين منه .

قال أحمد وقد شاب ضحكه شيء من الأسى :

— لأني مثل النَوَر . كل يوم أحمل زوادتي وأدور على أبواب الفرق .

وتنفس أبو المحمدين الصعداء . القضية ليست قضية استدانة إذن . ولكن أحمد لم يدخل عليه وهو يصلي عبثاً . لم يجتز عتبة القبو بينما الشغيلة يصطلون بدفء الشمس في الخارج لمجرد أن يقول «تقبل الله» . كذلك فكر أبو المحمدين . فهو منذ أن بدأ الصلاة لاحظ أن هناك من يرقبه . لقد شعر بظل على عتبة القبو فسمح لعينه أن تطرف باتجاه العتبة لتستكشف صاحب الظل فوجده قائماً هناك . وتساءل مرة أخرى عن الهدف الحقيقي الذي يسعى إليه أحمد . فقال دون أن يفرط بأيما قدر من حذره الغريزي الذي استفاق مع مقدم الفتى :

ـ أنت تدري كيف يجري العمل الآن . يوم البحر كبير . يوم مطر . ويوم لاتريد أن تأتي فيه البواخر إلى الميناء لسبب ما . هكذا يكون العمل في هذا الفصل من السنة .

فقال أحمد :

ـ أدري .

وقال أبو المحمدين :

ـ طيب .

وهمس لنفسه « مادام يدري ففيم يدور حولي إذن؟».

ووجد أحمد في كلمة« طيب » منفذاً إلى مايريد فقال على الفور :

ـ قدمت استدعاء إلى الشركة ياريس .

فتساءل أبو المحمدين وقد بدأ يلوح له أن شكوكه لم تكن قائمة على أساس .

ـ استدعاء ! لماذا ؟

فقال أحمد :

ـ من أجل المحاصة

وسقط آخر تحفظ شخصي لدى أبي المحمدين . كان أبو المحمدين قد رسم خطاً بينه وبين الآخرين .

وبالرغم من أنه كان خطاً وهمياً مع ذلك كان يبدو أنه أعلى من سور الصين . فلم يسمح لأحد يوماً باجتياز هذا الخط . هذه العتبة التي أقامها . ولم يستطع شيء ما في أيما ظرف أن يشده خارجها .

كان قائماً هناك في ذاته أشبه بصخر الشاطىء البعيد الذي لايعرف البلل إلا في حال المد عندما يغمر الماء كل شيء . كان راسخاً صلداً لايهزه شيء مثل صخر . والحق كان عاجزاً أيضاً عن القيام بأيما مبادرة ذاتية كما يعجز الصخر عن التحرك باتجاه البحر . كان يقول « إذا دخل المال بين صديقين فرق بينهما » . وعملاً بهذا المبدأ أمسك يده عن الأخذ والعطاء . وأحكم اغلاق قبضته على القرش . شيء واحد كان له القدرة على حل عقدة يده المطبقة على القرش . هو العصافير . كان يحب العصافير وهكذا كان يبدو على الأقل . ولاح في وقت من الأوقات كأفضل من يرأف في الميناء بالطيور الصغيرة اللطيفة . فقد اتفق لرجل مرّ بالميناء ذات يوم ، يحمل بيده قفصاً يعج بأنواع من العصافير التي تربي في البيوت من أجل غنائها يعرضها للبيع . وصادف أن أبا المحمدين كان جالساً في هذه الأثناء مع عماله في المقهى . كان ودوداً جداً في هذه الفترة مع المياومين والمحاصين على السواء . كان

قد نشأ لديه ، في هذه الآونة ، ميل مفاجىء إلى أن يراه الآخرون على أوسع نطاق وهو يصلي فوق سترته المفرودة على الأرض . وإن يروا أعماله الخيرة أيضاً . قال « حرام أن تحبس العصافير . العصافير خلقت لتطير » . ونهض بين دهشة العمال واستغرابهم وأطلق العصافير واحداً بعد آخر ثم نفح صاحبها خمس فرنكات عن كل عصفور طار في الجو . ولكن هذه البادرة . ككل بادرة طيبة في أيامنا هذه لم تسلم من ألسنة المتقولين . إذ علق محاص كان يطمح إلى رئاسة الفرقة فقال : كان يعلم (يقصد أبا المحمدين) أن انتخابات الرياسة على الأبواب » .
وأيا ما كان فإن أبا المحمدين أقلع ذات يوم لسبب ما عن عادة اطلاق العصافير من الأقفاص عندما لم يعد رئيساً للفرقة .

وقال أبو المحمدين :

ـ آه من أجل المحاصة . فكرة لابأس بها .

ولكن في الوقت الذي زال فيه تحفظ أبي المحمدين الشخصي أنشأ تحفظ من نوع آخر . التحفظ نفسه الذي يعود إلى الظهور كلما تحدث أحدهم بشأن المحاصة . غير أن هذا التحفظ لم يكن شيئاً انفرد به أبو المحمدين

بل كان عاماً بين أعضاء الفرقة جميعهم . ولما لم يكن وحده هو الذي يقرر بشأنه لذلك أعاد قائلاً :

– فكرة لابأس بها . نعم المحاصة شيء جيد . حسناً . سنرى .

ولم تقع في نفس أحمد هذه الـ « سنرى » موقعاً طيباً . فقد استوقفه شيء ما في اللهجة التي قيلت بها . كانت خالية من تعاطف الزمالة القديمة التي عمدها شقاء ونضال مشترك طويل . كانت مجرد تكرار آلي أجوف أحسه أحمد في أعماقه قاله رب عمل لأحد عماله :

وأضاف أحمد مذكراً :

– وقت تأليف الفرق كنت في الجيش .

وقال أبو المحمدين :

– بسيطة أخي أحمد . أنت واحد منا .

ولم يجد أحمد شيئاً ليقوله بعد وعد ريس الفرقة له . كان واضحاً أن أبا المحمدين قد وضع نقطة الختام في هذا الموضوع وإنه لن يضيف بعد أية كلمة أخرى حول هذه المسألة . وإزاء ذلك لم يكن أمام أحمد سوى الانسحاب للالتحاق بزملائه في الخارج .

تنفس أبو المحمدين الصعداء . الآن يستطيع أن يطمئن تماماً إلى أن قرضاً منه لن يطلب . والحقيقة بعد أن اكتشف أبو المحمدين منذ الدقائق الأولى أن أحمد إنما جاء ليبحث قضية المحاصة زال تخوفه . لكن هذا التخوف مالبث أن عاود الظهور .

فخلال كل اللحظات التالية كان أبو المحمدين يصارع ميلاً إلى الاعتقاد أن الشخص الذي يطلب قرضاً يأتي مثل الشيطان في كل مرة بلباس جديد . وما موضوع المحاصة الذي أثاره أحمد إلا شكلٌ من تلك الأشكال الشيطانية .

فمنذ أن صار أبو المحمدين ريس فرقة محاصة كان ضحية وهم بأن ما من شخص اقترب منه حتى خيل إليه أن هذا الشخص إنما قصده ليستدين منه وتروح يداه في حركة لاشعورية تتحسس جيوبه .

هو نفسه تساءل غير ذات مرة عن سبب هذا الشعور الذي ركبه . كيف ولماذا نشأ لديه . لايدري بالضبط لكن مما لاشك فيه أنه لايستطيع أن يستبعد من ذهنه تماماً صورة رب العمل العجوز وأولئك الذين كانوا يلوبون حوله لاستخراج المال من جيوبه : أفاقون ومحتالون من

كل نوع وجمعيات خيرية وجعائل لبعض المتبطلين وعائلات محترمة حطّ بها الدهر .

وقصة خادم الجامع الذي رأى في منامه ولي جامعه الصالح يقول له اذهب إلى أبي الفقراء في الميناء وقل له عن لساني : أنا عريان وأنت مكتس فاكسني واكسو جامعي مما أغدق الله عليك » . هذه القصة غير غائبة عن باله .

ومع ان امثال هؤلاء الناس قد أفهموا منذ الشهور الاولى لتشكيل فرق المحاصة ان نجوم السماء اقرب من استخراج قرش من جيوب ارباب العمل الجدد لإن هذه الاساليب البلهوانية لاتجوز عليهم . مع ذلك فقد ظل ابو المحمدين لايستطيع ان يتخلص نهائياً من الصورة الغامضة لمحتال مجهول سيحل عليه ذات يوم « ليلعب بذقنه » . كما كان يقول في نفسه .

ففي السنين المبكرة من حياته تورط في لعبة « كحلة » . كان ذات يوم ماضياً في طريقه الى السينما وفي جيبه بعض الفرنكات التي ادخرها لحضور فيلم ارتقبه طويلاً . كان عمره آنذاك لايتجاوز الرابعة عشرة . وكان وقتها شغوفا بأفلام رعاة البقر . ولكن في الطريق اصطاده رجل يدير بين اصابعه ثلاثاً من اوراق اللعب . كان قد

فكر قبل ان يقدم على اللعب : اذا ربحت بعض المال سأشتري من النقود الرابحة تذكرة سينما وبعض البذر الابيض . وسأدخر الباقي . وهكذا يمكنني ان احضر فيلمين بدلاً من فيلم واحد . من يدري ؟ وربما اكثر » . أما الخسارة فلم تخطر على باله . غير أن الشيء الذي لم يخطر على باله هو الذي حدث . فقد سلبه لاعب الثلاث ورقات مامعه من نقود . وفي لحظات أمسى فقيراً عارياً مجرداً من المال الذي تعب أياماً في جمعه . لقد بكى في تلك اللحظة وقد وجد نفسه حرم فجأة من الفيلم الذي حلم به طويلاً .

هذا الحادث ترك في نفسه جرحاً لمدة طويلة . ولايزال حين يعن على باله يردد فيما بينه وبين نفسه « لقد بعصني ذلك الرجل بعصة لن أنساها » . ثم يتنهد قبل أن يضيف مرة أخرى : «لم التأثر ؟ الحياة نفسها لعبة كحلة والشاطر هو الذي يعرف كيف يسحب ورقته الحمراء الرابحة » .

أشعل أبو المحمدين سيكارة بعد أن جلس وراء الطاولة . كان عمال الدفعة الثانية قد رحلوا إلى البواخر . وكان الصمت قد خيم تماماً بعد رحيلهم . ولثوان وجد نفسه فجأة في فراغ مطلق وخلا ذهنه تماماً من أية فكرة عما

سيفعله في اللحظة التالية فأخذ يفتح أدراج الطاولة بلا هدف محدد . لكنه أمل أن يجد شيئاً مايعمله .

سحب درجاً في أسفل الطاولة . وقف بنظره عند مجموعة من أوراق اللعب . كان يعلم أنها تخص ناطور المكتب الذي يستطلع فيها حظه عندما يكون وحيداً . كان الناطور رجلاً عجوزاً طرش بعد مرض . وكان قد انقطع عن العمل في البواخر بسبب تقدمه في السن . وكانت زوجته قد ماتت منذ سنتين . لم يكن يتقن عمل شيء خارج البواخر . ولم يكن هناك قانون لتأمين الشيخوخة. لقد احتار في البداية ماذا يفعل في هذه الدنيا الواسعة وهو رجل عجوز لا ولد له ولا زوجة . كانت الحياة بعيداً عن الميناء غير ممكنة بالنسبة إليه كالسمكة بعيداً عن الماء . وقد دفعته الغريزة التي تدفع كلباً هرِماً فلفظ بعد أن صار غير ذي فائدة من بيت قضى فيه حياته إلى البقاء بجانب جدار هذا البيت . لعل هذه الغريزة نفسها هي التي قادت العجوز ليلوب في نفس المنطقة التي كان ينطلق منها في الاصباح إلى العمل في البواخر .

وعندما تكرر تردده يوماً بعد يوم دون أن يسند إليه أحد أيما عمل رسمي ،فقد أسند إلى نفسه مهمة حراسة

مكتب الفرقة لقاء المبيت فيه ولقاء ماتجود به أريحيةزملائه العمال بما يدسون في يده من دريهمات ساعة يقبضون أجورهم .

قال أبو المحمدين « المسكين ! لو كان عنده أولاد لشالوه في شيخوخته . لكن لا ولد له ولا مال . . المال كل شيء . عندك مال أنت شيء . ليس عندك مال أنت لاشيء . قيمة المرء بما في جيبه . اللهم استر آخرتنا » .

حينما انتهى أبو المحمدين من مناجاة نفسه لحظ الورق ثانية.ابتسمت عيناه أولاً ثم ابتسمت شفتاه . انتقى ثلاث ورقات من المجموعة راح يدورها حيناً ، وأحياناً ينقلها ويقلبها بين أصابع يديه . ثم مالبث أن طرحها على الطاولة أمامه . لقد فعل ذلك مرة بعد مرة . فعل ببطء في البدء ثم تسارعت حركة يديه وأصابعه ببراعة مثل مكوكين آليين يعملان في حركة متعاكسة . توقف عن اللعب . قال وهو يضحك « بعصني ابن الكلب بعصة وصلت إلى مخي » . ومدّ خياله متسائلاً :«عجباً ماذا كان ذلك الفيلم؟». ثم معقباً « ولكن كيف لي أن أعرف وأنا لم أحضره . ابن اللئام ماكان أبرع يديه لكنه قطعاً لايجاريني الآن في اللعب مع أنه محترف وأنا هاوٍ » . وابتسم ساخراً « لكن لماذا ألومه وتلك هي طريقة عيشه . ألسنا كلنا نلعب الكحلة بشكل من الأشكال ، والفوز أخيراً لمن يلعب أسرع » .

لم يجن أحمد من لقائه مع رؤساء الفرق سوى الوعود . لم يقل واحد منهم له إلا . . . « طيب . . بسيطة . أنت واحد منا . سنرى » . هذه هي الكلمات التي رددوها على مسمعه وكأنهم ينثرون بين يديه حبات سبحة واخذة .

فبعد مضي أقل من أسبوع على لقائه بأبي المحمدين عرج أحمد على خليل الشمام رئيس الفرقة الرابعة في مكتبه . الحقيقة أن الشمام ليست كنية خليل الأصلية وإنما كنيته الأصلية العريان . أما الشمام فقد الحقت به كما ألحقت بأبيه وجده من قبل . ولاشك أن كلمات مثل العريان والشمام ليست ذات شأن إلا بالمعنى الذي تدل به على أصحابها حتى ليبدو في وقت من الأوقات أنه من الظلم الفاحش استبدال كلمة بأخرى : فالعريان هي الكنية المحمولة عن الجدود . ولاريب أن كنية كالعريان لاتأتي عفواً . لايتكنى بها عبثاً . لاتحملها الريح وتلصقها بشخص الصاقاً . إنها جدارة . يقول العارفون نقلاً عن آبائهم وهؤلاء ربما عن آباء آبائهم أن أحد أجداد خليل الشمام

كان يسير عرياناً في الأسواق هائماً بحب الله . ويقول آخرون إنه كان مكيساً في أحد الحمّامات . أما قبل العريان فكانت كنية العائلة شماط حمّلها إياها آغا تركي لكثرة ماكان يشد الجد الأكبر للعريان من أذنيه : المهم فإن كلمة العريان صارت هي الكنية الرسمية لعدد من الجدود حتى وصلت إلى جد خليل فدخل عليها التقلقل . كان جده يشتغل بصيد الحيّات . كانت له قدرة خاصة على الشم في معرفة الأمكنة التي تتواجد فيها الحيات وعلى استخراجها من أوكارها للقبض عليها . ولقد قال الذين عاصروه إنه كان يقرأ قراءات معينة من شأنها أن تشل الزواحف وتجعلها عاجزة عن الحركة فيمد يده ويمسك بالحية كما يمسك المرء بسمكة في حوض صغير ، بل أن إمساك الحية بالنسبة إليه أسهل من إمساك السمكة من حوض صغير .

وحينما مات الجد الأخير للعائلة انتقلت خاصة الشم إلى والد خليل . لم يكن والد خليل واسمه مبروك يعرف شيئاً من قراءات أبيه الغامضة . لقد قيل يومها أن الأب مات دون أن يعلم مبروكاً شيئاً من أسرار الصنعة لأن الولد كان غير بار بأبيه.وبموت الأب ماتت معه تعاويذه. لكن مبروكاً الذي حرم من تعاويذ أبيه لم يحرم من خاصة

شمه . وطبيعي أن شيئاً كهذا لايملك الأب أن يحجبه عن ابنه لاسيما إذا قدر لهذا الشيء أن يتخذ أهبته ليصبح مزية من مزايا العائلة تنتقل بالوراثة مع باقي الموروثات العائلية. وهكذا لم يكن أمام الفتى الذي كان يعرف كيف يشم كثيراً أين توجد الحيات إلا أن يلجأ للحيلة ليتلافى النقص الذي خلفه له والده بإمساك التعاويذ عنه . لقد استعاض مبروك عن التعاويذ بكسر البيض على عتبات الجحور لاستدراج الحيات للخروج من مخابئها . وإذا كان من شأن التعاويذ أن تشل حركة الحيات ، فإنه استبدل ذلك بعنصر السرعة والمباغتة . فكانت طريقته تتلخص بالتربص للحية التي سرعان ماتجذبها رائحة البيضة المفقوشة على باب جحرها فإذا ماأطلت هذه لالتهام البيض الذي تحبه كثيراً أسرع هو بالقبض عليها من تحت الرأس مباشرة . كان ذلك في الماضي يوم كان صيد الحيات يعود بالربح على مبروك العريان الذي التصق اسمه بمهنته فأصبح يلقب بالشمام . لكن صيد الحيات تلاشى أو كاد في المدن والقرى والأرياف لسبب من الأسباب . وفي الوقت الذي كان يجب فيه أن تضعف أو تختفي خاصة الشم لدى عائلة العريان لزوال الاسباب الموجبة طبقاً لمنطق التطور. عادت هذه الخاصة الى الظهور لدى خليل وقد غيرت ميدانها.

فخليل لم يشتغل يوماً بصيد الحيات لكنه اشتغل عاملاً في الميناء وبما ان خاصة الشم قد حفرت لنفسها طريقاً واصبحت شيئاً ملتصقاً ومتميزاً في عائلة العريان ، بدا انه لم يعد ثمة اهمية كبيرة للمكان الذي يشتغل فيه افراد العائلة . كان الشم قد اضحى خليقاً ان يعلن عن نفسه بشكل أو بآخر . فنظرة سريعة من خليل وقبل ان يعمل شرشوره في شيء عندما ينزل الى عنبر باخرة تكفي لمعرفة الصندوق الذي هو جدير باهتمامه الخاص . كانت له قدرة عجيبة في تمييز الصناديق ذات المحتوى الثمين . « هذه زكاة البضاعة » . ويقتطع لنفسه قطعة جوخ يلفها حول وسطه تحت ثيابه الداخلية . او يغيب شيئاً في جيبه او كيس زوادته حسب مايقتضي الحال . ثم يعود الى ظهر الباخرة وكأن شيئاً لم يحدث . « هذا هو الشمام عاد وقد حبل في العنبر . في اي شهر انت ؟ ماذا تحمل في بطنك الكبير ؟ ويجيب الشمام « لاشيء . كل مافي الامر عملت بوصية الشريعة . جعلت هؤلاء الخنازير الاغنياء يزكون عن اموالهم . حصّلت لنفسي نصيبي من الزكاة وبقي ان تحصلوا نصيبكم . ماذا افعل ؛ الاولاد بحاجة الى فحم وطعام ايها الرفاق لاتؤخذ الدنيا إلا غلابا . في عطفة الى اليسار يوجد صندوق معطوب . لم اعطبه انا وحق محمد . هو كان

معطوباً . غيري عطبه . بيروت الاسكندرية غيرهما . لاادري . الصندوق كان مفتوحاً . قال لي تعال وخذ نصيبك . الصناديق المفتوحة تتكلم ياالاصدقاء . خذوا نصيبكم بهدوء ولا تدعوا الآخرين يرونكم . لا تورطونا كرمى لمحمد » .

ولم يكن خليل رائعاً في اكتشاف الصناديق النفيسة في عنابر البواخر فحسب ، بل كانت له حاسة شم فريدة بالنسبة للامكنة التي يستطيع ان يعثر فيها على بنطال او جورب او قميص او حذاء او شقفة حبل او قطعة خام ، وبالاجمال كل مايبدو للعين وكأن صاحبه لايوليه الاعتبار الذي هو خليق به ، فيتقدم هو من ناحيته ليعيد له ذلك الاعتبار .

وعندما ودع خليل ايام المياومة وصار ريّس فرقة لم يتخل عنه حسه الخاص بالشم . كان يفكر ويحسب ويخمن بأنفه . كان انفه يملي عليه ماذا يجب ان يعمل في بعض المواقف فيوحي له مثلاً متى يتعين عليه ان يجعل وكيل باخرة ما يتقدم منه ليقول له : الشغل بطيء ياريس . وليدس من ثم في يده ورقة أو ورقتين من ذوات الارقام الكبيرة ثمن فنجان قهوة فيصير الشغل افضل .

وغني عن القول ان شخصاً يملك مثل هذه الرهافة في الشم كان من المفترض ان يكون في وضع يمكنه من النظر الى الامور نظرة بعيدة وحكيمة . لكن يبدو انه قد بالغ في الاعتماد على انفه الى حد جعل منه انساناً متطيراً .

فما ان ينفرد عاملان من عمال فرقته ويتساران حتى يتحرك انفه منذراً بالخطر . وحينما فاتحه احمد بموضوع المحاصة كان متوفز الاعصاب نوعاً . كان قد امضى قرابة شهرين وهو يحاول عبثاً ان يثني زوجته عن قرار اتخذته بشأن تسجيل ابنتهما في المدرسة . كانت الام ترى انه من السخف وضع فتاة في المدرسة مادامت ستؤول في النتيجة الى البيت وانجاب الاولاد . وقد فعلت ذلك في وقت كان فيه خليل الشمام يعاني من عقدة الامية لاسيما بعد ماكثر اللغط بين فئة من عماله في الآونة الاخيرة من ان رئاسة الفرقة ينبغي ان تكون بيد شخص يجيد القراءة والكتابة لتفادي الاخطاء المتكررة في الفرقة . طبعاً لم يغرب عن انفه الاشخاص الذين كانوا يثيرون امثال هذه المتاعب في الفرقة وقد ادرك بشمه الرائع الغاية التي كانوا يهدفون إليها من وراء ذلك .

وللحظات راود الشمام هذا الخاطر . ماذا لو ضم

احمد الى فرقته واتخذ منه كاتباً عوضاً عن قدوره الاسود كاتب الفرقة الذي يحفر الارض من تحته ويؤلب العمال عليه ؟ لكنه مالبث ان ابعد هذه الفكرة وكأنه يبعد عن عينيه صورة مخيفة . « من يضمن انه لن يكون كالآخرين ؟ سيبدي الوفاء طبعاً لبعض الوقت ــ اذا ضمه ــ وبعد ذلك سيبدأ بالتآمر . مجنون من يضع يده بيد متعلم . تشفق على شخص فتلمه من الشارع كيلا يموت جوعاً لكنه لايلبث ان يعمل ليحل مكانك لأنه يعرف كيف يمسك بالقلم . قدوره الاسود ابن الكلب صار له ريش » . قال في نفسه .

وادار بين اصابعه قلم حبر جاف التقطه من على حامل فوق الطاولة . وغمغم « ليهنأ المتعلمون باقلامهم وليمت المتآمرون بغيظهم . رئاسة الفرقة لن تفلت من يدي . بنت الاوادم . لنسجل البنت في المدرسة . لا . دعيها تصير جاهلة مثل ابيها . ابن صياد الافاعي . هه . وانتم ماذا كان يعمل آباؤكم بحق الله ؟ اعرفكم واحداً واحداً . علي ومحمود وقدوره ومصطفى وطه . اعرفكم واعرف آباءكم . من كان منكم بلا خطيئة فليرمني بحجر كلاب اولاد كلاب . الحسد يأكل قلوبكم . وكر افاعي فرقتي » وهمس ايضاً « محال ان ازيد الافاعي افعى . لكن الافعى ماتزال واقفة امامك فاصرفها بالحسنى » .

ورمق الشمام احمد :

ـ اخي احمد انت تعلم ان فرقتي هي اكثر الفرق عدداً بالمحاصين . مع ذلك سوف ارى اذا كان هناك متسع لمحاص آخر .

فقال احمد :

ـ وابراهيم الناعوري ؟

فتساءل الشمام :

ـ وماله ابراهيم الناعوري ؟

فقال احمد :

ـ هو الآخر قدم طلباً .

فحدث الشمام نفسه « ابن الكلب لايريدها لنفسه فقط بل لتابعه ايضاً . ملعون من يقبل اياً منكما في فرقته » .

وقال بثعلبة :

ـ دعنا في موضوعك الآن . وعسى ابراهيم يجد له مكاناً في فرقة اخرى . احدكما وهو انت عندي . وابراهيم عند غيري . اثنان في فرقة واحدة محال . مسألة صعبة . لايحمل الله نفساً إلا وسعها . ليس فوق كلام الله كلام . اليس كذلك ؟ .

* * *

جلس ابراهيم الناعوري وابو الذهب والخال خلف قمراتي البحارة في الجانب الغربي من الباخرة يحتمون من لذعات الريح الشرقية . ولم يلبث أن انضم اليهم احمد ؛ وعلى مسافة وقف محمد الطفران خلف سور الباخرة ينظر كعادته بعيداً في البحر وطيف ابتسامة على شفتيه .

قال ابو الذهب :

— ما حقيقة حكاية الاسبرين امس يا احمد ؟

ومس احمد تيار مكهرب فنظر إلى ابراهيم متسائلاً :
فقال ابراهيم ضاحكاً :

— لم استطع أن اكتمها .

قال احمد :

— ما كان يجب أن تعود إلى ذكرها .

قال الخال :

— لماذا ؟ انها جديرة بالرواية .

فقال احمد :

ـ حادثة بسيطة لا تستأهل .

وقال ابو الذهب :

ـ اذا حدثت كما رواها ابراهيم فهي تستأهل .

قال احمد :

ـ لعله رش عليها من بهاره .

فقال ابراهيم :

ـ لم ارش عليها اي بهار وشرفك .

قال الخال :

ـ ببهار أو بدون بهار نريد أن نسمعها .

قال احمد :

ـ ما الفائدة من تكرارها . لقد رواها لكم ابراهيم .

قال الخال :

ـ الشيء الطيب لا يمل سماعه .

قال ابو الذهب :

ـ ماذا قال الصيدلي ؟

قال الخال :

ـ ماذا قال الرجل للصيدلي . نريد أن نسمعها من البداية .

قال ابراهيم مستدرجاً :

— كنا في الصيدلية نشتري لزقة ظهر لاحمد — ظهره كان يؤلمه كما تعلمون — كنا اذن نشتري لزقة لاحمد عندما دخل رجل مسن وطلب اسبرين . قال الرجل المسن للصيدلي : هل عندك اسبرين ؟ قال الصيدلي : عندي. وسحب الرجل بيد مرتجفة من احدى جيوبه فرنكين وقال للصيدلي : اعطني بفرنكين . فقال الصيدلي : ليس عندي اسبرين بفرنكين . لا ابيع إلا علبة كاملة . ثم التفت لتلبية طلبات الزبائن . بينما انسحب الرجل المسن دون ن يفوه بكلمة .

قال الخال :

— هم . وماذا حدث بعد ذلك ؟

قال ابراهيم :

— سَلْ احمد . احمد هو الذي تصرف .

قال احمد باستحياء :

— حادثة بسيطة لا تستأهل .

فقال ابو الذهب :

— ياسيدي تستأهل أولا تستأهل نريد أن نسمعها .

تردد احمد قبل أن يتكلم . كان الحرج بادياً عليه . قال :

ـ عندما استدار الرجل لينصرف . شعرت بشيء في داخلي يقول لي : قل للصيدلي هل عندك اسبرين ؟ فقلت للصيدلي : هل عندك اسبرين ؟ قال الصيدلي عندي . ثم قدم لي علبة . قال ذلك الشيء الداخلي مرة ثانية : ناوله فرنكين فناولته فرنكين . فقال الصيدلي : انا لا ابيع بالمفرق . لا ابيع إلا علبة كاملة . قال لي ذلك الشيء مرة اخرى . اعطه فرنكين على الحساب وخذ العلبة . اخذت العلبة ثم قلت للصيدلي : كم ثمن العلبة ؟ قال ستون قرشاً . قلت : طيب . هاك عشرة قروش والباقي عندما يتوفر معي .

هتف ابو الذهب :

ـ احسنت . والله عملت عين العقل .

واستحث الخال :

ـ وماذا حدث بعد ذلك ؟

قال ابراهيم منفجراً بضحكة مجلجلة :

ـ وماذا حدث؟ تركنا الصيدلي مزروعاً في مكانه . وفغر فمه مقلداً :

— ثم حملنا علبة الاسبرين وبحثنا عن الرجل المسن ، لكن عبثاً .

قال ابو الذهب :

— خسارة .

قال احمد :

— ربما كان رأسه يؤلمه ؟

قال الخال :

— صيدلي ابن كلب . لعل المسن لم يكن يملك سوى هذين الفرنكين . من يدري؟

فقال احمد :

— هذا ما فكرت به والله . وقلت لنفسي « يجب أن اعمل شيئاً من اجل الرجل المسن . وأنبه الصيدلي .

وقهقه ابراهيم :

— حتى كدت تخرج عينيه من محجريهما .

قال ابو الذهب :

— لا فائدة .

سأل احمد :

— ألا فائدة من ماذا ؟

قال ابو الذهب :

ـ لا فائدة من جعل امثال هذا الصيدلي يشعرون .

ثم إلى الخال :

ـ ايه . وانت ايها الخال ماذا تقول روزنامتك في ذلك ؛ اليس فيها ما يشير بطرف إلى امثال هذه الامور ؟

قال الخال :

ـ بلى . . بلى المتخمون لا يشعرون بالجياع . المكتسون لا يشعرون بالعراة . الاسياد لا يشعرون بالعبيد المكبلين بالاصفاد . طوبى للجياع والعراة والمظلومين لأن لهم يوماً آتياً » .

فقال ابو الذهب :

ـ من قال ذلك ؟ اني اشم من هذا الكلام رائحة .

وأتى انفه بحركة تعبرعن اشمئزازه ثم اضاف بعد لحظة :

ـ انه يشبه كلام اصحابك .

ورسم بكل من سبابتيه وابهاميه دائرة حول رأسه :

وندت عن الخال حركة امتعاض فقال احمد :

ــ الف مرة قال لك الخال لا تقرب من اصحاب العمائم . هو حساس من هذه الناحية . انه يتشاءم .

قال ابو الذهب :

ــ هو وشأنه . انا ايضاً اتشاءم من امثال هذه الوعود . ليكن من كان صاحب هذا القول . انا لا احب التسويف . متى يكون هذا الـ « يوم الآتي » الذي يبشر به صاحبك في الروزنامة . انا احب الدفع فوراً . لا اريد عشرة عصافير على الشجرة . احب الدفع نقداً وعداً .

ووجدها احمد فرصة ملائمة لينفس عما يجيش في صدره وليوجه الحديث من ثم وجهة أخرى.

ــ انا في صف ابي الذهب من هذه الناحية . ليس هناك افضل من الدفع فوراً . عندما كانت الجماعة في الميناء كنا نردد سيأتي يومهم. وقد جاء اليوم الذي رحلت فيه الجماعة عن الميناء . وحلت محلهم جماعة اخرى . قبضت الثمن فوراً ليس من هؤلاء وانما منا نحن . هل اقول لك شيئاً يا ابا الذهب : يبدو لي أنه عندما تكون صاحب حق . فإما أن تحصل عليه فوراً أو لن تحصل ابداً .

قال ابو الذهب :

ـ سيسبقك الآخرون إليه اذا لم تسارع انت نحوه .

قال احمد :

ـ سيجد دائماً من يدعيه لنفسه .

قال ابراهيم :

ـ المال السائب يعلم السرقة .

وضحك ابو الذهب قائلا :

ـ اذن لا تتركوا اموالكم سائبة بحق الله . لأنكم إن فعلتم ترتكبون جريمتين واحدة في حق انفسكم :

ثم غمز بابهامه بخبث إلى الخلف :

ـ والاخرى في حق الغير .

قال ابراهيم :

ـ لم نعلّم احداً السرقة . واصحابك هؤلاء الذين تعنيهم هم سراقون بالفطرة .

وهزّ ابو الذهب ثوبه باطراف اصابعه متبرئاً :

ـ ليسوا اصحابي . وانما هم اصحاب احمد . انا لم اثق بهم قط .

ومال بالقول إلى أحمد :

– ايه احمد ؟ هل قبلوا بك اخيراً محاصاً ؟

وانتبه احمد . كان قد شرد للحظة . وبدا عليه التردد قبل أن يقول :

– آه . كلا . لقد وعدوني .

وقال ابراهيم :

– هانحن قد عدنا إلى قصة الوعود .

وقال ابو الذهب :

– وانت ما رأيك احمد ؟

قال احمد :

– قلت احب الدفع فوراً . ولكن هنا في هذه القضية لست ادري . يبدو لي انه يحتم أن أفعل شيئاً ما . الوعد اشبه بحبة الاسبرين . قد يحتاج المرء احياناً زماناً طويلاً حتى يجد في نفسه الشجاعة لاجتياز خط .

قال ابو الذهب :

– لقد وعدوا قبلك آخرين .

قال الخال :

– احمد ليس كالآخرين .

وعلق إبراهيم مدفوعاً برغبة اكيدة للتذكير بنفسه أكثر منه لأي سبب آخر .

ـ ما مأخذهم بالنسبة الينا نحن الاثنين ؟

واقترب حيران عبد الواحد فسلّم ثم جلس القرفصاء مستنداً بظهره إلى جدار قمرات الباخرة الحديدي . وعندما اكتشف أن الجدار كان ساخنا بفعل حرارة المحرك الذي يدور في الطابق السفلي التصق به اكثر .

وتابع ابراهيم :

ـ لا نحن كبار في السن ، ولا قاصرون عن العمل .

ودعم احمد قول رفيقه :

ـ لا يستطيعون أن يفخروا بأنهم عملوا ضد الجماعة أكثر مما عملنا. قالوا «اليوم اضراب» توقفنا عن العمل . « لنسر ياشباب في مظاهرة » فسرنا . لقد نابنا من اذى الجماعة مثلما نابهم .

ـ « لا عمل اليوم .

ـ « ولكن الآخرين يعملون .

ـ « نعم الآخرون يعملون اما المحرضون فلا .

ـ « هل تشهدين باسماء » .

واستمر احمد في صوت مسموع وشدد على مخارج الكلمات :

ـ وعندما اشتدت الازمة التجأنا إلى هناك . فوق . في الحارة الفوقانية . لا يستطيعون ان يزايدوا علينا .

ـ « من ضربك ؟

ـ « لا ادري . كانوا ثلاثة وكانت الظلمة شديدة عند الاقبية .

ـ « هل انت جريح ؟

ـ « كلا

ـ « غير جريح وتوجد دماء على ثيابك . لعلها من المعتدين . آه حسناً . لم تقف مكتوف الايدي اذن ؟

ـ « هل ادعى عليه احد ياعريف ؟

ـ « كلا

ـ « هل لك اعداء ؟

ـ « لا اظن

ـ « هل تشك بأحد ؟

ـ « كلا .

ـ « ياعريف سجل هذه الدعوى ايضاً ضد مجهولين . نعم مثل الدعاوي الاخيرة . تعرض احمد مخلص للضرب . قام مجهولون بالاعتداء .

وتابع احمد في صوت مسموع :

– قل لي يا حيران ما الذي يجعل الناس يبدون هكذا؟ أقصد ما الذي يجعلهم يتبدلون حتى ليلتبس علينا أن نعرف وجههم الحقيقي . فهم على صورة في زمن وفي زمن آخر على صورة ثانية .

وترك حيران نفسه ينزلق ، وقد حرص الا يبتعد عن الجدار الساخن قيد شعرة حتى قعد على ارضية الباخرة بعد أن شاع الدفء في ظهره .

قال حيران :

– لست ادري . لكن المؤكد أن الناس يحرصون على أن يظهروا بغير مظهرهم الحقيقي وكأن في اعقابهم ابليساً . امرة وانا صغير كنت في عيد من اعياد التنكر . ولقد لفت انظار الحضور رجل طويل متنكر في هيئة ملك . لقد عومل لفترة من المتنكرين على انه ملك . طبعاً كانت المسألة كلها مزاح في مزاح فأحيط بكل مظاهر الاحترام والتقدير . وعندما كشفت الاقنعة اصرّ هو (اي الملك) أن يحتفظ بقناعه على وجهه . لكن الآخرين نزعوا قناعه بالقوة . خمّن من كان ذلك الملك ؟ هل تصدق ؟ كان كناس الحارة . الناس ميالون لسبب ما أن يظهروا

ولو فترة من الزمن بمظهر افضل حتى لو كان ذلك على سبيل الدعابة .

قال احمد :

— لو أن المسألة تظل في حدود الدعابة . لكن واأسفاه. انهم اول من يصدق الدعابة التي اخترعوها .

وهزّ ابهامه إلى الخلف باتجاه الشاطىء :

— خذ مثلا الجماعة الجدد .

— آه

قالها ابو الذهب عريضة ملآنة شامتة . وقاطع قائلاً :

— مالهم الجماعة الجدد ؟ خاب أملك فيهم أحسب الآن أن الغشاوة انقشعت عن عينيك واصبحت ترى الاشياء بحجمها الحقيقي . ربما استطيع الآن أن أكلمك كما ينبغي أن يكلم الرجال . حسناً سأحكي لك هذه الحكاية .

كان هناك حلاق يستخدم صبياً عنده . وكان هذا الحلاق يحب الصبي كثيراً فعلمه اصول الحلاقة حتى اتقنها وبزّ الآخرين فيها فذاع صيته . وعندما مات حلاق السلطان ذهب رجاله يبحثون له عن آخر ليحل مكان الحلاق المتوفي .

ذكر الناس لرجال السلطان الحلاق الفتى ووصفوا

لهم براعته وذوقه في هذا الميدان ثم قادوهم إلى حانوته .

اخذ الرجال الفتى ليخلق للسلطان من قبيل الاختبار ووعدوه بمكافأة اذا اجاد في عمله . اما اذا فشل فسيقطع رأسه .

اعجب السلطان ببراعة الفتى ومنذ ذلك اليوم صار حلاقه الخاص . ويبدو أن الحلاق مثلما كان بارعاً في استعمال ادوات الحلاقة كذلك كان محدثاً بارعاً ايضاً ، ولم يكن يضاهي مقصه في النعومة سوى لسانه فقربه السلطان منه حتى صار ذات يوم وزيره وامين سره .

سمع الحلاق بما صار اليه فتاه فقصده عساه يقيل عثرته لا سيما بعد أن كبر في السن وصار عجوزاً . وكان طوال الطريق يمنّي نفسه بالعطايا التي سيغدقها عليه صانعه القديم .

وعندما جاء من يقول للوزير أن بالباب رجلاً اسمه كذا وصفاته كذا يطلب مقابلته امر الحراس بأن يضربوه ويرموه في السجن .

مات السلطان يوماً وخلفه آخر فجاء هذا بأعوانه إلى الحكم وطرد من كانوا في عهد سلفه .

وذات مرة نزل السلطان الجديد إلى السجن ليتفقد

احواله بنفسه وليستمع من ثم إلى ظلاميات المساجين . وهناك التقي بالحلاق العجوز فيسأله عن حاله . وهنا حكى له الحلاق قصته فأطلق بسراحه . وبينما هو ماض في طريقه إلى بيته صادفه صانعه القديم الذي اودعه السجن بعد أن امر بضربه، فاندفع الصانع نحو معلمه بلهفة وعانقه وقبل يديه . دهش الحلاق من مسلك صانعه وطلب منه تفسيراً لتصرفه .

اعتذر الصانع عما بدر منه وقال متأسفاً :

— لعن الله هذا القليق (قليق الوزارة) الذي ما وضعه انسان على رأسه إلا أنساه اصحابه القدامى .

علق حيران :

— هذه حال الدنيا . تعيش مع شخص تشاركه ويشاركك الألم . تتقاسمان معاً الخبز والملح وكل صنوف العوز . وتشاء الظروف أن يصعد احدكما على كتف الآخر . في الجنة . أفي نقابة او لنكش عش عصافير . لكن فجأة . .

وصفق حيران يديه ببعضهما :

— أين صاحبك ؟ طار مع عش العصافير الذي وصل إليه .

قال الخال :

ــ العامل سلّم وحق الله .

وقال احمد :

ــ بل خروف يحمل على رأسه قرنين لم يستخدمهما بعد .

ــ العامل جمل .

والتفت الجميع ناحية القائل . لقد فوجئوا فأداروا رؤوسهم صوب الصوت . وعندما عرفوا صاحب القول كانت المفاجأة الثانية . كان محمد الطفران هو المتكلم وكان لا يزال على وقفته خلف سور الباخرة منذ أن راح يتطلع بعيداً في البحر وكأنه يراقب الأفق . شيء واحد فقط تغير في وقفته تلك . كان ينظر إلى الجماعة بدلاً من النظر إلى البحر . وثمة تبدل آخر بدون ريب . كان يبدو أن ظل ابتسامته قد اتسع عن ذي قبل .

وهزّ رأسه مرة أو مرتين كأنما اراد أن يؤكد ما قال ليعفي نفسه من مهمة تكراره . ثم استدار وانصرف حتى قبل أن يفيقوا من دهشتهم أو يفكر أحدهم أن يسأله استفساراً أو توضيحاً . ولم يحاول اي منهم أن يستوقفه

عندما اولاهم ظهره . كانوا يعلمون انه من العبث أن يفعلوا ذلك .

— العامل جمل ؟

ردد حيران عبد الواحد . وجلى زجاج نظارتيه . كان يضع على عينيه نظارتين طبيتين . كان يشكو ضعفاً في بصره لكثرة ما انكب — كما يقول — فوق الريشة والمحبرة وكان يقول ايضاً « يا خسارة تعب عيني » . لقد سرح آخر مرة من وظيفته في ظروف غامضة وكان يضيف بمرارة « ليس ابن مريم هو وحده الذي حمل صليبه فوق الجلجلة وانما ابن سكينة ايضاً » .

— عجباً ماذا كان يقصد بقوله ؟

اضاف حيران بعد أن اعاد تثبيت نظارتيه فوق عينيه .

وقال الخال :

هذه اول مرة ارى فيها الطفران يبادر إلى قول شيء دون أن يسأله احد ذلك . ولكن ماذا قال بعد كل هذا السكوت ؟ العامل سلم يتسلقه الآخرون لنكش اعشاش العصافير . مفهوم . العامل خروف له قرنان لا ينطح بهما اعداءه مفهوم ايضاً . اما العامل جمل !

وهزّ رأسه متشككاً .

ابتسم ابو الذهب وقال :

ـ كنت اعرف رجلاً يسوس الجمال . وقد حدثني غير مرة عن طبيعة هذه المخلوقات . قال « الجمل حيوان صبور يحمل الاثقال على ظهره ويقطع المسافات البعيدة . وهو لا يطلب مقابل ذلك سوى منحه قليل من الراحة وقليل من الطعام ، حتى انه يتساهل بشأن الطعام ويجتر ما في معدته اذا لم تقدم له ما يأكله . يتقبل ذلك برضى وصمت . اليس الشقاء قدره . لا يشكو لكنه إذا ارهق بالعمل إلى الحد الذي لا طاقة له على تحمله ، واذا حيل بينه وبين جلسته التأملية اليومية المعتادة التي يجترفيها طعامه واحلامه البعيدة فإنه يلجأ إلى الاحتجاج بسيل منهمر صامت من الدموع . ذلك هو الجمل .

ثم اضاف بعد برهة صمت بالدهشة نفسها التي اظهرها الآخرون تجاه احتجاج الجمل :

ـ اليس ذلك مستغرباً من هذا الحيوان الضخم الذي يشيل الدنيا على ظهره ؟

قال حيران متفلسفاً :

ــ مسلك طفولي . لكن يبدو مَعَ ذلك انه المسلك الوحيد الذي يتراءى لعينيه لأول وهلة .

قال الخال :

ــ هذا هو العامل وخلق الله .

وعقب أحمد دون أن يفصح كثيراً عما يريد التعبير عنه :

ــ أو على الأقل العامل الذي نعرفه لا حول له ولا قوة .

لكن في اللحظة التي فكر فيها أن يضيف جديداً إلى ما قال صدرت حركة من جانب. التفت الجالسون فبرز من وراء عمود حديدي علي ابو الندم . وهو رجل قصير ضيق العينين دبق الرموش اشتغل طويلاً وقاداً في أتن الحمامات . ولعل عمله الطويل مقابل النار قد ترك اثراً على لون بشرته فصارت أميل إلى السواد مع ظهور بقع كدرة في وجهه تترك انطباعاً غير مريح في النفس .

القى التحية على الجالسين ثم تابع مسيره . عندما غاب فجأة في عطفة إلى اليسار قال حيران عبد الواحد متضايقاً :

ــ أنا لا أميل إلى هذا الرجل . ماذا كان يفعل وراء العمود ؟

قال الخال :

ــ من يدري ؟ لم اره مرة إلا واقفاً يتلصص ويمد برأسه من وراء شيء .

قال ابراهيم :

ــ ان وقفاته تلك مثيرة للشك .

قال الخال :

ــ العلم عند الله .

قال ابو الذهب :

ــ لست ادري . عندما اراه اتذكر الغراب .

وتساءل الخال بعفوية :

ــ لماذا يتشاءم الناس من الغراب ؟

قال احمد :

ــ لعل لهذا التشاؤم سبباً . ربما كانت له قصة .

قال ابو الذهب :

ــ لقد طعن نجدنا نوح في الظهر .

فعلق الخال :

ـ آه . هل فعل اذن ؟ كنت اتساءل دائماً لماذا وجهه اسود بكل هذا القدر .

واضاف ابو الذهب :

ـ بعد عشرة عشرين يوماً من الطوفان أراد جدنا نوح . .

قاطع الخال قائلاً :

ـ سيدنا .

فنظر ابو الذهب إليه شزراً وتابع دون أن يلقي بالاً كبيراً إلى مقاطعته .

ـ أن يعرف هل انتهى الطوفان وظهرت اليابسة . من اجل ذلك اطلق الغراب ليأتيه بعلامة . لكن الغراب ذهب ولم يعد .

علق الخال :

ـ اللعين بعد كل الذي فعله من اجله . انقذه واطعمه وآواه . ياللعقوق . ربما من يومها صار وجهه اسود .

قال حيران باهتمام مشوب بسخرية غير خافية :

ـ لو كانت اعمال الناس تظهر على وجوههم ؟ يقال أن افعال البشر قديماً كانت تنعكس على وجوههم

أية مشاهد كان من الممكن أن يتاح للمرء أن يرى اليها ، لو حدث الآن ما كان يحدث في الماضي .

وسرح بخياله :

— البعض افواههم ملآنة وهم الذين كانوا يلقون مواعظ في الامانة والزهد ، لأن من ادنى منهم مرتبة اختلس ربما عن عوز فرنكات معدودات . وآخرون يحملون على رؤوسهم قروناً في وقت لم تسلم من السنتهم الكباش والثيران والغزلان لأنها من ذوات القرون . اية مفارقات واية فضائح . قطط بجلود نمور . وضباع بجلود سباع وثعالب كان يظن بأنها [illegible] شيء يشبه يوم النشور . إذ تجزى كل نفس [illegible] حيث لا ينفع مال ولا بنون .

قال ابو الذهب وقد رمى إلى أبعد مما توحي به كلماته الظاهرية :

— يذوب الثلج ويبين ما تحته .

وسارع الخال قبل أن يفوته القطار :

— كل كتابه في يمينه . ومن يعمل مثقال ذرة خيراً يره . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره .

قال ذلك ونظر بانتصار في وجوه من حوله ليرى وقع كلماته . لكن الدرر التي حسب انه نطق بها ضاعت في زحمة الافكار والتصويرات التي جرى كل منهم وراءها . وذوى امله تماماً في سماع كلمة اطراء ، وتحفز بالجولة مقبلة عندما وجد ابا الذهب يلتفت نحو احمد قائلاً :

— كيف وجدتهم ؟

قارعاً صدغه بطرف سبابته .

— واي صور اتخذوها ؟

وقال احمد مجارياً بنفس الاسلوب الذي اصطنعه ابو الذهب مؤخراً . اسلوب هو مزيج من الجد والهزل والسخرية .

— لم تخطر لي بعد الصورة التي تليق بهم . وعندما تواتيني تلك الصورة فما احسب اني سأبخل عليك بها .

واضاف بعد لحظة تفكير :

— حسناً . ولكن حتى يحين ذلك سأقول لك شيئاً قرأته عن التماسيح . التمساح يقترب منك وفمه مفتوح لا ليقول لك شيئاً جميلاً .

* *

عرف أحمد بمرور الأيام ما لم يكن على علم به لدى عودته إلى الميناء . وكان كل يوم يمر يضيف إليه فهماً جديداً وادراكاً جديداً لما يجري هناك . وما يجري لم يكن غريباً بالمرة عن أحمد . لكن أحمد كان بعيداً عندما حدثت التطورات في الميناء . إن المرء عندما يترك طفلاً أو شجرة أو بلداً او اصدقاء ، يتركهم على حال معينة . انه يقول لنفسه وهو بعيد : لابد انه جدث كذا وكذا لما يشغل فكره . طفل أو شجرة أو بلد أو اصدقاء . وهو يتوقع دوماً عندما سيلقاهم ذات يوم ان يجدهم قد تطوروا وصاروا على حال أفضل . حتى في تلك اللحظات التي تبدو فيها حالة ما ميئوساً منها ، فإنه لا يعدم حدوث معجزة . إن كل الناس أو معظمهم يفعلون الشيء نفسه .

لطالما فكر احمد وهو في بلاد الغربة بالزملاء والميناء . أهو البعد الذي يلبس الأشياء حللاً زاهية فيجعلها ، ونحن هناك بعيدون عنها ، تبدو في نظرنا ذات

سحر ورواء . ام لعله الحنين يجعلنافي زحمة الشوق والرغبة ننس الحال التي كانت عليها ويغمض العين عن قبحها ومثالبها . فرفاق العمل لم يكونوا في يوم من من الأيام غير ماهم في الواقع . كانوا طيبين وشجعاناً وذوي مروءة واولاد قحبة ايضاً على حد قول احد الذين عرفوا عمال الميناء وعجنوهم عن كثب . حتى ان المرء ليحار في امرهم . اهم رجال ابرار ام سفلة منحطون ؟ ان احدهم لايتورع عن اقتسام زوادته أو النقود القليلةالتي في جيبه مع آخر . وكم من سيجارة يتيمة تشارك في تدخينها اثنان . وكم من سترة أو تلفيعة أو طاقية صوفية اعيرت في لحظة من لحظات الاريحية والتسامي من دافيء لآخر مقرور بردان . لقد تجلت هذه الروح خاصة في فترة ما من فترات اشتداد الأزمة بين العمال وارباب العمل .

وقد كان من الممكن لهذه الروح ان تكون مضرب الأمثال في النضال العمالي لوسارت الأمور كما كان مقدراً لها في اذهان المتفائلين على الأقل .

ولكن التقدير شيء وماهو قائم فعلاً شيء آخر . ذلك ان المتفائلين مالبثوا ان اضطروا امام بصمات الحقيقة الدامغة إلى مراجعة حساباتهم . فأنت تستطيع بشيء من

من الضبط والدقة ان تعرف ماسيؤول إليه سلوك دمية وربما عدد من الدمى ملئت زنبركاتها . وحتى الطيور في السماء ليس من العسير رصد حركاتها. اما بالنسبة إلى حركة عمالية ابتدأت بالإضراب عن العمل فالأمر يختلف تماماً . إذ بينما كانت آلة الإضراب تسير في السبيل الذي رسمته لنفسها بنفس العفوية التي بدأت حركتها بها طرأ خلل على بعض اجزائها اعاق مسيرتها. قال البعض : انه التهديد . وقال آخرون : انها الرشوة . وقال غيرهم . إنه حبل العبودية السري الذي يمسك بطرف منه رب العمل اما طرفه الثاني فينتهي برقبة العامل .

وفي لحظة احصى [illegible] هم . وجدوا انهم قد تناقصوا إلى حد لن يستطيعوا معه الاستمرار. فاضطروا مرغمين الى انهاء اضرابهم والعودة إلى العمل وليس في أيديهم سوى الوعود بتحسين احوالهم . وكلمة شرف اخذها على نفسه مسؤول في السلطة بعد خلوة مع رب العمل بتنفيذ تلك الوعود .

كان أحمد يعرف ذلك ، ويعرف أكثر منه كيف راح عمال فيما بعد تحت إغراء المال وتقديمهم إلى المراكز الأولى في العمل يتجسسون على زملائهم ويفضحون ما كان خافياً عن ارباب العمل .

لكن مثل هذه الأفكار المتشائمة لم تكن سوى لحظات عابرة في ذهن أحمد . غيوم سود عابرة لاتلبث ان تخلي الطريق لسماء رحبة أكثر صفاء وإشراقاً .

كم من مرة سرح بخياله إلى البحر وهو يؤدي خدمته الالزامية وحلّق كالنورس فوق الميناء والبواخر . وإذا مااتفق وجفا النوم عينيه كانت تقوم في رأسه دنيا جديدة وهو مستلق هناك على سريره في المهجع بينا زملاؤه المجندون يغطون في سباتهم . في مثل تلك الأوقات كان احمد يمضي مع أفكاره . وغالباً ماانتهت به تخيلاته إلى أن تتخذ هذه الصورة .

فذات مساء والشمس قد هجعت أو كادت . الأفق مجمرة كبيرة والبحر ساكن صقيل له لمعان معدن مصهور . لاصوت لاحركة سوى شخير المحركات ولغط المويجات المتقلقلة المحصورة بين الأرصفة واللنشات والمواعين التي تقل العمال . اعداد من العمال لاحصر لها تثب إلى الأرصفة من كل جانب في الحوض القديم . ارباب العمال يروحون ويغدون على الأرصفة . وقد هدأ فيها العمل نسبياً ، يجرون اللمسات الأخيرة لعمل اليوم : ملاحظات . تعميمات . احتياطات . اوامر .

انهم يفغرون افواههم . تأخذهم الدهشة للحظات .

وفي اللحظة التالية يتظاهرون برباطة الجأش . « أولاد ستين الف كلب . ماالذي اتى بكم في مثل هذا الوقت . كيف توقفون العمل في البواخر ؟ ماذا جئتم تفعلون هنا ؟ » . وبدون أي تعليق يتقدم عمال سمر من كل الأعمار . شبان ورجال وكهول من كل صوب وعلى امتداد الأرصفة . وخلفهم على عرض الأفق تنطلق من وراء المجمرة ، أو قلبها ، كتل من السحب . وردية وحمراء وبنفسجية . شفافة وزاهية لفائف لفائف كغزل البنات المتراكم . وبدون ان ينبسوا بحرف يستمر العمال في تقدمهم من كل صوب فيحيطون بأرباب العمل . « أهو تمرد ؟ لسوف تدفعون ثمن ذلك غالياً » . وبوجوه صارمة لاتعرف التردد ، أو الخوف ، يستمر العمال في عملية التطويق حتى تصبح مصيدة . شرك كبير لا خلاص للجلادين المذعورين منه .

إلى هنا كان عقل احمد يقف حائراً . هل يدفع بهم إلى البحر أم يقذفهم خارج الميناء . أم ؟ أم ؟ هذه المسألة لم ينته فيها إلى حل . ولم يسعفه خياله من ناحيته بتقديم الصورة الملائمة التي يكون فيها الجزاء على قدر

العمل . كانت الأفكار ماأن تصل به إلى هذه النقطة حتى تميع صورة الحكم الذي ينبغي ان ينزل بالظالمين . وقد وصل فيما بينه وبين نفسه إلى شبه تفاهم بشأن هذه القضية .

مرة واحدة فحسب خرج عن مألوف عادته بعد أن وقف طويلاً امام الشرك الذي راح العالقون فيه يناضلون للخلاص منه . سمح لنفسه في تلك المرة بأن يطلع الغير على افكاره بعد أن جسم المشكلة في هذه الصورة الهزلية . قال لزميل مجند كان ينام إلى جواره في المهجع « لنفرض ان لك خصوماً أوقعتهم مرة في مصيدة فماذا تفعل بهم بعد ذلك ؟ » . قال الزميل « إذا كانت لهم اذناب اغمسها في الكاز واشعل فيها النار » . فضحك احمد وقال « وإذا لم تكن لهم اذناب ؟ » . قال الزميل « بسيطة . نضع لهم اذناباً ونغمسها في الكاز ونشعل فيها النار » .

وهكذا – فما عدا هذه المرة – كان شريط الصور مايكاد يصل إلى المصيدة ويطل الرعب من العيون ويسود الهرج والمرج حتى يفتل زراً في خياله لتأتي بعد ذلك صورة أخرى . صورة الزملاء الذين وقفوا في صف ارباب العمل . كان يستحضرهم امامه منكسي الرؤوس ،

اذلاء . كأنهم في يوم الدينونة . كان يقول لهم « لقد بعتم انفسكم للشيطان وخنتم قضيتكم فاختاروا لانفسكم القصاص الذي تستحقون » . لكنه على الرغم من ذلك لم يكن يمضي بعيداً في القسوة عليهم . وغالباً ما كان ينتهي إلى العفو عنهم . كان يستوقفهم واحداً بعد واحد . قال ذات مرة مثلاً لأحدهم « انت ! لقد طعنت زملاءك ووقفت في الصف المعاكس فبماذا تدافع عن نفسك ؟ » . فأجابه الآخر : « بعد اليومين الأولين من الاضراب نفد مخزوني من المال . وبعد اسبوع باعت زوجتي طناجرها النحاسية . وبعد عشرة ايام حزمت فرش البيت وأعدتها لحملها إلى السوق وبيعها وقد قلت : تكفي الملاحف لنوم الأولاد لكن زوجتي هددت بالطلاق وترك البيت إذا لم اعدل عن بيع الفرش » .

وانفلتت من مكان ما من عين احمد دمعة وراحت تتلمس لنفسها طريقاً . لكن أحمد امسك بها في اللحظة المناسبة . وحارت الدمعة ماذا تفعل بنفسها وقد انطلقت من عقالها ولم تجد قوة دفع اضافية كافية لتنسكب . وجرت هنا وهناك حتى التمعت منها صفحة العين . وحين لم تجد منفذاً ارتدت إلى الخلف . تقهقرت إلى الحلق وامسكت بخناق احمد فأحس بغصة . قال « لكنك كنت

تتلقى مساعدة » . فأجاب العامل « حسناً . لم تكن بالقدر الذي يكفي إلا لشراء مايلزم من الخبز وشيء من التبغ » . واستوقف احمد عاملاً آخر « وأنت ألم تخاف على المصحف في المغربي ؟ » . اجاب « بلى » . فسأله « لماذا اذن خذلت زملاءك ؟ » فرد « ياريس ماذا اقول لك ؟ » في البدء كنت اشعر بالقوة . ثم اخذت قواي تخور فيما بعد . عندما كنت اعود إلى البيت.لستادري لعلي كنت أخاف ؛ اعترضوني مرة وهددوني بالضرب إذا لم التحق بالعمل . قلت لزوجتي . اترسي الباب بالمزلاج . لكن عبثاً . مضى العهد الذي كنت فيه شجاعاً . انا رب عائلة. عندي أولاد . انت لاتستطيع ان تجعل من رجل ما شجاعاً بمجرد الكلمات إذا ما دب إليه الخوف ». وهكذا كان احمد يوجه الاتهام ويصغي إلى الدفاع ثم يخلي سبيل الزملاء واحداً بعد واحد حتى نظر ذات مرة إلى قفص الاتهام فوجده خالياً فقال ساخراً « يالي من قاضي فاشل » واضاف « من الصعب ان تحاكم الناس وأنت تستمع إلى دقات قلبك.ينبغي ان يتوصل المرء إلى أن يخلق اذنيه أولاً » .

على هذا النحو كان احمد ينظر إلى الغد في الميناء . حركة اشبه بالمد تغرق المستغلين . بل هي المد نفسه

تأتي مع أمواج العمال الغاضبين العائدين تحملهم لنشات تمخر عباب الماء . إذ بينما كل شيء يجري في البواخر كالمعتاد ، وحيث يكون العمل على اشده ، تبدأ ساعة الصفر فيتوقف ، فجأة ، كل ماكان قبل لحظة يمور بالحركة والحياة كأنما اصابه الموت . الونشات ، الصراخ ، الجري ، اللهاث . ثم تبدأ حركة المد . مئات من المضطهدين يتزلقون بالحبال كالشياطين على خواصر البواخر إلى بطون المواعين واللنشات متجهين نحو الحوض القديم .

ثمة شيء كان يشغل باله . ذلك هو أن اللنشات ملك لأرباب العمل . وكذلك هم سائقوها . فكيف السبيل إلى تلافي مثل هذا المأزق ؟ وبينا هو يبحث جاهداً عن حل لهذه المشكلة فوجيء بإمساك العمال لناصية الأمور في الميناء . ولم يصب بالخيبة قدر ماأصيب بالدهشة . وانتظر لحظة كي يعطي نفسه فرصة لاستيعاب النبأ قبل ان يسأل الشخص الذي حمل اليه الخبر . « والجماعة ماذا فعلوا ؟ »

كان يتوقع ان يسمع ان الدنيا قامت وقعدت . وإن الأرض زلزلت زلزالها . كان يتوقع إيما شيء إلا ان يقال له . « فعلوا تحتهم » .

وضحك ثم تمهل حتى يلتقط انفاسه فقال « هكذا بكل بساطة ؟ » .

— هكذا بكل بساطة . جاء مندوبو الحكومة ووضعوا يدهم على كل شيء . المواعين . اللنشات . الحبال . الأسلاك . حتى العقارات .

سأل احمد :

— وماذا سيكون من امرهم بعد ذلك ؟ . .

— فليبلطوا البحر . هل يقاومون الحكومة ؟ .

ثم اخبره زمياه الذي حمل إليه رائحة البحر والميناء والزملاء كما قال احمد فيما بعد على طاولة الشرب ، كيف صار العمال هم ارباب العمل . وكيف تهيبوا في البدء وكادوا أن يتراجعوا عن ان يقوموا هم انفسهم بإدارة شؤون العمل في الميناء خوفاً من الفشل .

في تلك الليلة شرب احمد عرقاً ورقص وسكر احتفاءً بهذه المناسبة . وفي موهن من الليل وكانت قد هبت عليه رياح الحب وحملته فوق موجة مشعشعة بالأمل والنشوة انطلق يغني :

إن كان بتعشق   تاجر بالحرير
والعشق ياعيني   يلزمه مال كتير

في تلك الليلة طار أحمد ، كما طار في الأيام والليالي التي تلتها مع أجنحة كل خيال . لكن الخيال لايستطيع ان يستمر محلقاً إلى مالانهاية لأن له جناحين . وإذ كان له جناحان اذن لابد له من محطات يلتقط فيها انفاسه ويتزود بحبات الأمل قبل أن يعاود التحليق من جديد . ولقد حط طائر الخيال يوماً بالميناء . الميناء ذلك المكان الذي يختلط فيه التجديف بالصراخ والشتائم وزعيق السيارات ولهاث البواخر والرشوات والعمولات والسرقات والتهريب والمصالح الشخصية والدسائس والاستغلال . وفوق ذلك ملح البحر ودبقه والروائح المعلقة في الجو . هذا المكان العجيب الذي يختلط فيه الحابل بالنابل مع أنه يبدو للوهلة الأولى ليس هو بالمكان الأمثل لتحليق الخيال . لكنه مع ذلك كان خليقاً بأن يولد لدى احمد كما فعل ، ربما ، بالنسبة إلى كثيرين في وقت من الأوقات خيالاً متواضعاً ليحلق في سماء متواضعة .

ذلك ان الخيال فيما يبدو لايحتاج دوماً إلى سماوات واسعة ليحلق فيها . اذ يكفيه احياناً سقف بيت صغير وجناحان صغيران ليخلق لنفسه جنة ينعم بها . ولاح ان الانتقال من المياومة إلى المحاصة شيء مرتبط اشد الارتباط بتلك الجنة . لكن حتى هذا الحلم الصغير بدا

في وقت ما عسير المنال . وكان لا بد للخيال وإن كان متواضعاً من أن يصطدم يوماً بالواقع . كانت قد نشأت في الميناء – بعد المحاصة – ظروف جديدة وعلاقات جديدة . فقد تغير الموضع الذي كان يتطلع منه كل من المياوم والمحاص . وتغير تبعاً لذلك الهدف الذي كانا ينظران نحوه . فرب العمل لم يعد شخصاً او عدداً من الأشخاص . وإنما كان العمال انفسهم الذين كانوا بالأمس اجراء مستغلين . ولعل كلمة « رب العمل » هذه ليست شيئاً جاهزاً ولا وقفاً يحملها اناس مصطفون . لكنها قبل كل شيء موقع ونظرة إلى الأمور ومنطق . ثم هي بعد ذلك قالب يصك من يمر فيه ليحمل سيماه .

وهكذا ماأن تغير الموقع حتى نهض معه الحاجز . ولقد احس احمد منذ اللحظات الأولى بوجود هذا الحاجز . لكنه عزاه إلى طول الغياب والبعد عن الزملاء والميناء . وظن أحمد ، أو هكذا خيل إليه ، إن الزمن خليق بهدم عرش هذا الشيء الذي انشأه احساس الغريب . الكنه ماعتم ان اكتشف خطأه . ووجد أن هذا الحاجز ليس شيئاً خلقه الوهم . وإنما هو شيء محسوس . وبحذر واحتراس تقدم منه ليختبره . اراد أن يثبت لنفسه أكثر

منه لأي سبب آخر انه كان مخطئ . ولعظيم دهشته وجده قائماً هناك فعلاً . وإنه كان قاسياً صلباً خلق في نفسه المرارة . وبدهشة ايضاً تساءل « أمن الممكن ان يكون الوضع كذلك ؟ هل هؤلاء هم رفاق الأمس ؟ » .

❋

قالت رتيبة :

ـ لم اسمع صرير الباب في السادسة . وفي السادسة والنصف خفق قلبي . تلاعبت بي الظنون . وقلت : عسى الأمر خيراً . اقعدي يابنت خلف النافذة وانتظري . كانت عيناي مسمرتين بالباب . وقلبي معلقاً بصريره . تعرف؟ مرات قلت لنفسي : ماذا يحتوي صرير الباب حتى يفرح ويحزن.

نظر احمد في وجه رفيقته . كانا يسيران جنباً إلى جنب في درب ضيق في طرف المدينة الجنوبي وعن يمينهما ويسارهما بساتين التين واللوز والتوت والجميز .

تابعت رتيبة :

ـ وفي السابعة سمعت جلبة في المطبخ فهدأ بالي : وقلت : حسناً ، لن يذهب اليوم إلى الشغل .

وابتسم احمد من جديد وقال :

ـ ولكن الجلبة كل يوم في المطبخ . ماادراك انني كنت هناك في تلك اللحظة . وانني لم اسبقك في الاستيقاظ والخروج إلى العمل ؟

قالت :

– انت لك جلبتك التي لاأخطئها . تبرم صنبور الماء بعنف . تسعل . تتمخط . هل تعلم انك ستصير عجوزاً في وقت مبكر ؟

فقال احمد :

– أو لست عجوزاً الآن ؟

وبحركة تمثيلية نظرت إليه . تملت وجهه وقالت دون أن يفارقها اسلوبها التمثيلي .

– لا . يبدو لي أنك أكثر نضجاً وحنكة من أي وقت مضى .

ثم نقلت عينيها إلى عنقه وإلى بنيانه المشدود جملة .

– ولعلك أكثر فتوة ايضاً لكن . .

وكرر أحمد متسائلاً :

– لكن ؟

– لكن إذا استمررت في الطريق الذي تسير عليه فستصير عجوزاً في وقت قريب .

– أي طريق ؟

قال . وقد شعر أن ثمة مايشغل فكر رفيقته . وان هناك هدفاً ترمي إليه من وراء غمزتها . انه لمن السهل

ان يعرف المرء مايدور في خلد فتاة من الطريقة التي تدير فيها حديثاً ما .

قالت :

ـ تدخن كثيراً وتسهر كثيراً .

قال متخابثاً :

ـ اسهر في العمل .

قالت :

ـ لا . اقصد عندما لايكون هناك عمل .

قال مستدرجاً أكثر :

ـ وماذا تترقعين من عازب ؟

قالت دون ان تحفل كثيراً بإخفاء مرادها :

ـ ان يقول اين يمضي الليل خارج البيت ؟

قال مستثيراً :

ـ في لعب الورق وأشياء أخرى .

قالت :

ـ ماهي هذه الأشياء الأخرى ؟

قال :

ـ نثرثر وندخن .

سألت :

ــ تثرثرون في ماذا ؟

قال في سره « المرأة واحدة لاتتغير » . ثم ضاحكاً :

ــ هل هو تحقيق ؟ نثرثر في العمل . بماذا تظنين يمكن ان يفكر عمال ميناء ؟ في الذرة ؟

وسادت فترة صمت . ومال احمد فاقتطع قضيباً من جانب الطريق .

قالت رتيبة وفي عينيها وصوتها لهفة السؤال أكثر مما ينطوي عليه ظاهر كلماتها :

ــ طيب ! ماذا حدث بشأن العمل ؟

قال :

ــ مامن جديد . الوعود نفسها .

وعبر عينيها ظل قاتم . قالت :

ــ يبدو لي ان هذه الوعود لانهاية لها .

واستوقفت احمد نغمة أسى شابت صوتها فقال :

ــ هل مللت ؟ انا لم أمل بعد .

فاستدركت قائلة :

ــ كلا لم امل . لكن . .

وضرب احمد سياج البستان عن يمينه بطرف عصاه .
قـال :

— لكن ماذا ؟

وسرقت رتيبة نظرة من وجه رفيقها ثم علقت بأسف :

— كنت احسب ان الامر لن يطول .

فقال احمد وهو يختبر ليونة القضيب الذي اقتطعه من جانب الطريق . لقد امسك به من طرفيه . طواه قليلاً . ثم تركه يستوي ثانية :

— وانا ايضاً كنت اظن كذلك . عندما تركت الاجباري كنت اعتقد أنّ القضية منتهية.حسناً ! كانت الصورة في ذهني هكذا . ذات يوم . ذات صباح امضي الى الميناء .. الشباب في المقهى . شيء مثير للضحك . تصوري انني كنت اتخيل انهم يديرون العمل من ذلك المقهى،كأيام زمان ، عندما كنا نجلس هناك رؤوسنا متقاربة نتوشوش على رب العمل القديم . ماكان ابسطهم في تلك الايام لاأصباغ ولا أقنعة . الكلمة التي في القلب هي على رأس اللسان . المهم . اذن ذات صباح اقتحم المقهى « إيه ياأولاد ها انا قد جئت » وتصر الكراسي المتخلخلة . وينهض الشباب وتهتز العناكب في زوايا القبو ونتعانق ونتعاتب « انظروا من جاء » . ويلتفت

الذين لم يروني من اول وهلة ، على صوت القائل « انظروا من جاء » . ويندفعون الي واندفع اليهم . يشدون على يدي واشد على أيديهم . نعم كنت اعتقد اننا اعضاء اسرة واحدة وأنّ احد افرادها كان غائباً وعاد .

وضحك احمد بمرارة :

ــ كم ابدو الآن سخيفاً في نظر نفسي . لقد شطح بي الخيال هناك ، في الجيش . اليس كذلك ؟

قالت رتيبة :

ــ سخيف ! لا . كل الناس تمر بهم لحظات يطلقون فيها العنان لخيالهم . لا يعيب المرء ان يتخيل عندما يكون وحيداً مع نفسه . العيب فيهم ، رفاقك ، اذا لم يكونوا كما تخيلتهم .

ونظرت إليه ولاح للحظة على وجهها ذلك التهيؤ الذي يسبق استعداد المرء للكلام . لكنها بدلاً من ان تنطق بأيما حرف آخر اكتفت بأن ضغطت برفق على ذراعه .

وسارا بضع خطوات اخرى . كان هناك سور يرتفع متراً أو اكثر من الأحجار ذات القطع الصغيرة ، قام على كل من جانبي الطريق الترابية . كانت الاشجار عارية . غير أن نظرة سريعة الى تلك الاشجار كانت خليقة بأن تولد لدى المرء شعوراً بأن معمل الحياة يعمل ناشطاً ، بصمت

وخفاء ، هناك . وقد ظهر اثر هذا النشاط حبيبات على الاشجار . كانت جبيبات حبلى تنتظر اشارة لتتفتق . بل ان بعضها تفتق فعلاً وغامر بمد رأسه لالقاء نظرة كي يرى هل آن الاوان ليطلق ازهاره .

— ايه . والآن . طيب ! كيف تسير الامور عندكم في البيت هذه الايام ؟

كان احمد يعلم ان الحياة ، لاسيما هذه الايام ، ليست على مايرام في بيت المسكاوي على قلة عدد افراد الاسرة هناك . وان ثمة حرباً قائمة بين رتيبة وزوجة ابيها . حرب قديمة ماان تهدأ فترة حتى تستثيرها حادثة صغيرة .

كانت الزوجة من أسرة فقيرة عانت في حياتها الحرمان من الجوع . لكنها فجأة وجدت نفسها متزوجة من رجل يكبرها في السن ، مصاب بالعقم من مرض جنسي يعتقد زرعته فيه نورية دخلت مخزنه ، في لحظة ، لتستطلع له المستقبل .

لقد وجدت الزوجة نفسها ذات يوم بعد أن شبع بطنها انها محرومة من الاولاد . وفوق ذلك محرومة ، في لحظات الانس خاصة ، من الرجل الحقيقي الذي ينشر فوقها جناحيه. ان لعنة الحرمان تلاحقها . كانت تفكر احياناً . مامن شيء

يبلغ الكمال . لو أجتمع لديها الاولاد الى جانب المال والزوج الذي يهصرها بين يديه بدون بهارات ووصفات العسل والاعشاب البرية . ماكان اسعدها !

وفي لحظة التفتت حواليها فلم تجد ماتفعله سوى ان تقضي وقتها بالتردد على الخياطات وتحت ابطها مجلات الازياء . وفي الاوقات التي لاتجد فيها ماتحمله الى الخياطات ولا تعثر على شيء تفعله في البيت ، في هذه الاوقات كانت تدور في ارجاء البيت كاللبؤة الجريحة وهنا يقع بصرها على ابنة الزوج . لعله كان من الممكن جداً ان تصبح ابنة الزوج ابنة لها وهي المرأة المحرومة من الاولاد . لكن يبدو أن العواطف الانسانية وعلى الاخص،عاطفة الامومة لها منطقها الذي لاتفرط فيه .

وفي حين لاح انه من الطبيعي،من الناحية النظرية على الاقل ، ان تنظر الفتاة الى زوجة ابيها ، وقد حرمت من والدتها وهي صغيرة ، نظرتها الى أم ، راحت بدلاً من ذلك تساقها بنظراتها النارية المزدرية . لقد شرعت الاثنتان تتبادلان البغض . ولم تدخر الواحدة منهما وسعاً ان تكيل التهم للاخرى .

— اية امور ؟

رددت رتيبة لتعطي نفسها فرصةتتمكن من خلالها ان ترتب في ذهنها مايمكن ان يقال لاحمد وما لايقال له .

قال احمد وهو يضرب الهواء بعصاه :

— الامور بينك وبين خالتك . بينك وبين ابيك . بينكم انتم الثلاثة .

كان ينظر الى الامام متحاشياً النظر في وجهها . انه لايجهل ماستقول له . واذا لم تقله فسيقرأه في عينيها . في وجهها . كلمات محفورة في وجهها ، في عينيها . قالتها له امه واخته (وكانتا قد علمتا بحبه لرتيبة) . سمعتاها في لحظات الشجار من خلف الجدران . قالتاها له . وما قالتاه اشياء مهينة تفوهت بها زوجة الاب بحق رفيقته .

ومع انه كان يعلم.لكنه فكّر عله يريحها اذا افضت إليه بسرها . كان ينظر الى امام لأنه يحاذر من النظر في وجهها. في عينيها .ستعاتبه عيناها. ستسأ لانه . ستطالبانه بأكثر مما فعلت اسئلتها الحذرة عن مصير المحاصة .

كان يشعر في قرارته بالمساحة المحدودة والضيقة التي يستطيع التحرك فيها . كانت حركته مقيدة . ومن هنا كان يشعر بالعجز وبالتالي بالمهانة من ان يستطيع عمل شيء بعد هذا الانتظار الطويل .

واستمر في النظر الى الامام . وضرب الهواء مرة اخرى بعصاه كأنه يضرب خصماً ، عدواً . وفي لحظة لاح كأنه يضرب عجزه . وارسل الهواء الذي حزّته العصا صفيراً متوجعاً فلذ لأحمد سماع ذلك الرجع الموجّع ، المتألم والمتأسي في آن . فضرب مرة اخرى .

قالت رتيبة :

ــ انها تخلق المناسبات لاستفرازي . تصطنعها . تصفق الابواب . ترمي الصحون في المجلى تخبط النوافذ . تبربر . أشتغلي في البيت . اكنسي انت لاتكنسين . اغسلي انت لاتغسلين .

اربد وجه احمد لكنه تصنع المرح والابتسام . قال ضاحكاً :

ــ ألا تستطيعين مهادنتها ؟ اعقدي معها صلحاً لبعض الوقت . سوف ارى مايمكنني عمله .

قالت رتيبة بنبرة اقل حدة لكنها اعمق غوراً حتى بدا ماتقوله وكأنه لايقبل النقض .

ــ يبدو لي انها لاتطيق وجودي هناك . تريدني ان اترك البيت . هل تعرف ماذا قالت لي عندما انصرف الخاطبون آخر مرة . قالت لي (مقلدة) انت لستاحسن مني .انا ايضاً

تزوجت اباك كبيراً . إلام تنتظرين ؟ غداً ينصرف عنك الخاطبون وتبورين . البنت مرغوبة طالما هي حق ويهملها الراغبون اذا ما تفتحت .

قال احمد دون اندفاع كبير في الظاهر ولكن بقدر كاف من الغيظ :

– أو قالت لك ذلك ؟

رددت رتيبة :

– بل قالت اكثر من ذلك .

وبدت للحظة مترددة :

– قالت لعلك تنتظرين واحداً من هؤلاء الذين يتسكعون قبالة النوافذ ، أو تحتها . حسناً ! ان احدهم لن يقترب منك ، لإنه لايملك ثمن خاتم خطوبتك .

وفيما قام تساؤل في ذهن احمد . هل تقصده زوجة الاب ؟ هل توحي للفتاة بالهرب مع احد شبان الحارة ؟ فيما قام هذا التساؤل احتلت المركز فكرة . وهي أن زوجة الاب تريد التخلص من رتيبة . ثم بدأت هذه الخاطرة تبحث لنفسها عن الدوافع . هل هو كره زوجة الاب لغير ابنائها ؟ أهي الغيرة والحقد حتى لتكاد المرأة تدفع برتيبة الى مصير مماثل لمصيرها ؟ أو لعلها تريد ان يخلولها

الجو . لقد تردد همس هنا وهناك حول سلوكها وغير واحد لعق شفتيه وقال : حامد المسكاوي ليس هو الخيّال الكفء .

وتاق في الحلم او في اليقظة ان يعلو هذه الفرس التي بدت مسرجة وفي كامل اهبتها كأحسن ماتظهر عليه فرس تجري في حلبة ، ويكون هو فارسها المغوار ..

وحقيقة كانت نظرات زوجة الاب الداعية والشبقة في آن ، التي سرعان ماتختفي تحت اهدابها المسبلة كما تنسرب حيوانات الارض الصغيرة داخل جحورها لحظة تضبط تتلصص على ابواب تلك الجحور . كانت هذه النظرات تذكي النار في قلوب شبان الزقاق وتنهب خيالهم ، كما تنشر الاقاويل في دائرة واسعة حولها . .

وقد حظي احمد بقسط من هذه النظرات . بل لعله حظي بالقسط الاوفى منها وعندما اكتشفت زوجة الاب انه لايخصها باهتمامه ، وانه اذا ماااتفق وتوجه بانظاره الى نوافذ بيت حامد المسكاوي فليس من اجلها وانما من اجل رتيبة ، عندما اكتشفت ذلك سلقته بنظرات حامية وحظرت على الفتاة الاتصال بأهله من فرق السطح أو التردد على بيتهم .

– وأبوك ماموقفه ؟

قال احمد واضاف بعد سكتة قصيرة .

– الا يفعل شيئاً ؟

قالت :

– أبي ! لم أره قاصراً كما هو الآن وخائفاً . لست ادري . يبدو لي انه يخشى ان تتركه وتمضي . لكأنه طفل يطبق بيديه الاثنتين على عصفور .

قال احمد :

– هذه حال الكبار . يقبضون على الاشياء كالأطفال كأنها ستهرب من ايديهم .

قال والد احمد :

– « هات يدك ياعزيزة . الموت عند طرف السرير . لاتتركي الغرفة .

قالت والدة احمد :

– بعيد الشر عنك . كلنا حولك » .

قالت رتيبة :

– هذه المرأة لاتحبني (ثم مترددة) حسناً . اعتقد انها لاتحب ابي ايضاً . ماكان يجب ان تموت أمي .

وسقطت « ماكان يجب ان تموت امي » في اذن احمد فهزته هزاً ومست شغاف قلبه حتى اوجعته . فها هي ذي الانسانة التي يحبها ، والتي تراءى له دوماً انه يجود بالنفس من اجلها ،هذه الانسانة ، تبدو الآن متوحدة ، مقهورة، لاسند لها . وعلى الرغم من ذلك ، ولعل هذا ما اوجعه اكثر من اي شيء آخر ، انه لايستطيع ان يمد لها يد العون .

وكما ينتفض حيوان عاجزانكمش طويلاً امام اولاد يشهرون عصياً في وجهه . كما ينتفض هذا الحيوان ضارباً في لحظة عرض الحائط بكل الوان اليأس والجبن والخوف. انتفض شيء ما في داخل احمد لكنه اسرع فوضع اصبعاً على صمام غضبه . قال مهوناً :

ـ بسيطة . كل شيء سيكون على مايرام ! اطمئني

وقبل ان تعي رتيبة بالضبط ماالقاه في سمعها بسرعة وانفعال ولهوجة رغم محاولته الظاهرية ان يضفي على صوته الهدوء واللامبالاة . اضاف :

ـ سيكون لي شأن معهم .

ثم بصوت يقرب من الهمس حتى ليكاد يكون ذاتياً .

ـ اولاد الكلب .

فاغتصبت رتيبة ضحكة ثم تساءلت مستغربة خائفة وهي في حيرة من تحوله الذي فجئها نوعاً .

– ولكن من هم ؟

– كل هؤلاء الذين لايريدون لنا ان نعيش .

وكانا قد قطعا ، منذ مدة ، منطقة البساتين ، فقفلا راجعين . وكان القضيب لايزال في يده يضربه ضرباً رفيقاً على ظاهر ساقه . ومرة او مرتين شق به الهواء كأنه يضرب شبحاً فأرسل صفيراً اصم .

* * *

حين تأكد العمال انه لن يكون ثمة عمل اليوم لرداءة الطقس بدأوا يعدون دراجاتهم تمهيداً للانصراف . بل ان بعضهم انصرف فعلا دون ان ينتظر امراً بذلك . ولعله فعل لأن دراجته في المقدمة . كانت هناك سقالة نصبت عالياً من طرف جدار المكتب الى طرفه الثاني . وكانت دراجات العمال قد علقت في السقالة بحوامل حديدية اعدت لهذا الغرض . اما الذين لم يجدوا لهم مكاناً في تلك السقالة فقد اسندوا دراجاتهم تحتها ، على الجدار واحدة الى جانب الاخرى حتى تجمع من ذلك عدد كبير . مما جعل الوصول الى دراجات المؤخرة والسقالة شيئاً متعذراً حتى يتسنى سحب تلك التي في المقدمة باستمرار . واستقرت في الجانب المقابل من القبو الدراجات النارية .

فمنذ قليل ذهب بعض العمال واستطلعوا الجو من جهة الفنار .. ثم عادوا يعلنون الى رئيس الفرقة :

— القبلي مغلق ياريس

فسأل الشمام وكان يجلس وراء مكتب معدني رصاصي

اللون في زاوية من صدر القبو . في حين وقف كاتب الفرقة على مقربة منه :

— ماذا تقول النشرة الجوية ؟ هل استمع احدكم الى الراديو ياأولاد ؟

— قال الراديو ستحدث امطار وعواصف رعدية .

تساءل عامل بعفوية :

— عجيب كيف يعرفون هناك في الراديو بحدوث الأمطار والعواصف قبل ان تحدث ؟

فرد عليه آخر :

— بالعلم .

ووجد الشمام الذي كان يحب العلم الى درجة البغض . وجد ان الفرصة ملائمة ليلكز العلم والمتعلمين لكزة عابرة فقال :

— قال عواصف رعدية قال . كأن الله اعطى علمه للناس . البارحة ياشباب كانت السماء في الليل مثل الليرة الفضية : ولكنه شباط كما تعلمون .

فعلق عامل وكان قد دفع دراجته وخطا خطوتين باتجاه الباب :

— لكننا نحن الآن في آذار ياريس .

فقال الشمام :

– وما الفرق آذار ابن شباط اذا لم يكن هو نفسه . وما يحدث في شباط يحدث في آذار . فجلة وانقسمت .

وعقب عامل كبير في السن من طرف القبو :

– نحن الآن في شباط شرقي باريس .

لكن تعقيبه لم يلق اهتماماً وضاع في حمى الفوضى .

وفي جانب من المكتب وقف احمد مع بعض المياومين . قال عامل مياوم اسمر البشرة بارز عظام الوجه :

– المحاصون لا يبالون كثيراً إذا ما امطرت فمحفظاتهم ...

واستعان بيديه واضعاً احداهما فوق الاخرى .

– عامرة باستمرار . بل لعلهم يتمنون ان يحدث مثل هذا اليوم الماطر ليواصلوا لعب الباصرة المشروطة .

قال احمد وهو يختلس النظر من رئيس الفرقة :

– اذا كان الجوع عدو الفقير رقم ١ ، فالمطر عدو الفقير رقم ٢

قال العامل الذي قاد دراجته باتجاه الباب ، وكان قد صار خارجاً ، يستحث رفاقه :

– انها ستمطر . وقد سقطت حبات فوق رأسي . اسرعوا ياشباب .

قال الشمام :

– هيا ياالاولاد قبل ان يحبسكم المطر .

وساد هرج لفترة . وطقطقت الدراجات النارية . فما دام ليس هناك أمل بالعمل ففيم البقاء اذن . ليسرعوا قبل ان يدركهم المطر وليمض كل لشأنه .

وماهي إلا لحظات اخرى حتى خلا القبو بينا بقي خليل الشمام حيث اعلن انه سيمر على وكالة بواخر قريبة . واحمد الذي بدا انه يتلكأ مستأخراً الانصراف . وكاتب الفرقة الذي مالبث ان انصرف بعد أن اودع دفتر المياومين في احد ادراج المكتب الرصاصي .

قال الشمام :

– ايه احمد ! لم تذهب . يلزمك دراجة .

لقد حدثه انفه ان ثمة مطلباً يكمن وراء تلكؤ احمد الواضح في الذهاب . وكان اول خاطر راوده في اللحظة التالية موضوع المحاصة .

وتقدم احمد باتجاه الشمام الذي كان لايزال جالساً وراء المكتب في زاوية القبو . كانت عيناه محمرتين تعبتين تتحركان بقلق . لقد امضى ليلة امس دون ان يغمض له جفن . راح يتقلب في فراشه . كان العمل هو

وتد الرحى التي دارت حولها افكاره . منه انطلقت كل طيور الاسى ورفرفت بأجنحتها السود حواليه . فعندما افترق عن رتيبة بالامس وعاد الى البيت كانت ابوابه كلها مشرعة للالم . ولم يبق إلا ان يعزف الشيطان فيها اغنيته . وقد عزف . لعب بكل الاوتار . وعلى نشيده لبست رتيبة وأحمد وابوه واخوته ورؤساء الفرق والحياة برمتها كل الاردية وتقنعت بكل الصور . انه الليل يغني الخيال . يقرب المسافات . يبعدها . المستحيلات ممكنة . وماهو ممكن يصبح فيه مستحيلاً . هو الليل ترتفع فيه اسوار لم تكن بذي بال . وتهدم اسوار كانت قائمة فعلاً . يضخم الالم . يهوله . وفي لحظة يهون من أمره . ويصبح الاشكال الذي كان قبل قليل مثار فزع وخوف ، موضع هزء وسخرية الآن من السهولة التي يحل بها . وتكمن المعجزة وراء صورة . أوخطاب مؤثر ، أوذكرى ، أوعبارة حارة . تنبثق المعجزة من وراء ذلك كما تنبثق الشمس من قلب الليل .

ولكن الليل يمضي . تنتهي نوبته فتمضي معه عصاه السحرية ووعوده المعسولة والخطابات المؤثرة والعبارات الحارة والذكرى . تذهب المعجزة ويبقى ماهو قائم فعلا. تبقى المحاصة والمياومة ورؤساء الفرق واحمد وخليل الشمام

وبينهما مكتب معدني لاح في لحظة لاحمد انه اعلى من سور الصين .

— إني اسعل قليلا في الليل . وخفت ان يدركني المطر في الطريق .

قال احمد وجلس على كرسي كان قائماً هناك حذاء الحائط ، مقابل الشمام ، من الجهة الثانية للمكتب المعدني .

قال الشمام :

— ماكان ينبغي أن تنزل إلى الميناء اليوم . لعله كان من المستحسن أن تلازم الفراش في مثل هذا الجو .

قال أحمد :

— شعرت البارحة بوعكة فلم أنزل إلى العمل .

قال الشمام :

— البارحة كان الطقس رائعاً .

— كانت الشمس حامية .

قال أحمد . ومشى هو ورتيبة بين البساتين « بسيطة . كل شيء سيكون على مايرام » . قال لها وسرت رعدة في جسده ابتداء من الكتفين .

وأضاف :

ـ الشمس الحامية في شباط وآذار باروميتر

واسترعى لفظ ال « باروميتر » ودون وعي تام بالكلمة ، انتباه الشمام فقال : لو كنت في مثل علمه لما استطاعت قوة أن تزحزحني عن رئاسة الفرقة » .

ـ إنها تنذر بتحول الطقس .

تابع أحمد . واستقرت الرعدة وقد تحولت إلى قشعريرة في صلبه .

قال الشمام :

ـ كنت إذن متعطلاً البارحة . طيب ! وها أنت تعطل اليوم . إلا إذا ساء الطقس ليومين ثلاثة . لعلك خلال ذلك تكون قد شفيت من وعكتك .

ـ لكن التعطيل بالنسبة للمياومين يعني لادراهم .

قال أحمد مازحاً وقد دعم قوله بحركة حاكة من سبابته وابهامه .

قال الشمام :

ـ التعطيل يعني لادراهم بالنسبة إلى المياومين والمحاصين على السواء .

وأقرّ أحمد قائلاً :

— في التعطيل يتساوى الفريقان حقاً . المحاصون والمياومون على السواء . أما في العمل . .

وترك جملته معلقة في الهواء . فيما أخذ من جيب سترته الداخلي علبة سجائر نقفها نقفة خاصة فأطلت من فتحتها سيجارتان ثلاث . ومد أحمد يده بعلبة السجائر يعرض على الشمام سيجارة .

نظر الشمام إلى علبة السجائر . كانت من صنع محلي فقال :

— شكراً . لاأستطيع أن أبدل تبغي .

وأشعل أحمد لفافته فيما انتظر من الشمام أن يكمل جملته التي تركها معلقة . وحين مضت الثواني دون أن يفعل . بادر أحمد إلى وصل ماانقطع . فقال محاولاً الباس لهجته المسحة المازحة نفسها .

— في الموت يتساوى الصعاليك والكلاب والأغنياء . كان الأجدر أن تكون المساواة في غير هذا الميدان .

وسحب الشمام من جيبه علبة تبغ أميركي . التقط منها بعناية سيجارة أشعلها من ولاعة فاخرة . ثم وضع علبة التبغ والولاعة على الطاولة . العلبة وفوقها الولاعة الفاخرة . فكر الشمام « مايقال عنه صحيح إذن » .

ثم قال بصوت مسموع :

ـ أوليست إذن هناك مساوئها ؟

رد أحمد :

ـ أنت أدرى مني بالأمور .

ومضت فترة صمت في وقت تلاحق فيه تساقط حبات مطر في الخارج ، وقد صار لها وقع مسموع الآن ، لكن دون أن تأخذ شكلاً كثيفاً .

وأخذ الشمام نفساً عميقاً من سيجارته نفثه ببطء ، مستمتعاً بمنظر الدخان وهو يخرج من منخريه على دفعات وبما يبعثه في عروقه من خدر .

كان له أسلوب خاص في التدخين . كان يمسك بالسيجارة أحياناً على نحو تذكر المرء بالطريقة التي يدخن بها أولئك الذين اعتادوا تعاطي الحشيش بالسجائر . تلك الطريقة كما كشف أحد أولاد الصنعة بأنها تقسر السيجارة بشكل ما أن تسكب في أعصاب المرء لذة وانتشاء خاصين في غياب الكيفة أو حتى بعد تعاطيها .

وبعد أن سحب نفسين بطريقته الفريدة تلك ثم نفثهما ، راح يرى من مكانه وراء الطاولة ، إلى شبكة المطر ،

عبر باب القبو ، ثم إلى تحطم حبات المطر على أرض الشارع وعتبة ذلك القبو. التفت إلى أحمد . كان وجهه قد اكتسب ذلك الطابع الذي يسبق اتخاذ القرارات الخطيرة . قال :

— هل ترى إلى أصابع يديك ؟

قال أحمد :

— نعم

قال الشمام :

— لا بل انظر إليها .

وبسط أحمد يده أمامه ثم قلبها ظهراً إلى بطن .

— حسناً . هاأنذا قد رأيت .

قال الشمام :

— هل ترى اصبعاً يماثل الآخر ؟

قال أحمد :

— كلا .

قال الشمام بحذلقة :

— المسألة بكل بساطة هي هكذا . يبدو لي إنه سيظل هناك مسافات بين الناس . زمان كان أفراد الجماعة هم

أرباب العمل وكنا نشتغل عندهم . والآن نحن أرباب العمل وهناك من يشتغل عندنا .

وأخذ الشمام نفساً جديداً من سيجارته . كان لعينيه لمعان زجاجي واحمرار لايشاهدان في الأحوال العادية . كان وجهه هادئاً يعكس تعبيراً شمعياً مشدوهاً ومتعباً في آن معاً .

كان في احدى حالاته النموذجية . وكانت تلك الحالة المثالية مع مايقابلها من لحظات عرفت عنه كان فيها فاقد الصبر عصبياً يثور لغير ماسبب ظاهري معقول ، هما بالضبط الحالتان اللتان كانتا موضع تساؤل العمال الأغرار وشكهم لزمن طويل .

نظر أحمد إليه . كان ثمة تعبير بالطيبة المشوبةبالبلادة ينعكس الآن في وجهه .

وأطلق الشمام دخان سيجارته نفثة طويلة متأنية .

ثم استأنف القول دون أن يتخلى عن حذلقته وقد راق له هو نفسه أن يستمع إلى هذه الحذلقة :

ـ حسناً أنت تريد الآن أن تصير محاصاً . ولو كنت موضعك لسعيت مثلك أن أصير محاصاً . لكن لنتبادل المراكز الآن . أنت ريس الفرقة وأنا مياوم . أنا من ناحيتي سأسعى جاهداً كي أصير محاصاً وأنت من ناحيتك سترفض .

فتساءل أحمد مستغرباً :

— وما أدراك أني سأفعل ؟

فقال الشمام وقد بدا كأنه تخلى ، ربما مؤقتاً ، عن ايحاء أنفه وراح يتكلم من القلب :

— أنت واحدمن الناس. ومادمت واحداً منهمفأنت ستسلك مثلهم . عندما كنا صغاراً ، وكانت تُوزع علينا قطع الخبز والحلاوة الطحينية ، كنا نتشاجر أنا واخوتي من أجل القطعة الأكبر . كانت أمي تقول بشك وخوف بعد تسوية الخلاف : سيأتي يوم يتنكر فيه الأخ لأخيه والولد لوالده والأم لابنها . حسناً . لعل اليوم الذي كانت أمي تبشر به نحن فيه الآن .

وبدا أحمد محيراً . بدا وكأنه لغز .فتساءل :

— لكن لماذا ؟

— لماذا ؟ لست أدري . ألم تر نفسك يوماً في وضع مماثل لما أنت فيه الآن ؟ ألم تشاهد تنازعاً يوماً من أجل الحلاوة الطحينية أو شيء من هذا القبيل ؟

وفكر أحمد لحظة . ثم قال :

— بلى . في الخدمة كنا نتزاحم ولعلنا نتحاسد على

الحذاء الأفضل . والقميص الأجد . وربما على النصيب الأكبر من اللحم .

قال الشمام بانتصار يعوزه الزهو :

ـ هذا هو . الميناء كما هي الحال في أي مكان آخر . الناس فيه لايفرطون بما يعتبرونه حقهم المنزل . الميناء ملكيات . شغيلة البواخر لهم ملكيتهم . وجماعة المواعين لهم ملكيتهم . والبرّيزة(١) لهم ملكيتهم . لقد أنشأ كل من هؤلاء حدوده وأقام فوقها علاماته الخاصة ثم حظّر الاقتراب منها .

فقال أحمد بتصميم :

ـ المحاصة من حقي أنا أيضاً .

فرد الشمام وقد برز من عينيه انعكاس زجاجي أكثر وضوحاً منه في أي وقت مضى :

ـ قد يكون ماتقوله صحيح.ولكن كيف ستثبت لنفسك هذا الحق ؟ لقد كنت غائباً وقت توزيع الغنائم . وها أنت عدت . ولكن لاكعك بعد العرس .

وتوقف الشمام برهة . وبدا متردداً قبل أن يقول :

(١) البريزة : عمال شحن وتفريغ الشاحنات .

— طيب أنا لااعتراض لدي أن تصير محاصاً . لكني لاأستطيع أن أجعلك محاصاً .

وبانت الدهشة في عيني أحمد :

— لاتستطيع ؟ هل تريدني أن أصدق ذلك ؟

قال الشمام :

— أنا لست مطلق اليد في الفرقة . حاول أن تفهم ذلك . أنا واحد من أربعين . قد يبدو لك ذلك غريباً . ولكنه الحقيقة . أنا لاأستطيع أن أفعل شيئاً لايرغب فيه الآخرون .

وفكر أحمد « ليس هذا بالرجل الذي تشد به ظهرك ياأحمد » . وعزا ضعفه إلى وضعه المتقلقل في الفرقة في الآونة الأخيرة . لكنه احترم في نفس الوقت صراحته . ولم يراوده الشك في صدق لهجته .

كان ثمة في شخصية الشمام — إذا ماتخلى عن الانقياد إلى ايحاءات أنفه — عنصر يجعله محبباً إلى النفس .. كان رجلاً شعبياً ، في طباعه بقايا من مروءة الحواري القديمة . وكان إذا ماترك نفسه على سجيتها يخلف انطباعاً بأن مايضعه بين يديك بالقول أو بالفعل هو أقصى مايقدر على عمله .

تساءل أحمد :

ـ وماذا بشأن الآخرين ؟

وأشعل الشمام سيجارة ثم أطلق دخان نفس الإشعال الأول . ورطب حلقه الجاف برشفة شاي . كان ثمة في مكان ما من الطاولة قدح فيه بقية من شاي كثيف اللون . ذلك القدح الذي كثيراً مايشاهد عن يمين الشمام إن في المقهى أو في المكتب . كان يبدو للوهلة الأولى ، لانسان بسيط النظر إنه قد نحّي ، وإن صاحبه قد زهد فيه . لكنه سرعان مايقلع عن اعتقاده عند مايرى يد الشمام تمتد إليه من وقت لآخر .

وللحظة بدا الشمام متردداً . ثم اندفع يقول كأنما أراد أن ينتهي بأسرع مايستطيع من الموضوع الذي رأى نفسه فجأة يخوض فيه .

ـ لقد ضربوا نطاقاً حول الفرقة منذ زمن .

ـ نطاقاً ؟

ردد أحمد بتشتت واضح .

قال الشمام :

ـ هذه هي الحقيقة . لقد ضربوا نطاقاً لأن الفرقة تحملت فوق طاقتها . ويقولون في الوقت الذي حافظت فيه الفرق الأخرى على عدد أعضائها الأصلي ، إرتفع

العدد في فرقتنا إلى أربعين خمسين عضواً . كان بودي أن أضمك إلى الفرقة . لكن الوضع كما ترى .

وهمهم رعد مختنق بعيد في مكان ما من السماء . فمد الشمام بصره عبر باب القبو إلى أرض الشارع . وفيما انصرف يستطلع مدى غزارة المطر ليختبر شدته كي ينطلق خارجاً . فيما راح يفعل ذلك ران صمت عميق على أحمد كأنما دهمته نازلة فجمد في مكانه . كانت يده اليمنى تستند بنصف إرادة على الطاولة المعدنية . في حين استقرت اليسرى بإهمال في حجره .

كانت عيناه مثبتتين على عقب سيجارة يحترق على مهل . كان ثمة عمود دخان رفيع ومستقيم بطول قلم رصاصي يتصاعد من العقب ، ثم ينشر بعد ذلك حول نفسه مظلة كمظلة الفطر .

واستغل فكر أحمد السكون الذي حلّ فجأة على جسد صاحبه فراح ينط ويتواثب كالدوري في غير ما مكان محدد .

ونهض الشمام بعد أن دفع بيده درجاً في الطاولة المعدنية فغيبه داخلها،وقد أفصحت حركته تلك أبلغ من أي كلام عن اعلان تأهبه للانصراف . وبنهوض الشمام

اجفل الدوري وعادت الحياة إلى احمد فاستوى واقفاً بدوره .

ونظر الشمام إلى احمد الذي ما لبث أن بادله النظر. وتقابلت عيونهما لحظة ، لحظة طويلة متفرسة وحافلة . ثم قال الشمام :

ــ بسيطة اخي احمد . أهمل الموضوع الآن على الاقل . عسى بعد انتخابات الرياس . انت تدري ما يجري في فرقتي . علّ الوضع يصير افضل .

وسار الشمام باتجاه باب القبو . فسار احمد إلى جانبه في حركة تكاد أن تكون مسلوبة الارادة ، وقد عاد إليه ذلك الشيء الغليظ الذي احس به في حلقه يوماً . لكنه في هذه المرة كان مراً ايضاً إلى جانب كونه غليظاً فظاً . ووقف عثرة دون الحركة الحرة والعفوية لسيل الكلمات المتفجرة التي تدافعت على لسانه في فوضى واضطراب لتأخذ طريقها إلى اذني الشمام . تلك الكلمات التي آثر أحمد في آخر لحظة أن يمسك بها . وقد جرب لثانية أن يحرك لسانه بالكلام فخيل إليه أن شيئاً كان يقف على اهبة الاستعداد ليخرج مع الكلمات . أن مجرد التفكير في الحال التي سيكون عليها فيما لوأفلت لسانه بالكلام جعله

يؤثر الصمت . كان يشعر انه في اللحظة التي سيفتح فيها فمه سيفرقع شيء في داخله . واخلد إلى الصمت . وفي غفلة من عين ذاته التقط طرف شفته بين اسنانه وعضها .

وفي وسط الشارع افترق الرجلان دونما كلمة وداع . كان ثمة رذاذ يتساقط خفيفاً خفيفاً . وبينا راح الشمام يشيع احمد بنظره وهو ماض في سبيله يخترق شبكة الرذاذ ويقطع خيوطها الواهية بمنكبيه القويين المشدودين همس الشمام بصوت مسموع في رنة غضب :

– ليسمعها من غيري . لا أحب حمل خبر السوء . نحن قذرون .

*

اشرقت الشمس بعد إمطار ايام ثلاثة . وهبت على الشاطىء نسمات لطاف لتهمس للارض ، للعصافير ، للاشجار أن الشتاء ولى وأقبل اذار . وعبرت السماء بعض الغيمات . لكنها تباطأت قليلا فوق الميناء لترقب ما يجري هناك قبل أن تواصل طريقها باتجاه الشرق .

وكان ما يجري في الميناء كما هو الحال في كل يوم . الجري الصراخ اللهاث الضجيج السرقات التهريب الصيد الدسائس الأشراك الصرير المؤامرات والاستغلال . نفس ما يجري كل يوم تحت عين الشمس باستثناء حادث صغير جرى لاحمد . لقد جرى ، بالضبط ، عندما وزع مرزوق نديم رئيس الشغيلة في باخرة القطن ادوار العمال في الصباح . لقد وقف رئيس الشغيلة بين العمال بصورة تبدو لاحمد الآن مصطنعة تماماً . كان يحمل بيده ورقة راح يقرأ فيها اسماء العمال مسنداً إلى كل منهم عملاً . كان يقرأ بصعوبة وكان يحرف في حركات الكلمات ما شاء له المامه البسيط في اصول القراءة الاولية .

حتى انه عندما وصل إلى اسم احمد (وكانت كنيته المُخلّص) قرأه احمد المَخْلِص . ولم تكن قراءة اسم احمد المُخلّص الخاطئة هي ذلك الحادث الصغير الذي وقع للفتى . كلا . كان شيئاً غير ذلك . انه تبديل موضع عمله . لقد نُقل من عامل رافعة إلى عامل عنبر . عامل في كلا الحالين . لكن النقل كان ذا مغزى ودلالة حمل إليه ريحاً غير طيبة . وقد كان من الممكن أن يكون النقل امراً عادياً لا يحمل في طياته بذور الشك . لو أن مرزوق نديم جاء ، كما فكر احمد ، وقال : « أخي احمد انزل اليوم إلى العنبر ، هناك نقص في العنبرجية الأكفاء » . لكن عملية النقل على الشكل الذي حدثت فيه كانت شيئاً غير ذلك . وقد تمت بصورة مفتعلة تماماً وعلى نحو يدعو إلى التأمل . كانت شيئاً أعد من قبل كما خطر لأحمد فيما بعد .

لقد وقف مرزوق وقرأ بصوت عال : « احمد المَخْلِص عنبرجي » .

فتساءل احمد باستغراب :

— عنبرجي ؟ لماذا ؟

فقال مرزوق :

— لا أدري ، هكذا جاء التوزيع من البر .

شعر احمد بالغضب . لكنه لجم غضبه قبل أن يجمح وقال :

— من وضع هذا التوزيع ؟

فقال مرزوق بسخرية مبطنة :

— الباب العالي .

ثم مستدركاً :

— ومن يكون غير ابي لهب ؟

وصهل الغضب . استوى على قائمتين . توفرت اذناه وصهل . لكن « احمد » شد لجامه . طز كاد أن يقول . اول كلمة قفزت إلى لسانه . غير انه قال

— لكن لماذا ؟

قال مرزوق :

— لست إدري . سله انت .

وعلى جانب تململ حيران عبد الواحد في وقفته . كان تململه اول علامة عن بدء تحفزه للكلام . لقد رأى إلى الغضب كيف يتجمع وينمو في عيني احمد ، فبادر إلى قطفه قبل أن يزهر .

قال موجها الكلام إلى احمد :

— ما شأنك انت اخي احمد في ذلك ؟ هذا ليس اسمك .

فنظر إليه مرزوق متسائلاً . بينما تابع حيران :

— حسناً ! لقد جاء في جدول التوزيع احمد المَخْلصِ، بينما اسم صاحبنا احمد المُخَلّص .

قال مرزوق ببلاهة :

— وما الفارق ؟

قال حيران :

— في الشدة شد الاسم فيصبح اسم صاحبنا .

فقال مرزوق ببلاهة أكثر :

— وكيف اشد الاسم ؟

قال حيران :

— قل مخلّص بدلا من مخلِص

ورنا حيران من طرف عينه إلى وجه احمد . كانت اسارير وجهه قد ارتخت قليلاً وزهرة الغضب قد خفت بريقها في عينيه وهو يتابع المحاورة الطريفة بين حيران ومرزوق . كان حيران يهتبل الفرص ليندفع احياناً وراء كلمة أو عبارة وردت في حديث ما وروداً عابراً فيشبعها

شرحاً وتفلسفاً . لم يكن هناك من سبب معقول لهذا السلوك سوى انه كان يرمي إلى ابراز مواهبه الخاصة بين أناس لم يصيبوا من العلم قسطاً . اناس يفوقونه في النفوذ والمسؤولية وقوة العضل . وهو الرجل النكرة ، الضعيف البنية ، الذي يحمل نظارتين طبيتين فوق عينيه . وكان العمال يعاملونه بشيء من الاحترام الممزوج بالسخرية احياناً ، حتى انهم لقبوه بالدكتور . اما لماذا اطلقوا عليه هذا اللقب (الدكتور) فربما لسفسطته . أو بسبب التلازم الدائم بين النظارتين وصاحبهما . وربما بسبب الاثنين معاً .

– لكن يادكتور ما زلت لا ارى فرقاً بين الكلمتين .

قال مرزوق ذلك . وقد نطق كلمة دكتور بطريقة لم تجسد فيها السخرية كما جسدت الآن .

وحرك حيران رأسه حركة خاصة . وعندما لاحظ انه استطاع أن يلفت انتباه احمد بحركته تلك غمزه بعينه .

قال حيران :

– لنقفل الحديث في الموضوع اذن ما دمت لا ترى فرقاً . جماعة بقر . خسارة الجهد فيكم .

وضحك العمال الذين كانوا قد تحلقوا حول مرزوق

لتلقي اوامر العمل . لقد تعودوا سماع امثال ذلك وغيره من حيران . لا سيما عندما يلوح في الجو انه في طريقه ليستعرض عضلاته التاريخية . كان عادة يفتتح الحرب بقوله : «او باش . شجرة ملعونة . يأكلون اللحم النيء » .

لقد سأله فضولي مرة « وكيف نأكل اللحم النيء؟ ». اجابه « في الكبة » . فرد عليه الرجل « ولكننا نشوي الكبة » فقال له حيران « ما رأيك في الكبة غير المشوية ؟ » . فسكت الرجل ولم ينطق بحرف . اما حيران فلم يسكت وافاض قائلاً « تاريخ حافل والحمد لله . قتل وصلب وحرق وتعليق رؤوس » .

واقترب حيران من احمد في الوقت الذي بدأ فيه العمال ينفضون من حول مرزوق ، فأمسك ذراعه وضغطه برفق . نظر إليه احمد فاقتاده حيران . وكان لا يزال يمسك بذراعه ، حتى وقفا بجانب سور الباخرة من جهة الغرب .

قال احمد :

— ماذا هناك ؟

لقد شعر أن في الجو شيئاً . استشف ذلك من حركات حيران المريبة .

قال حيران :

ــ لقد كاد يحدث ما توقعت .

فتساءل احمد وقد ازداد فضوله .

ــ ماذا توقعت ؟

فرد حيران :

ــ أن تغضب .

ردد احمد :

ــ أن اغضب ؟

قال حيران :

ــ نعم من انزالك إلى العنبر

ونظر احمد في عيني حيران .

ــ أنت على علم بالامر اذن ؟

قال حيران :

ــ تقريباً .

قال احمد وهو لا يزال ينظر في عينيه :

ــ كيف عرفت ذلك ؟

قال حيران :

ــ بوسائلي الخاصة .

مركزاً على ضمير المتكلم ، ناطقاً ذلك بطريقة توحي بخطورة مضخمة مما افقدها شيئاً من جديتها .

فتساءل احمد وقد حول نظره عن عيني محدثه ومد بصره بعيداً باتجاه الافق :

— لماذا أنزلت إلى العنبر ؟

قال حيران :

— لعلك تهدأ .

ردد أحمد :

— اهدأ ؟ هو عقاب اذن ؟

قال حيران :

— هم لا يسمونه عقاباً . لكنهم يريدون أن يهدئوك . يهدفون إلى تهدئتك بالعمل .

قال احمد :

— اليس الشغل وراء الروافع عملاً ؟

— هو عمل بالتأكيد . لكنه يترك لك فسحة من الوقت للتحرك على ظهر البواخر . انت تجلس مع العمال أكثر مما ينبغي .

فتساءل احمد وقد التبس عليه الامر في الوقت الذي حسب انه وضع يده على سر هذا النقل .

ــ واذا جلست مع العمال . ما الغريب في ذلك ؟

قال حيران وقد شعر انه وصل إلى النقطة التي لا مفر بعدها من مفاتحة احمد بالهدف الحقيقي لابعاده عن الروافع :

ــ حسناً . هم يعتقدون انك تحرض العمال ضدهم . تجلس مع المياومين . تدخن معهم . تأكل من زواداتهم . تمازحهم . تنتقل من حلقة إلى حلقة . تتكلم عن الاستغلال والاعمال الاضافية . تفعل كأيام زمان . تنتحي بهذا وتنفرد بذاك . تؤجج الغضب في صدور الناس وتفتح عيونهم .

قال احمد بحسم :

ــ لم اقل إلا ما اعتقدته صواباً

قال حيران :

ــ ليس المهم أن تفعل ما تعتقده صواباً . المهم ما يريده الآخرون . حسناً . هم لا يريدونك أن تفعل . لا يريدون أن تفتح عيون احد من الناس .

فقال احمد ساخراً :

ــ لم يكن هناك تحريض على شيء . انت تعلم . لم يعدُ الامر أن يكون احاديث عابرة لقطع الوقت .

قال حيران :

— هذا هو . الوقت الذي تقضيه في الكلام يريدون أن تقضيه في شيء آخر . حسنا انهم يريدون أن يوفروا عليك وعلى انفسهم المتاعب التي قد تنجم يوماً عن الخوض في مثل هذه المسائل .

ومرت فترة صمت تعلقت فيها عينا احمد بنورس يحوم في الجو .

واضاف حيران بعد ان بدا لبرهة متردداً حاول فيها أن ينفذ إلى مشاعر احمد قبل أن يتابع :

— انهم متضايقون من حكاية الاسبرين .

فقال احمد بمرارة :

— هل وصلتهم هذه ايضاً ؟ ماذا يضايقهم فيها ؟

فقال حيران وهو يعيد نظارتيه اللتين انزلقتا قليلا ، إلى مكانهما المعتاد من انفه :

— وقد وصلتهم بصورة مغايرة تماماً . الرواية الجديدة تقول أنك ضربت الصيدلي واخذت منه العلبة عنوة واعطيتها للرجل المسن المفلس . لقد تضايق ابو لهب من هذه الحادثة كثيراً وقال : انها تشكل سابقة خطيرة .

قال احمد بحيرة :

ـ لكن ما علاقة هذه الحادثة بالميناء ؟ انا لا استطيع أن افهم .

فقال حيران برفق :

ـ كيف احمد وانت سيد الفاهمين . يحدث امر في مكان ما من العالم فيتعالى صداه في مكان آخر . لم تعد الدنيا كما كانت قبلاً . أمسى العالم مثل الطبل . تضربه في مكان فيضج العالم كله . وما يجري في البلد يلقى صداه في الميناء . وما يحدث في الميناء يتابعه الناس في البلد . زمان ، عندما سارت المظاهرة في البلد ، سار معها الناس وصفقوا لها وهتفوا . وتابعوا مجريات الامور بقلوبهم واعصابهم . وانت تذكر كيف جاء في تلك الايام شباب طيبون لا نعرفهم وقالوا : « امضوا في سبيلكم وليكن الله معكم » . وقدموا لنا مالاً جمعوه بالمناديل من افراد الشعب . وانت احمد سيد الفاهمين . تعلم انه ما من حادث منعزل . كل حادث يتعلق بشكل او بآخر بحادث غيره . بالامس كان الصيدلي ، وغداً ابو لهب او غيره من المحاصين . بالامس من اجل الرجل المسن المفلس ، وغداً من اجل المياومين . هكذا ينظر المحاصون إلى الامر . « الغابة يشعلها عود ثقاب » . قال ابو لهب . وانت احمد سيد الفاهمين .

ولاح تشتت في عيني احمد وزاغت نظراته . وللحظة بدا له المستقبل غامضاً .والعالم لا منطقي يعجز عن فهمه. عالم يحكمه اناس يخالهم في وقت بسطاء طيبون . كتاب مفتوح . سطور مقروءة . جدول تلتمع حصباؤه . فإذا هم في وقت آخر اشخاص آخرون . غرباء . عصيون على الفهم .

وحمل عينيه إلى حيران . وبهدوء وتؤدة همس بحرقة :

— لماذا ؟ اني عاجز عن الفهم .

وابتسم حيران ابتسامة شاحبة هازئة غامضة . وعمد إلى التاريخ يصب عليه غضبه شأنه في الاوقات التي يكون فيها برماً ساخطاً على الاوضاع . وحين تعجز فلسفته الخاصة عن الحكم على الامور . فقال :

— شجرة ملعونة . احفاد اوفياء نحن . فرخ البط عوام . لماذا نفى عثمان ابا ذر إلى الصحراء؟ ولماذا صلب ابن الزبير ؟

ولكن التاريخ شيء بعيد . ميت . مدفون في بطون الكتب .وأحمد لايجد ان ثمة أية علاقة بينه وبين التاريخ . أية صلة بين مايعانيه الآن ومايستطيع التاريخ أن يقدمه له . ولقد صم أذنيه في نفس اللحظة التي ألقى فيها سؤاله

« لماذا » . لم تكن لماذا تبحث عن جواب في الخارج . كانت شكوى . كانت نجوى . والنجوى تكفي نفسها بنفسها . تطعم من شحمها ولحمها . تقوم بأود نفسها . لكنها شكوى طفحت بها نفسه ففاض في لحظة بها لسانه .

وتظل الأذنان منطويتين مثل بقية الحواس ، مغلقتين دون سماع أي تعليل لايتعلق بمشكلة أحمد الراهنة . ومشكلة أحمد عنبر ومياومة ومشاعر إنسانية ومحاصة وأبو لهب . لماذا أبو لهب الآن ؟ تساءل أحمد في سره . من دون رؤساء الفرق الآخرين . رأس الأفعى هو . خصمه هو . كيف ؟ لماذا ؟ لايدري لكنه شيء يحسه في قلبه . أذكاهم وأخبثهم وأقواهم . ألانه أقواهم يشعر أنه خصمه الحقيقي ؟ كلا . كلا . أبو لهب لايتعبك في البحث عن الدليل . قال أحمد لنفسه . هو يقدم إليك الدليل. ذو القرنين هو . وصاحب الوزنين . زاد وزنه حتى كاد يتفتق جلده . صار أبو لهبين . صار ثلاثة.أربعة . توزع في المحاصين . ثم أعادوا هم تركيبه فكان رمزاً للمتسلطين الجدد . قاد في الماضي . فكر أحمد . ويقود الآن في السر والعلن حسب مايقتضي الحال . أعرفك أنا. قال أحمد . شجاع أمام الجبناء . وجبان أمام الشجعان .

وتنحنح حيران . قال :

ــ والآن ماذا تنوي أن تفعل ؟

ورفع أحمد رأسه من أعماق ذاته . كانت نظراته لاتزال أبعد ماتكون عن التركيز . قلقة متعبة وأسيانة . قال :

ــ لست أدري .

واحترم حيران قلق زميله فصمت ثم انحنى فاستند بمرفقيه على سور الباخرة ونظر بعيداً .

كان البحر قطعة رخام لامعة صقيلة زرقاء . ومثله في اللمعان والصقل والزرقة كانت السماء . كأنما كان الاثنان في يوم من الأيام شيئاً واحداً . وفي لحظة انفلق ذلك الشيء كما تنفلق المحارة فصار الشيء الواحد اثنين ، طبقتين منفرجتين . لكن ملتصقتين هناك في مكان منهما . وما يحدث في احدهما ينعكس في الآخر ، لوناً وزرقة ولمعاناً وصقلاً .

ومن بعيد سحب أحمد بصره فالتقطه نورس على مسافة عشرين متراً كان يحوم قريباً من سطح الماء . لقد راح يطير طيراناً أفقياً . دار في رقعة محدودة لبعض الوقت . وبعدها ارتفع قليلاً . طار في دورات تصغر أو تكبر . هابطاً أو صاعداً . أخيراً انزلق في الفضاء . بسط جناحيه وانزلق .وحين اقترب من الماء خفف سرعته . حام في

الهواء لحظة أو لحظتين . وبسرعة غمس رأسه في الماء . ثم ارتفع يحمل في منقاره سمكة .

وهتف حيران الذي كان يلاحق النورس بدوره ثانية بثانية . هتف بفرح :

ــ لقد صاد سمكة . انظر أحمد صاد النورس سمكة وحق الله .

ورد أحمد على صديقه بابتسامة . اكتفى بالرد عليه بابتسامة . لكنه همس لنفسه :

ــ إما صائد أو مصاد . في الميناء كما في البحر . إما صائد وإما مصاد . ولاخيار لك ..

ومن الخلف صاح رئيس الشغيلة :

ــ المواعين وصلت ياأولاد . إلى العمل .

وساد هرج . ماجت الباخرة بالحركة . وتفرق العمال هنا وهناك . إلى الروافع . إلى العنابر . إلى سور الباخرة لتناول مدّات المواعين . ونزل أحمد إلى العنبر مع النازلين .

*

لم يكن أحمد يحتاج إلى أي رافد جديد ليرتفع منسوب الغضب عنده. فحتى الجليد الذي ظل إلى ماقبل الساعات الأخيرة منيعاً ناصعاً يتلألأ في القمة قد ذاب هو الآخر . ولقد أصبح أحمد خلال كل اللحظات التالية التي قضاها في عمله الجديد في العنبر ان يقيم الحواجز كيلا ينفلت غضبه . هذا الغضب الذي كانت تذكيه نظرة محاص . أو ضحكته أو التفاتة منه ذات مغزى أو تعليق يتلفظ به . وكان يردد « كل شيء مليح في وقته » .

وفي لحظة أقترب منه حيران ليعلن أن عمالاً قد جاؤوا من باخرة الشعير للمؤازرة . فأرسل تنهيدة وفكر « لاشك أنني كنت أعمى فلم أرهم على حقيقتهم » . قال عقله ذلك في الوقت الذي كانت يداه تعالجان بالشرشور مع ثلاثة عمال آخرين بالة قطن لرصفها إلى جانب مثيلاتها من البالات .

وماهي إلا لحظات حتى أطل رأس من أعلى العنبر وقد كور صاحبه يديه حول فمه وصاح بأعلى صوته :

ـ انتهت الماعونة . إلى التنفس ياأولاد قبل أن تصل ماعونة جديدة .

وعلق العمال شراشيرهم في نطقهم وبدأوا يصعدون سلماً جديدياً في حين تناول أحمد سترته ونفضها قبل أن يشرع في ارتدائها . وفيما كان يفعل ذلك قال حيران الذي كان يقف إلى جواره :

ـ التنفس : اللعنة على هذه الكلمة .

فتساءل أحمد :

ـ مالها هذه الكلمة ؟

قال حيران :

ـ حسناً ! ألا تذكرك بشيء ؟

قال أحمد وهو يولج يده اليسرى في كم سترته اليسرى :

ـ بلى . أظن بالسجن .

قال حيران :

ـ زرته يوماً لأمر ما . اللعنة . لقد قضيت هناك أوقاتاً لعينة .

قال أحمد :

— دخلته يوماً مع بعض الرفاق أيام الاصطدام مع أرباب العمل .

قال حيران :

— قال لي سجين ذات يوم . لماذا أنت مهموم . ماحكمك ؟ قلت سنة وبضعة أشهر . فقهقه وقال : أستطيع أن أنامها على رجل واحدة . وعندما سألته . وأنت ماحكمك ؟ ابتسم وقال : مؤبد . فقلت له : كيف تبتسم وأنت محكوم مؤبد ؟ قال : إنني لاأفقد الأمل .

وأضاف حيران :

— تصور أحمد .

— أتصور ماذا ؟

قال أحمد . وتقدم عدداً من الخطوات صوب السلم فتبعه حيران . كان الجميع قد صعدوا إلى ظهر الباخرة واحداً بعد الآخر ولم يبق سوى أحمد وحيران . تراجع احمد خطوة ثم دفع حيران بلطف ليأخذ طريقه إلى الأعلى قبله .

عندما صار حيران على ظهر الباخرة أطل برأسه من فوق العنبر وقال لأحمد :

ـ اصعد اخي احمد . في انتظارك مفاجأة : هنا بعض الاصحاب .

وتسلق احمد السلم على مهل . كان واضحاً انه لايريد ان يستعجل الصعود.ولم يستطع الوعد بالمفاجأة التي تنتظره في الأعلى ان يغريه بأيما اسراع .

حين أمسى احمد على ظهر الباخرة الفى ابراهيم والخال وابا الذهب . كانوا قد قدموا مع العمال الذين جيء بهم من باخرة الشعير للمؤازرة . تبادل احمد معهم التحية . شمل ابوالذهب أحمد بنظرة متأسفة اسيانة : ثم توقفت عيناه لحظة على الشرشور المعلق في زناره :

قال ابوالذهب :

ـ أراك تحمل شرشوراً . فعلوها معك إذن ؟

قال حيران :

ـ الشرشور ليس ملكه . لقد استعاره .

قال ابراهيم :

ـ اولاد العاهرات .

قال أحمد :

ـ ايه . سمعتم بالقصة اذن ؟

قال ابوالذهب :

— ومن لم يسمع بها ؟ لقد ملأت الميناء .

قال حيزان مازحاً :

— افرح ياشيخ احمد . صرت شخصية خطيرة .

وتساءل ابراهيم :

— لكن لماذا فعلوا ذلك ؟ انني لااستطيع ان افهم . الناس يتقدمون إلى الأمام . ينتقلون من عنبرجية إلى ونيشة . ومن ونيشة إلى ستيفا دورية .

فتنهد حيزان ملء صدره وقال :

— هل تريد ان تسمع رأيي ؟ انهم يريدون ان يحملوه على ترك العمل . انهم لايرغبون بوجوده في الميناء .

ولم يبد على ابراهيم انه قد فهم كثيراً . كانت قسمات وجهه لاتزال تحمل سيماء التفكير الذي انطوى عليه سؤاله عندما طرحه قبل قليل . وقد ولّد جواب حيزان لديه سؤالاً آخر فقال :

— لكن لماذا يرغبون ان يحملوه على ترك العمل في الميناء ؟

فقال جيران بشيء من نفاد الصبر ، اذ لم يكن يلوح أيما انشراح لقول مايقول :

ــ حسناً . هم يعتقدون انه يحمل افكاراً من نوع ما . انهم لايرغبون بوجود اصحاب الأفكار الهدامة في الميناء .

فردد إبراهيم بآلية :

ــ افكار هدامة ؟

كان يبدو له ان الحديث ينعقد لحظة بعد لحظة . وان الاجوبة التي يتلقاها على اسئلته تغلق عليه الفهم أكثر فأكثر بدلاً من ان تفتحه امامه .

واضاف جيران :

ــ هذا ماقاله ابولهب والمحاصون .

قال احمد في نفسه « كان ظني في محله اذن » . كان الجد بادياً على وجه احمد . كانت شفتاه تنطبقان باحكام ، وعيناه فيهما التماع .

وفي لحظة طار أحمد بجناح من خياله إلى الماضي . لسنتين او ثلاث سنوات خلت فوق باخرة ذرة بيضاء . طار بعين واذن ونصف فكر .

قال احمد لملاحظ العمال في باخرة الذرة البيضاء :

– « يجب ان تعفي محمد الطفران من العمل اليوم . الدماء تنزف من يده . مسكين جرح يده بالسكين عندما شق كيس الذرة .

قال الملاحظ :

– إذا اعفيته من العمل سأعفيه من اجر اليوم ايضاً . إما ان يشتغل ويأخذ اجراً . أو يمضي إلى البر دون أجر .

– ولكن هذا ليس عدلاً .

– احتفظ بأفكارك في رأسك . متى تتوقف عن حشر انفك في مثل هذه الأمور؟ انت تجلب لنفسك المتاعب.

– ولكن الدنيا حر والجرح ينزف .

– ولكن العمال أولاد كلب .ماادراني انه لم يتعمد ان يجرح يده ليعفى من العمل ؟ وحتى إذا كان صادقاً فأنا لااستطيع ان اعطله وادفع له . لأنه سيأتي يوم يجرح فيه عمال آخرون ايديهم ويقولون : لقد جرحت ايدينا فاعطنا اجرنا واعفنا من العمل » .

قال ابراهيم بغضب :

– أبولهب الكلب .

قال ابوالذهب :

ـ زمان كان هناك أربعة خمسة اغوات في الميناء . واليوم صاروا خمسمئة ستمئة . انصرف كل آغا بمئة كما تنصرف الليرة بمئة قرش . مات الاغوات الكبار في الميناء ذات يوم ، فخلفهم عدد لاحصر له من الاغوات الصغار .

ولاح في اقصى ممر الباخرة عاملان محاصان يتقدمان باتجاه الرجال المجتمعين . كانا يبدوان منهمكين في حديث ما كانا يقهقهان ويدخنان باستهتار . وكانت خطواتهما واشارات ايديهما تنضح بتعالي اولئك الذين اعتادوا ان ينظروا إلى أنفسهم كأصحاب الدار الاصليين . وان كل ماعداهم أجراء أو غرباء .

واقتربا اكثر فأكثر . ومع اقترابهما كان حفيف اجنحتهما المفرودة يرتفع . بينما يميل حديث الرجال الخمسة إلى الخفوت حتى انهم توقفوا عن الكلام عندما حاذياهم . وألقيا التحية من علٍ مواصلين مسيرهما المتغطرس تواكبهما اجنحتهما المنشورة لتملأ كل مكان تحل فيه .

وما ان ابتعدا حتى عادت للحديث روحه من جديد . وكان الخال أول المتكلمين . قال بارتباك ظاهر ولعله لاك السؤال كثيراً في فكره قبل ان يطرحه :

— ماهي الأفكار الهدامة احمد ؟

وابتسم احمد ابتسامة غامضة حافلة.وأصاخ ابراهيم بكليته لأنه اعتبر السؤال يعبر تماماً عما يجول في خاطره . في حين سارع حيران إلى القول :

— ان تتكلم عن العور في مدينة العوران .

واضاف احمد وقد اتسعت ابتسامته واشرقت عيناه بانشراح غير خاف :

— وان تحمل في يدك مرآة في مدينتهم .

فضحك الخال وقال ببساطة متناهية كأنه يقرر بديهية من البديهيات :

— العور لايحبون أن يروا إلى صورهم في المرايا .

وقال حيران :

— طيب اذن ايها الخال . اذا مررت بمدينتهم يوما فضع يدك على عينك .

وقال الخال بالبساطة نفسها وقد استعان بيديه ..

— لسوف اضع الاثنتين .

قال ابوالذهب :

— جبان .

قال الخال :

— لماذا ؟ انا لاقدرة لي على مقارعة العوران .

وقال ابوالذهب :

— مارأيك احمد ؟

قال احمد :

— لست ادري .

ثم ضاحكاً :

— من ناحيتي اذا مررت بها ذات يوم فلن اضع يدي.

نطق ذلك بنبرة تنطوي على الجد أكثر مما توحي به كلماته الظاهرية .

وعقب ابراهيم بعفوية ونزق :

— ولاأنا ايضاً .

وقال ابوالذهب :

— هيئا نفسيكما اذن لحرب مع العوران انتما فيها الخاسران حتماً .

ثم استدرك ضاحكاً :

— وانت ياخيران ؟

قال خيران بتسليم لكن دون ان يبلغ حد اليأس :

ـ انا من المغضوب عليهم . نقطتي حمراء .

وصمت لحظة . لكنه عاد فأضاف بهدوء :

ـ لقد دخلت مدينة العور غير مرة . وكانت بيدي مرآة باستمرار . وقد اخرجت منها ، مع مرآتي ، مرة بعد مرة . ان مدن العور كثيرة في العالم . بل انها اكثر مما تتصورون يارفاق. واذا قدر لي ان ادخلها مرة أخرى، فلست أظن أنني سأدخلها فارغ اليدين .

وتلامح على شفتي احمد طيف ابتسامة . بل انه ابتسم فعلاً وهو ينظر إلى بعيد .

وصاح ملاحظ العمال وهو يطوف في ممرات الباخرة :

ـ مواعين القطن وصلت يااولاد . شغيلة المؤازرة إلى العنبر (٥) . شغيلة العنبر (٤) إلى عنبر هم .

وعلى جنب الباخرة الشرقي كان ثمة لنش يقترب بهدوء . يقترب ويناور يقطر ثلاثة مواعين محملة ببالات القطن ليوزعها على عنابر الباخرة .

ومال أحمد على ابراهيم وسرَّ في اذنه شيئاً قبل ان ينطلق هذا الأخير وبقية عمال المؤازرة إلى العنبر ٥ ؛ فهمس له ابراهيم على اثر ذلك :

ـ حسناً ! سألقاك بعد العمل في مقهى الانشراح .

ولفت انتباه احمد اهتمام حيران بشيء ما في البحر . فلاحق نظراته . كان هناك نورس يحوم فوق سطح الماء . وماهي إلا لحظات حتى انقض النورس وغمس رأسه في الماء ثم ارتفع وقد تدلت من منقاره سمكة .

ولحظة تحرك أحمد وحيران ليتخذا طريقهما إلى عنبرهما قال حيران :

ـ ترى اين يلتهمها ؟ اعني عندما يصيد نورس سمكة . هل يأكلها في الجو ام يمضي بها إلى الشاطىء ويأكلها هناك ؟

قال احمد ضاحكاً :

ـ لماذا لاتسأل النورس ؟

فقال حيران ضاحكاً بدوره :

ـ ولكن النورس لايتكلم .

قال احمد :

ـ طيب . سأخبرك عندما سأصير نورساً . ولكن النورس ، قبل كل شيء ، لايأكل انما يبتلع ابتلاعاً . لقد فتحت فم نورس يوماً فلم اجد فيه سناً واحداً .

وقد عجبت كيف يستطيع النورس وهو لايملك اسناناً ان يبلع سمكة فمها ملآن بالاسنان .

فقال حيران :

— حسناً . اعتقد ان النورس يختار الاسماك الصغيرة لصيده .

وحالما شغر المكان الذي كان يشغله الأشخاص الخمسة قبل قليل برز علي ابوالندم من خلف منفذ هواء حديدي . وراح يلاحق احمد وحيران بناظريه وهما يبتعدان . كان وجهه فحمياً كدراً كعادته وقد انفرجت شفتاه عن ابتسامة لها لون اسنانه الصفراء . وكانت عيناه تنضحان بالخسة والنذالة .

❋

وفي الليل من نفس اليوم ذهب احمد إلى مقهى الانشراح متأخراً . كان التعب بادياً عليه . وحالما استقر في مجلسه قال له ابراهيم بلهفة :

— لقد تأخرت احمد . خير ان شاء الله .

فقال احمد باعياء :

— كان ابي مريضاً . لقد اصيب ببرد فتدهورت صحته العامة .

قال ابراهيم :

— جئت في وقت كنت اتردد فيه بالنهوض للمرور على البيت والسؤال عنك . قلقت كثيراً حتى خشيت ان يكون قد اصابك مكروه . قلت لنفسي « قم ياابراهيم إلى البيت واسأل عنه » . لم يكن من عادتك ان تتأخر عن ميعاد . لكنني فكرت انني قد أسلك طريقاً بينما تسلك انت طريقاً آخر فترددت . كنت اقول لنفسي باستمرار « قد يأتي بعد لحظة » . وهكذا كان يمضي الوقت دقيقة بعد دقيقة .

طلب ابراهيم من نادل المقهى ان يأتي بقدح شاي لأحمد . قال احمد بعد أن تنهد :

ــ بعد العمل عدت إلى البيت لاستبدل ملابسي والحق بك إلى المقهى كما اتفقنا لكنني وجدت والدي مريضاً ووصفة تنتظرني لاصرفها من الصيدلية . كانوا قد استحضروا له طبيباً هناك في البيت عندما رأوا تدهور حالته . قال الطبيب : إنها نزلة وافدة ويخشى من حدوث لمكسة .

وضغط احمد على صدغيه بابهامه والوسطى من اصابعه . وفكر ابراهيم ان يسأله « معك دراهم احمد ؟ » . لكنه قال :

ــ هل صرفت الوصفة احمد ؟

وسحب احمد اصبعيه فوق صدغيه بنفس حركته الضاغطة قبل ان يجيب :

ــ صرفتها .

اقبل نادل المقهى بقدح الشاي ووضعه على تربيزة حديد امام احمد . ملأ ابراهيم ملعقة صغيرة سكراً سكبها في الشاي ثم حركه وقال :

ــ اشرب احمد . قد يفيدك قليلاً .

واشعل له سيجارة من تبغه قدمها له . تناول احمد السيجارة من ابراهيم . رشف رشفتين ثلاثاً من الشاي ثم اخذ نفساً عميقاً من سيجارته . فكر ابراهيم مرة أخرى ان يسأل « معك دراهم احمد ؟ » . لكنه قال في اللحظة الأخيرة :

ـ هل تحتاج إلى شيء احمد ؟

وواتته شحنة جرأة مفاجئة فأسعفه لسانه :

ـ اعني يلزمك دراهم ؟

اخذ احمد نفساً آخر من سيجارته . ونظر ملياً في وجه ابراهيم ثم انفلت في ضحكة صغ ة غريبة مباغتة .

ـ كلا . أوليس الان على الأقل .

ومس ابراهيم يد احمد برفق :

ـ انا اخوك .

ونظر احمد في وجه ابراهيم . في عينيه . ثم اندفع يقول في انفعال وحزن :

ـ نحن لانستطيع ان نفرح فرحاً صغيراً جداً . بعد الذي جرى اليوم قلت لنفسي « طيب . على الرغم من كل

ما حدث نستطيع ان نشرب كأساً صغيراً هذا المساء » .
لقد راودتني افكار شيطانية . وكنت اخشى ان امضي الليل بمفردي . كان معي ما يكفي لبضعة كؤوس. تصور نحن لانشرب الا عندما نكون متكدرين . قلت : لعلي اهتدي الى ما ينبغي علي ان افعل ونحن نشرب كأساً . لقد ارتبك فكري اليوم . اختلط كل شيء . انعجن . كنت في طريقي لأغير ملابسي كي امر عليك ونمضي سوية الى مشرب ما . كنت واثقاً ان الاشياء ستتضح امامي بعد كأسين ثلاثة . ستنحل عقدة الالوان . سيبين الخيط الاسود من الابيض . سيعود للاشياء بريقها وللرأس صفاؤه . لكن المرض كان بالمرصاد . كان اسرع .استأثر بدراهم الفرح . اللعنة . وغداً يأتي على طعام الاولاد الصغار . رفع المرض رايته الصفراء في البيت من جديد . شكل ساريته. وانت تعمل باليومية . تشتغل اياماً وتعطل اياماً . والاولاد في البيت يلزمهم كتب . يلزمهم ملابس وخرجيات . وأنت تعمل باليومية . تعطل اياماً وتشتغل اياماً . وفوق ذلك انت مهدد بهذه الرزقة الصغيرة . بهذا العظم الذي بين يديك .

وتوقف عن الكلام . اخذ نفساً من سيجارته . حمل قدح الشاي الى فمه ثم اعاده الى موضعه بعد ان مس شفتيه

وطرف لسانه ليس غير . وامتص نفساً آخر من سيجارته. كانت في عينيه حيرة ذلك الطفل الذي استيقظ فجأة ليكتشف خلو جيوبه من القروش الكثيرة التي جمعها ، لتوه ، من الطريق في الحلم .وكانت في وجهه خيبته ايضاً . وود للحظة كما يفعل الطفل ان يغمض عينيه ليعاود الحلم أو ليهرب من الواقع الذي نطحه بقرنه .

قال ابراهيم :

– من كان يظن ذلك ؟

ونظر في وجه احمد . وحين لم ير في عينيه صدى لما يقول اوضح مراده قائلاً :

– من كان يتصور ان يصدر ذلك عنهم ؟

قال احمد بمرارة :

– انهم مدهشون . الناس . ابواب موصودة في وجهك لاتعرف ما وراءها . لكن في لحظة . في يوم . . زيبك . ينفتح الباب . فإذا انت ترى عجباً .

وقال ابراهيم بعد ان اشعل سيجارة :

– كنت احس . زمان . لست ادري كيف ، انهم كانوا كباراً وكانت كلماتهم صغيرة .

وقال احمد مصمماً وطعم المرارة واضح في فمه :

ـ الناس اسرار . مفاتيحها الزمن . او لعله المركز .. لست ادري .

ورشف ابراهيم رشفة شاي من قدح احمد . صدرت من الخلف ضوضاء . اصوات مختلطة بخبط على طاولة . تلفت كل من احمد وابراهيم الى الوراء . كان هناك زبونان يلعبان الورق . احدهما ضخم الجثة . وآخر حليق الرأس كث الشارب صغير الجسم. وكان يبدو من الورق الذي يحملانه بأيديهما ومن طريقة لعبهما عموماً طابع الباصرة . وكان يلوح من حركاتهما الناشطة انهما في سباق في شوطهما الاخير الذي سيقرر من منهما الفائز . وكان النادل في الجانب الثاني من المقهى يهيء صحافه وفناجينه وكؤوسه وغلاياته . يغسلها ثم يجففها ويعلقها في موضعها استعداداً للاغلاق .

قال احمد وقد انفلت بصره صوب النادل وراء الوجاق .

ـ انا لااشكو . لكن مع ذلك يبدو لي ان القضية غير عادلة .

قال ابراهيم :

ـ ماهو غير العادل أحمد ؟

قال احمد :

ـ ان يبقينا المحاصون خارج المحاصة .

قال ابراهيم بسخرية :

ـ وافرح في عبك اذا لم يكرهونا على ترك الميناء كما فعلوا مع ابي حنفي .

وابو حنفي رجل في الاربعين كان عاملاً محاصاً . يجهل القراءة والكتابة ، عنده خمسة اولاد شاء احدهم ان يمرض في ثاني يوم عيد الاضحى ، وكان يوم عمل لكثافة البواخر المتراكمة المرابطة في الميناء . ولم يستطع ابو حنفي العمل كالآخرين في ذلك اليوم لانشغاله بين الطبيب والبيت والصيدلية . فما كان من رئيس فرقته إلا أن عاقبه عقاباً غريباً لتخلفه عن العمل . لقد جعله يوقع ، بالحيلة ، على ورقة بيضاء ثم عمد رئيس الفرقة من ناحيته الى ملء الورقة بطلب يرجو فيه الاستقالة من العمل . وحين ادرك ابو حنفي اللعبة بكى كثيراً . لكن بعد فوات الاوان .

قال احمد باشفاق :

ـ مسكين . كنا في الجيش وقت الحادثة . يقولون انه لاب كثيراً خارج الميناء . وعندما لم يجد ما يعمله هناك ، عاد ليعمل بالمياومة .

قال ابراهيم :

– من يعمل في الميناء يوماً لايرغب ان يعمل في مهنة اخرى .

قال احمد :

– الميناء يغوي كالمرأة .إنه آسر مع أنه قاسٍ وقاتل أحياناً .

ومرت فترة صمت لم يسمع فيها سوى احتكاك الصحاف والكؤوس والملاعق في الداخل :

قال ابراهيم بأسى :

– يبدو لي ان المحاصة صارت شيئاً بعيداً عنا .

قال احمد وهو ينقل بصره بين المتباريين بالورق والنادل الذي بدأ يجفف المجلى بخرقة بعد ان انتهى من ترتيب غلاياته وفناجينه وصحافه واقداحه .

– أو تعتقد ذلك ؟

قال ابراهيم :

– ما رأيك أنت احمد ؟

قال احمد :

– لست ادري .

وانصلبت عيناه مرة ثانية على المتباريين اللذين راحا يحسبان نقاطهما وعامل المقهى .

وكرر :

ـ لست ادري . يبدو لي اننا لم نقم حتى اللحظة بعمل جاد من اجل المحاصة .

واعلن احد المتباريين انتصاره بجلبة وضوضاء وراح يسخر من خصمه ويزهو. كان المنتصر الرجل الحليق الصغير الجسم . وكانت مظاهرة الفوز على الرجل الضخم الذي انكمش في مقعده مثيرة للضحك .

قال ابراهيم :

ـ انتصر الحليق .

فهز احمد رأسه موافقاً . ونهض المتباريان واقفين استعداداً للانصراف . ومن الجهة الثانية طقطق النادل بمفاتيح المقهى متعمداً .

قال احمد وهو ينهض عن كرسيه :

ـ اعتقد انه ليس هناك سوى سبيل واحدة .

ونهض ابراهيم بدوره . فأمسى الرجلان واقفين كليهما وجهاً لوجه وعيناً بعين .

وتابع أحمد :

— غداً ابراهيم . يبدو لي انه يتعين علينا ان نفعل شيئاً . ينبغي ان نضع حداً لذلك.سوف اطلب جدياً من ابي لهب ان يجعلنا محاصين .

ومن داخل المقهى تقدم النادل بيده مفاتيحه المصلصلة ، وقد ألقى فوق كتفيه سترة الخروج •

* * *

ـ ماالخبر ؟

ـ ماالحكاية ؟

هكذا راح يتساءل المهرولون الذين جذبهم التجمع. بينما كانت الحلقة تتكاثف باستمرار في الساحة رقم (٥) من منطقة المرفأ .

كان الوقت صباحاً والسماء واطئة . وكانت برودة الجو قد جمدت الحياة فبدا الركون على كل شيء .. على الحمالين وسائقي الناقلات وعمال الموازين والكتبة والمأمورين والرافعات والمواعين والقاطرات والسفن ، وبدا كل مايتحرك وكأنه ليس راغباً في التحرك .

وكان في وسط الحلقة خمسة رجال لم يلتقوا مصادفة . كان هناك أحمد وابراهيم من ناحية . لقد بحثا عن أبي لهب منذ الصباح الباكر .. انتظراه في المكتب . لكنه لم يحضر . « ربما عنده سهرة في البحر » . قال أحمد وقتئذ فرد ابراهيم « عنده سهرة في البحر أم في البر ؟ » . كانت لعبارة « عنده سهرة في البحر » قصة .

كان أبو لهب قد درج منذ بعض الزمن على التأخر في الأصباح أحياناً ، تاركاً أمر العمل وتوزيعه لكاتب الفرقة . وكان تأخره هذا مثار تعليقات بين العمال بأن أبا لهب قد بطر فبدأ يلبط النعمة بقدمه . وقد ردّ أصدقاؤه في حينه بأن رجلاً مكافحاً كأبي لهب محال أن تبطره النعمة لأنه خرج من قلب الطبقة العاملة . ولولا المصادفة لبقي تأخره ، في الاصباح وتغيبه عن العمل ، موضع قيل وقال بشأن البطر والنعمة !. ولربما ذهب العمال ، من يدري ، في تكهناتهم مذاهب نأت بهم عن جادة الحق والصواب .

لقد حدثت ذات صباح مشادة بين عاملين من عمال الفرقة سُحبت فيها المدى وكاد يسقط ضحايا . وقد تأزم الموقف حتى عجز كاتب الفرقة عن حله مما اضطره إلى استدعاء أبي لهب من البيت لفض المشكل . فقالت زوجة أبي لهب للرجل الذي جاء في طلب زوجها : إنه لم يقض ليلته في البيت لأن عنده سهرة في البحر . وضحك الخبثاء حين نقل العامل ماقالته الزوجة وغمزوا معلقين : «عنده سهرة في البحر أم في البر ؟ » . ذلك أنه كانت قد سرت ، منذ وقت لاأحد يدري متى بدأ بالضبط ، لكنه بالتأكيد ليس قبل ان يصبح ابو لهب ريس فرقة ، سرت شائعة بين

العارفين ببواطن الامور أن لابي لهب عشيقة يتردد عليها .
ومنذ ذلك الحين درجت عبارة « عنده سهرة في البحر »
على ألسنة بعض العمال يعلقون بها على العامل المتأخر في
الحضور الى العمل .

وحين وزع العمال قبل ساعة من الزمن ونقلت
الدفعات الاولى الى البواخر تخلف احمد وابراهيم . لقد
استغرب حيران تصرف احمد آنذاك فسأله عن سبب تخلفه
هو وابراهيم . فقال له احمد : انني انتظر شخصاً .

ولم يبد على وجه حيران او ابي الذهب او الخال
اية امارة تدل على الاقتناع . بل لعله قد تلامح على وجوههم
ظل من الشك لحظة سأل حيران احمد مرة اخرى : «وماذا
بشأن ابراهيم ؟ » . فرد احمد عندئذ مازحاً « ليؤنسني كي
لااشعر بالملل » .

وفي الناحية الثانية من الحلقة كان هناك أبو لهب .
كان وجهه متعباً عليه تلك الآثار التي تنفرد بها الوجوه التي
اضناها الافراط والسهر الطويل . واما الرجلان الآخران
فمن عمال الفرقة وفتوتها . وكانا يظهران مع ابي لهب في
كل المناسبات والامكنة . وكانت الحاجة لوجودهما تتجلى
أكثر ماتتجلى في الظروف الحرجة . كانا يبدوان وكأنهما

ضرورة لابد منها . لقد وقف احدهما عن يمينه والآخر عن يساره . قال احمد ضاحكاً بعد ان ألقى تحية الصباح :

– ارى انه قد صار لك ملا كان حارسان .

فرد ابو لهب مازحاً :

– وجود الشياطين يستدعي اصطحاب الملائكة .

قال احمد :

– ولكن المثل يقول العكس .

قال ابو لهب :

– ليس كل ماتقوله الأمثال صحيحاً .

وفكر احمد ان يقطع هذه المقدمة . كان يرى انها تذهب به بعيداً عن غايته وأن ابا لهب خليق بأن ينفق النهار بمثل هذه المداورات . « ليس هناك من هو اشطر منه في هذا الميدان » . وقال ايضاً « كان ذكيا دائماً وطيباً » .

قال احمد :

– دعنا من الامثال ياريس . لنتركها جانباً . ماذا حدث بشأننا ؟ .

رد ابو لهب :

— لاجديد .

قال احمد :

— لماذا لاجديد ؟ لقد قدمنا استدعاء منذ بضعة اشهر .

وخطف نظرة من ابي لهب مالبثت ان انطلقت من تلك النقطة في رحلة شكلت قوساً شملت الحوض والسفن والرجال والرافعات والمواعين والبضائع بما فيها الخشب والحديد وزجاجات الأحماض والخيش ، وكل مايمكن ان يخطر في بال المرء في مرفأ من المرافيء وما لا يخطر . ثم عادت فاستقرت عليه ثانية .

قال ابو لهب :

— انتظر حتى يبت في الامر . الرأي للشركة .

فرد احمد على الفور :

— راجعنا الشركة ياريس . فقالت : الرأي للفرقة .

وقال ابراهيم بلا تمهيد وهو ينظر في وجوه المتحلقين الأقرب منه ، الذين استطاع ان يجذب انتباههم نحوه :

— لقد انهينا الخدمة الالزامية منذ بضعة اشهر . وهاقد مضت بضعة اشهر لانفعل فيها شيئاً حقيقياً . ان المرء لا يمكن ان يظل فترة طويلة بلا عمل .

سأله احد العمال المياومين :

— هل كانت الخدمة صعبة ؟

اجاب ابراهيم :

— ليس كثيراً . لكننا ونحن هناك اشتقنا الى العمل في الميناء . كنا نعد الثواني .

نظر ابو لهب حوله . كان هناك عدد كبير من عمال المياومة . حسناً يجب ان يكون حذراً في معاملته لاحمد. ان اي استفزار قد يستثير غضب المياومين .

خطر ذلك بسرعة لابي لهب . فقال برفق :

— انتما تعملان باليومية . طيب . لماذا لاتستمران في ذلك . لماذا لاتعملان باليومية ؟

فتساءل احمد :

— نعمل باليومية! لماذا ؟

— هناك تضخم في الفرقة .

قال ابو لهب دفعة واحدة . لقد همس لنفسه « ماذا يجدي الهروب ؟ الآن وليكن بعد ذلك مايكون . قل له الحقيقة . ولكن بلطف . قل له انك لاتريده في الفرقة . هيا قبل ان تفوت الفرصة . ماذا يوقفك ؟ هل

تخشاه ؟ ولكن احمد ليس كالآخرين . كلا . كلا . كلهم بدأوا هكذا . ثم انتهوا الى عمال مياومة » .

وقال ابراهيم :

– المياومون لايجدون عملاً دائماً . انهم يغربلون الهواء معظم وقتهم ويسبحون بحبوب القمح على الارصفة .

وفي الناحية الثانية رد احمد على ابي لهب :

– لسوف احمل رزقي معي الى الفرقة .

وهمس ابو لهب لنفسه « أهو ذنبي اذا كان بعيداً عند تشكيل الفرق . طيب . بدأت الفرقة بثلاثين عاملاً محاصاً . ثم ماذا ؟ واحد وثلاثون . اثنان وثلاثون . ثلاثة وثلاثون . اربعة وثلاثون . خمسة وثلاثون . ستة وثلاثون . سبعة وثلاثون . ثمانية وثلاثون . تسعة وثلاثون . اربعون . فكر قبل ان تفتح الباب من جديد » .

قال ابو لهب :

– كيف ؟ انت ترى ان الموسم كان رديئاً هذا العام .

فرد احمد :

– مهما يكن . هناك مايتلهى به عمال المحاصة دائماً . فتحت اضراسهم مايلوكونه باستمرار . لقد نزلت الى المبناء يوماً بعد يوم . ولكني لم اجد مأعمله بشكل دائم .

ان عامل المياومة اشبه بالصياد يلقي صنارته ثم ينتظر وينتظر حتى تأتي لحظة يتساءل فيها : لماذا نزل الى البحر ؟ هل أقفر من السمك حقاً ؟ هكذا ان شعور عامل المياومة شعور انسان يقتعد الرصيف العام .

ونفذ احد عمال المياومة برأسه من اطار الحلقة وقال :

— المرفأ ملك ام المحاصين .

وغمز عامل محاصة محاولاً ان يخفف الضغط المتواتر :

— وامك ملك المحاصين .

وعقب آخر ملفع الوجه :

— ان امه الكريمة لاتشتغل باليومية . بل تشتغل مقاطعة .

وقهقه البعض . واما الاخرون الذين يملكون نظراً اكثر نفاذاً . اما عمال الحصة القدماء الذين يعرفون المتقابلين ، فقد راحوا يرقبون تتطور الحوار وينظرون الى الامور نظرة اخرى .

قال ابو لهب :

— انت تعلم . لم تعد الاجور زهيدة كما كانت في

الماضي . . اننا ندفع لعامل اليومية اجراً طيباً . وساعات العمل امست اقل .

« هكذا اذن ؟ انكم تدفعون اجراً طيباً » . قال أحمد في نفسه ساخراً . ووخزته لهجة أبي لهب المتعالية . وانتصب الحاجز فجأة . وشعر احمد بالمرارة . وحاول ان يتخطى هذا الحاجز الذي انتصب امامه على غير توقع رغم احساسه القديم به ، وبأنه يزداد ارتفاعاً لحظة بعد لحظة .

ونفذ برأسه من بين الاسلاك وقد تمنى في سره ان يكون ماقدره ليس إلا وهماً :

– تعلم ان العمل اليومي لم يعد يلائمني .

وقال ابراهيم :

– ان والده ليس على مايرام .

قال احمد :

– ربما كان ذلك مجدياً بعض الشيء في الماضي ، لان الحال كانت غيرما هي الآن . ولأنه لم يكن هناك طريق آخر.

فرد ابو لهب :

– ولكن العمال المياومين يتقاضون اجراً خيالياً ولا يفضلهم المحاصون كثيراً .

وبلل احمد شفتيه المتيبستين . لقد أمسى الحاجز حقيقة . واحس ببرودة المعدن وصلابته :

– لقد نزلت الى المرفأ . نزلت . فماذا كانت النتيجة ؟ يوم عمل هنا بعد ثلاثة ايام تعطيل . ثم يوم آخر هناك . ان احساسي بالتفاهة يتفاقم . لكأنني انسان سائب . انني احس.. ماذا أقول ؟ ليس هناك مايدفيء ظهري من الخلف . أو يحميه . انني اريد ان اعمل بين رفاقي القدماء . ينوبني ماينوبهم . ويصيبني ما يصيبهم .

« ياله من يوم شتوي شاق يافارس . ولكن العمل اصبح لنا . كل المدخول في نهاية الحفنة . ليرات ملء اليدين. ومحاسب متواضع يعمل كشوف الحساب وسيكارته تحترق بين شفتيه . ولا يلاحق حبات الزيتون في طبق قيشاني لامع . آه كم تمنيت ان أتناول طعامي ، في بعض اللحظات ، في مثل ذلك الطبق » . هكذا حلمت وانا اقوم بنوبة حراستي في الليالي . إن كشلك الحراسة في الليل يضفي على الاشياء في الخارج سحراً خاصاً ويمسي كل مالا تملكه طريفاً وبراقاً .

وخرج احد الملاكين الحارسين عن صمته . اطل من وراء قناعه :

– ماشأن الزيتون في ذلك ؟

وابتسم أحمد في الم وحدث نفسه « اذا لم يعاصر طبق الزيتون فكيف يجوز له ان يفضلني في المحاصة ؟ » :

وقال ابراهيم :

— ان لطبق الزيتون حكاية .

وتجاهل ابو لهب اشارة احمد . وقلب يده في الهواء :

— ولكن الحلم غير الواقع . لقد حلمت يوماً انني سأصير ملكاً . ان الامر سواء عملت بين اناس تعرفهم ، أو لم تعرفهم . فالعمل واحد .

فرد احمد مغتاظاً :

— نعم ان العمل واحد . ولكنني لااريد أن أعيش على فضلات المحاصين . انه ليس من العدل ان اعمل باليومية . يبدو لي انني قديم قدم الاحجار المرصوفة في هذا الميناء . انه ليس من العدل ان يأكل البعض الدجاج .

ونظر ابو لهب إلى وجوه المياومين . لقد رأى ، أو هكذا خيل إليه ، ان زهوراً بدأت تتفتح في عيونهم . وودّ لو يضرب احمد على فمه . قال ابو لهب وقد عاد الى المناورة :

— دعك من الدجاج الآن وسأسوي الامر في المستقبل . سأسوي الامر مع الشركة عندما تتحسن الحال .

وهمس احمد لنفسه « هاهو يعود الى نغمة الشركة مرة اخرى . انه لايريد » . ثم قال بصوت عال :

— ولكن الشركة لايد لها في هذا الأمر . ان قضية تسميتي عاملاً محاصاً هي مسألة تقررها الفرقة . اعضاء الفرقة .

ونظر الى دائرة الوجوه حوله فكان بعضهم من رفاقه القدماء . ثم استقرت عيناه على فارس .

فغض هذا بصره وكأنه يقول له :« انا اقبل من ناحيتي . ولكن ماذا بشأن الآخرين ؟ » .

وتعلق ابو لهب بالطوف من جديد :

— اذا كنت تتصور أن الامر كذلك . فالمسالة ليست في صالحك . ان الشباب لايريدون .

فرد احمد :

— كيف ؟ انه لايحق لاي منهم ان يرفض انضمامي الى الفرقة وتسميتي عاملاً محاصاً .

وتقلقلت ارجل الواقفين بفعل التوتر أو لتبتعث فيها شيئاً من الدفء .

ـ ولكن ماقصة طبق الزيتون ؟ دعونا نسمعها .

تساءل الملاك الحارس . وقد قصد الى تمييع الجو حين احسه يتجه لغير صالح رئيسه .

قال احمد :

ـ لماذا لاتسأل ريسك ؟ انه يعرفها جيداً .

قال ابراهيم وهو يحاول ان يلفت نظر من حوله :

ـ ان والده مصاب بالشلل النصفي . وليس في العائلة قادر غيره .

واندفع عامل مياومة ملثم بلفعة حمراء تقطعها خطوط بيض :

ـ انها حكاية الملتزم السابق مع العمال القدماء . من كان يتصور ان ذلك الكابوس سيزول هو وكل الجبابرة الآخرين. انني اذكره الآن في ذلك الدكان الصغير الخرب الذي اتخذ منه مكتباً ، ومئات العمال في الخارج ينتظرون دفع اجورهم . والسماء تنخل فوقهم مطراً . بينما الملتزم في الداخل وراء طاولته يلاحق في طبق قيشاني حبات زيتون لاتريد ان تعلق في شوكته . يالها من ايام .

وأخذ احمد نفساً من الهواء ملأ به صدره.

واحس بذلك الدوار الذي يستشعره البحار حين تلامس قدماه مركبه القديم . احساس ممتزج برائحة القنب والقار المحروق والاسمدة الكيماوية والجلود والبطاطا والحبال والنباتات البحرية المتفسخة وكل الاشياء الجديدة والقديمة . الموجودة وغير الموجودة التي لايزال اثرها عالقاً في الجو . المتعفنة وغير المتعفنة .

واقترب احمد من الحاجز من جديد :

— هل تذكر يوم عطلنا الملتزم ؟ لقد ذهب الجميع في ذلك اليوم الى العمل . ماذا كان اسم الباخرة ؟ لم أعد اذكر . مضى الجميع ماعدانا . انت وانا . « أنتما تسوسان العمال . عناصر هدامة » . هكذا كانت حجته لتعطيلنا . ولم يرجعنا الى العمل إلا بشفاعات بعض الناس الطيبين .

وهمس ابو لهب لنفسه « اوه ما اخبثه . لماذا ينكأ جراحاً قديمة ؟ ثلاثون . واحد وثلاثون . اثنان وثلاثون . والحصة الواحدة تصبح من حق اثنين . . اذا استمر ينقر على هذا الوتر . فقد . . فقد . . »

وارتفع صوته :

— هيا احمد . اعمل باليومية وسأدبر الامر في المستقبل .

فرد أحمد :

— لقد سئمت الوعود . خمسة شهور مضت وانا اعيش بالأمل . أخشى إن قبلت عرضك اليوم . . كلا . . كلا . . ان المرء يبدأ بمقدار صغير من الذل . ثم . . ثم . . ؟؟ ينبغي ان نرفض ماهو غير عادل منذ البداية . يبدو لي انني قد وصلت الى تلك النقطة التي يصبح بعدها الشعور بما هو حقي امراً صعباً . اليوم وإلا سيغدو الامر مستحيلاً .

قال ابو لهب :

— ولكن الشباب لايريدون .

قال ابراهيم لمن حوله :

— ان المرضى بالشلل لايعيشون طويلاً . لكن على كل حال قال الطبيب ان مايحتاج إليه هو . . .

وضربت القدمان الارض . الواحدة بعد الاخرى وارتفعتا في الهواء تحاولان تسلق الجدار . قال احمد :

— مَنْ من الشباب لايريد ؟ إن اياً منهم لايملك هذا الحق . ان فرق المحاصة حق مشاع لكل من انتظم في ذلك الصف الطويل تحت المطر .

وقال الرجل الملثم باللفعة الحمراء المخططة :

— ثلاثة اتفقوا على اقتناص الدجاج . احدهم اقتنص فعلق ، واثنان تركاه عالقاً وهربا بالدجاج .

ونظر إليه الملاكان الحارسان شذراً . وحلق نورس فوق صفحة الماء . ثم غطّ وارتفع حاملاً بمنقاره سمكة .

قال احمد :

— لقد تشكلت فرق المحاصة عندما كنا نؤدي الخدمة الالزامية . انا لم اهرب من المعركة . هناك من اشتغل سمكرياً ، وآخرون في اعمال البناء . كما هرب البعض للعمل في مرفأ بيروت . لقد وضعت السلطة يدهاعلى العمل في المرفأ وطردت الملتزم القديم . وأمسى العمال أنفسهم الملتزمين . ليس من الغدل ان يغلق الملتزمون الجدد فرق المخاصة في وجهنا . نحن لم نقاتل منَ أجل هذا .

وحاول احمد ان يوضح لابي لهب :

— انني لن اقاسم احداً رزقه . ان كمية الغمل لن تكون هي هي . كلما ازداد المخاصون ازداد شحنهم للبضائع .

وعقب غامل :

— أو تفريغها

وطاشت القدمان في الهواء ولامستا الجدار . ثم بدأتا تنزلقان عندما ردّ ابو لهب :

— ان قراراتنا بالاكثرية . لقد اجمع العمال على اغلاق

الفرقة في وجوه الجميع . . رأوا أنه ينبغي عليهم اغلاقها . . انهم يخشون ان تصبح اكبر فأكبر . . وحينئذ لن يجدوا مايعملونه .

قال ابراهيم وهو ينظر الى وجوه المتحلقين :

ــ ذكر الطبيب ان الراحة والدواء يلزمان لشفائه . انه لايستطيع ان يترك اباه يموت بين يديه دون أن يفعل شيئاً لانقاذه . إنه بجحود إن لم يفعل شيئاً من اجله .

ونظر احمد في عيون رفاقه القدماء . . وبسط جسوراً وشرع يحاول عبورها .

ــ فارس هل تذكر ذلك الصباح عندما قمنا بإضرابنا الكبير ؟ ثلاثة عشر يوماً . كيف قدرنا على الاستمرار . نحن انفسنا لم نكن نتصور ذلك . كان الامر في البداية ليس جدياً تماماً . ثم بدأ البعض بمساعدتنا . هناك دائماً من يساند العمال. ليس عليهم إلا أن يبدأوا العمل . ذلك الصباح . . انني اذكر الحادثة وكأنها وقعت البارحة . اليوم . ذلك الصباح كان المضربون قد تجمعوا في مقهى النجمة الزرقاء بعد أن قاموا بمظاهرة في المدينة . وكنا انت وانا وعبدو وكريم وآخرون جالسين الى طاولة نستعرض ماينبغي علينا عمله في الخطوة التالية . ذلك الصباح كان العجوز يتقدمهم والرشيش بيده .

كان الابناء والاحفاد والاقارب حملة المسدسات خلفه . ذلك الصباح سال الدم وفرَّ البعض الى داخل المقهى ، بينما صمد آخرون وأخذوا يقذفونهم بالكراسي . تصور بالكراسي . اني لاتساءل ماذا كان يمكن ان يفعل العمال لو كانوا مسلحين ذلك الصباح . ان المرء ليجهل حقاً مدى قدرة عمال الموانىء عندما يثورون .

وتوقف احمد مستطلعاً . فرد فارس بارتباك :

ـ انا من ناحيتي لااعتراض لدي .

ومدَّ احمد جسراً آخر وبدأ يعبر :

ـ صطوف ! انت تذكر ؟ لابد أنك تذكر يوم مضينا الى دار الملتزم . كانت جيوبنا ملأى بالديناميت . لقد درنا دورتين . كان ينبغي ان نرد عليهم . وتفحصنا المكان . ثم بادرنا الى العمل بسرعة . . بوم . . بوم . واهتزت الدار . . بوم . . بوم . . وانتشر الذعر . لم نشأ ايذاءهم وقتذاك . وانما قصدنا تخويفهم .

واجاب صطوف وقد حول بصره بعيداً عن عيني احمد :

ـ لو ترك الخيار لي . لو تُرك الامر لي . . ولكنني لست وحدي .

وقال ابراهيم وهو ينظر الى وجوه من حوله :

ــ للمحاصين صندوق توفير . باستطاعة احمد ان يستفيد منه لو كان عاملاً محاصاً . وللمحاصين اجازات بأجرة . الإجازة المأجورة شيء جميل . اذا توفرت الاجازة وتوفر المال استطاع احمد ان يعتني بأبيه اكثر .

وخطا احمد فوق جسر جديد :

ــ في السجن . انت تذكر يامحمود في السجن . لقد قبضت علينا السلطة بسبب التفجير . كانت السلطة في صفهم وقتذاك . قبضت علينا وتركتهم احراراً مع انهم هم الذين بادروا الى اطلاق الرصاص .

وقال ابراهيم وهو لايزال ينظر في وجوه عمال المياومة البائسة . في عيونهم التي بدأت تتألق :

ــ ولكن أباه سيموت لأن احمد ليس عاملاً محاصاً . ولأنه لايستطيع أن يأخذ شيئاً من صندوق التوفير . وليس لديه إجازات مأجورة بينما ابو لهب . .

وتوقف ابراهيم لحظة كأنما تذكر شيئاًثم تابع :

ــ ولكن ابا لهب لم يعد يحس بحاجة الى الآخرين . لقد نسي انه كان عامل مياومة .

وبدا الاهتمام في عيون عمال اليومية . ءحل

الملفعون منهم كوفياتهم كي يسمعوا على نحو افضل .
والتفت ابراهيم :

ــ ابو لهب ! هل حقاً انك اشتريت داراً وبراداً وغسالة ؟ طبعاً ان الدار الجميلة تحيط بها حديقة يلزمها براد و « هوفر » . طوبى لزوجتك انها لن تشعر بعد بألم الغسيل . وسترق يداها وتنعمان . . .

في حين كان احمد يتابع في الناحية الاخرى :

ــ هناك ضربوك . . عذبوك . كان باستطاعتك ان تدلهم على الفاعل . لماذا لم تفعل ؟ لماذا خصصتني بآخر سيكارة كنا نملكها ؟ ماالذي حدث لك ؟ ما الذي حدث لكم جميعاً ؟ انا اخوكم .

وردّ محمود :

ــ ولكننا اقسمنا يااحمد . كنت في الخدمة في ذلك الحين . ليس من اجلك فقط . وانما من اجل الآخرين ايضاً .. الكل . . كان ينبغي ان نفعل ذلك . لقد بدأت الفرقة بثلاثين . ثم صارت اربعين . كان من الممكن ان تصير مئة . . مئتين . انت قدرك ذلك .

وواصل ابراهيم قائلاً وقد جعل يقترب من ابي لهب وذراعاه ممدودتان امامه :

ـ ستصبحان لطيفتين . وستزول الشقوق القديمة منهما . وستعرف مدى الفائدة التي يجنيها المرء من غسالة كهربائية عندما تطوقك يداها هكذا .

وانقض عليه محاولاً ان يلف يديه حول عنقه . ولكن الملاكين الحارسين حالا دون الوصول إليه . اما أحمد فسرعان ماصاح به قائلاً حين ادرك قصده :

ـ بل دعه لي .

وهجم عليه بدوره . فسدد له لكمتين ثم تراجع خطوتين ثلاثاً . لقد فكر بسرعة « لست بمثل قوة ابي لهب لكني استطيع ان اترك في وجهه علامة . بل هو أقوى مني اذا تماسكنا بالايدي . أما انا فاسرع منه وأنشط » . كان لأحمد تجربة بامثال هذا النوع من القتال . وقد خاض معارك كثيرة في حياته في الحارة وفي المدرسة ، صبياً ، وحتى عندما صار شاباً ، إن في الجيش او خارجه . لم يكن ميالاً بطبعه الى العراك والمشاكسة . لكنه كان يعرف كيف يقاتل اذا فرض عليه القتال . عندما كان صغيراً . كان ابوه يقول له دائماً « لاتبدأ عدواناً على احد . لكن حذار ان تأتي في يوم من الايام الى البيت وانت تبكي أو تنزف من جرح » . وقد لازمه هذا المبدأ طوال حياته . وعلى هذا الاساس كان يخوض معاركه اذا لم يكن منها بد . لم يكن

يتبع في معاركه نمطاً واحداً من القتال . بل كان يتصرف حسب الموقف وحسب الخصم . كان عقله يعمل بسرعة غريبة قبل لحظات من بدء القتال وحتى خلاله ايضاً . ولم يكن يرتبك ازاء اي طارىء يستجد وهو يقاتل . كان يروز خصمه خلال ثوان . وعلى ضوء استطلاعه السريع كان يتصرف . وكانت له آراؤه في القتال « لاتلتحم مع من هو اقوى منك . بل اضربه ثم ابتعد عنه لتضربه ثانية عندما يتقدم نحوك » . وكان يرى انه مهما كان الخصم قوياً فأنت تستطيع بالمفاجئة ان تترك في وجهه شيئاً . لأن الناس يحكمون بعد ذلك عليك أو عليه بقدر مافي وجه احدكما من آثار. وانطلاقاً من هذا المبدأ انقض على ابي لهب فكال له لكمتين ثم ابتعد عنه .

وحصل ماتوقع بالضبط . فبعد ان افاق ابو لهب بعد لحظة من صدمة الهجوم المفاجئة هاج وماج وهجم على احمد كالثور الجريح . لكن احمد كان ، طبقاً للخطة الموضوعة ، في انتظاره . وكان قد اختار هدفه بسرعة . هناك في صفحة الوجه تماماً ، كان الانف بارزاً بارزاً حتى ان بروزه كسف كل شيء آخر عداه . كان فيه شيء يغريه ويشير له كأنه فنار . ولم يكن هذا الشيء وليد اللحظة . لكنه كان يحس به منذ زمان . ولم يكن يعرف له اسماً او

وصفاً ، وانما اكتشفه وهو يقترب منه . كان يناديه ويصرخ في وجهه . هذا الشيء الذي لااسم له ولا وصف . كان يجري كالاعمى نحو حتفه . وفي لحظة تلامح كالبرق في صفحة الوجه . وفي لحظة مرقت يمنى احمد ، محملة بكل الغضب والقهر ، كالبرق الى ذلك الشيء لتخرسه . ومرقت اليسرى ، ولكن الى جانب الوجه . وانبثق الدم من الانف . من الفم . ليس مهماً كثيراً . لكن مع انبثاقه انطفأت تلك الجذوة المتقدة في الوجه . خرس ذلك الشيء الكريه . وارتد ابو لهب خطوة الى الخلف وتلمس انفه ثم نظر في يده . وارتد احمد الى الوراء ثلاث اربع خطوات . وادار جسمه نصف دورة الى اليمين ونصف دورة الى اليسار . واجال بصراً سريعاً فيما حوله . ورأى فارساً ومحموداً وعمالاً آخرين يتأهبون لمؤازرة رئيسهم . هوذا قد أصاب هدفه . بعد ذلك ليس مهماً كثيراً ان يصاب هو . بل لعله لايستطيع ان يدفع الاصابة عن نفسه . لكن عليه ان يجعلها أقل مايمكن ان تكون . وهجم عليه محاص فكال له لكمة جعلته يصرخ من الالم ، ويسب :

ــ تضرب بوكس ياكلب .

جذوة الانف انطفأت . طريقة لاتخطيء . لاتلتحم مع من هو اقوى منك . قال لنفسه . بل اضربه ثم اتركه يتقدم

منك . سيجري نحوك بخط مستقيم كالاعمى . وانت ههنا على بعد أربع خمس خطوات تنتظر وترقب خصمك كأنك في برج . وهو يقترب مُلَهْوَجاً منفعلاً مشتتاً . وهجم عليه فارس . فانتبه لهجومه . حتى انت يافارس ! لماذا ؟

وصرخ فارس :

— احمد . هل جننت ؟

ولكن احمد كان في شاغل . لم يكن يصغي . كان يلتفت يميناً ويساراً والى الوراء كما ينظر الى الامام . لم يكن فارس وحده هو الذي يتقدم . بل كان هناك ابو لهب ومحمود وآخرون . واعمل عقله بسرعة . ان خير مايفعله المرء عندما يكون وحيداً وخصومه كثار ان يقاتل وظهره الى جدار . ولكن أهو وحده حقيقة ؟ منذ قليل كان معه ابراهيم . ولكن اين ابراهيم الآن ؟ ولا يمكن الاعتماد عليه . ماذا حدث له ؟ آه حسناً انه لايزال هناك في عراك مع الحارسين . فقط لو تقدم ابو لهب وفارس ومحمود والآخرون واحداً بعد الآخر . لكنهم هجموا دفعة واحدة . لامفر اذن من ان يقاتل وظهره الى جدار . ولكن لاجدار يحميه هنا على الرصيف سوى جدار مستودع التخزين اذا لم تخنه ذاكرته . فليتراجع اذن نحوه . والتفت ليتأكد من وجوده . كان جدار المستودع هناك ، ولكن كانت تفصله عنه مسافة . آه لو يستطيع

الاحتماء به لكان اذن اصاب منهم عدداً اكبر .. ولكن المسافة بعيدة . ليبحث اذن عن شيء آخر .. صندوق بضاعة مثلاً . ولكن لا صندوق ايضاً . طيب لامفر اذن من ان يقاتل وجهه في وجوههم وعيناه في عيونهم وظهره لا يحميه جدار ..

ومن هنا وهناك أنقض العمال المحاصرون على احمد كالمسعورين :

— تضرب الريس .... .

وتلقى احمد اولهم بكفه السميكة فأصاب وجهه .. هناك في المنطقة الحساسة فوق الخد . وتحت العين . تلقاه بكفه السميكة المنبسطة .. وشعر انه سجل علامة . ستزرق مكان الاصابة وستحيط بالعين هالة . فكر في نفسه .. وشعشع داخله لهذا الانتصار الجديد ..

— لصوص . قذرون

قال للمغيرين . وقد شاء ان يكون صوته قوياً عاليا .. ولكن فجأة احس بضربة على فكه تطاير لها الشرر من عينيه .. وضرب واحداً .. ولكن ضربه آخرون . ورفس ثالثاً . وانهالوا عليه ضرباً .. وفي لحظة شعر ان فوقه شبكة من الايدي الصاعدة الهابطة . ثم اهتزت الارض من تحت قدميه

وانطلق من عينيه خطان من النجوم . نجمة تلحقها نجمة . واهتزت من تحته الارض مرة اخرى . وارتجفت . وبعدها . بعدها لم يعد يقوى على الوقوف

وهناك في الناحية الاخرى خاض ابراهيم معركة حامية ضد الملاكين الحارسين . ولم يلبث ان انضم اليهما آخرون . لقد كر وفر. ضربهم وضربوه . جرحهم وجرحوه حتى لم يعد في مقدوره ان يفعل شيئاً امام الكثرة .

وما هي إلا لحظات حتى جاء المحاصون بناقلة دفعوا اليها بالشابين دفعاً ، فحملتهما والقت بهما خارج الميناء .

* *

استوى احمد على قدميه واقفاً . فعل ذلك بغير قليل من العناء بعد رحيل الناقلة . لقد شعر اول ماشعر بثقل والم في رأسه ثم في رقبته وفوق كتفيه وظهره . لقد خيل إليه ان ثمة سلكاً كان يمتد من قحف الرأس ويعصب الصدغين ، ثم يمر عبر الرقبة ويتفرع الى الكتفين . ثم يتوزع مرة أخرى من الرقبة في شبكة على امتداد الظهر . وخيل إليه ايضاً ان هذا السلك يشد اعضاءه الى بعضها شداً محكماً حتى ان تحريك اي عضو في جسمه كان يستصرخ الالم في باقي الاعضاء . وليس الرأس والرقبة هما فقط بداية الالم وطرفه كما لاح له في الوهلة الاولى عندما حرك رأسه ورقبته شعر بصرير وألم في ركبتيه . فتساءل بحيرة فيما بينه وبين نفسه : من اين جاء الالم الى ركبتيه . وقال « شيء طبيعي ان يتألم رأسي ورقبتي وكتفي وظهري بعد الضرب الذي وقع عليها . ولكن من اين جاء الألم الى ركبتي ؟ » . ثم مد يده في اللحظة التالية الى ابراهيم وقال له :

— هل اساعدك في الوقوف ؟

ـ كلا استطيع ان اقف بمفردي .

قال ابراهيم ذلك وتلمس بيده اليسرى مرفقه الايمن . فقال له احمد :

ـ هل حدث ليدك شيء غير عادي . اعني اهناك كسر ؟

قال ابراهيم :

ـ لا ليس هناك اي كسر . لقد أمسك الوغدان بيدي ومرفقي وحاولا ان يمنعاني من الحركة فبذلت جهداً كي أتخلص منهما . اعتقد انني لم اخلّص نفسي منهما بسهولة.

وشعر ابراهيم بألم في ساقه فدس يده تحت سرواله وتجسسها هناك في موضع الالم فشعر بلزوجة كثيفة في اصابعه . سحب يده ونظر اليها . كان في يده آثار دماء . قال :

ـ اعتقد ان احد الوغدين ضربني بحذائه على ساقي .

وحسر سرواله . كان ثمة جرح في الساق ، كما توقع ، تخثرت دماؤه منذ فترة . لكن حركة اليد المتحسسة اعادت الجرح الى النزف . ولم يلبث الدم بعد لحظة أن أعدّ نفسه لخثرة جديدة . وأرخى ابراهيم سرواله وغطى الجرح . ثم استوى على قدميه واقفاً . كان شعر احمد مشعثاً وسترته مشوشة فاقترب منه ابراهيم واصلح له وضعها . انهمك

الاثنان بعدئذ في نفض الغبار عن ثيابهما . انحنى احمد ليحكم ربط شريط حذائه المنحل . سمع صرير ركبتيه وعاوده الالم ابتداء من الرقبة والقحف والصدغين وفوق الكتفين والظهر والركبتين حتى اخمص القدم . قال لنفسه « لعلي سقطت على ركبتي في لحظة من اللحظات » . وتحسس وجهه بعفوية ثم همس لنفسه « غير مهم فأنا استطيع ان احتمل الالم الى حد بعيد . لكني لااحب ان أصاب بجرح في وجهي » . وقال ايضاً «انا لم اجرح في حياتي من اي ضرب» . وتراءى له على نحو من الانحاء ان كبرياءهمرتبطة بشكل ما بدمه وأنه في اللحظة التي ينزف فيها ستنزف معها كبرياؤه . قال في نفسه مرة اخرى « احمد الله انني لم اصب بجرح لافي وجهي ولا في جسمي » وداخله فرح صبياني استحوذ عليه لحظات .

ومرر ابراهيم يديه حول خصره فقال له احمد :

— هل فقدت شيئاً ؟

قال ابراهيم :

— كلا . خيل الي لحظة انني اضعت شرشوري فتحسست موضعه في زناري. لقد تذكرت الآن انني تركته في البيت .

قال احمد :

— هل نسيته ؟

قال ابراهيم :

– كلا . لكني لم اشأ ان أحمله . لست ادري . كان يبدو لي ان الامور قد تسوء بيننا وبينهم . فتركته في البيت .

قال احمد برفق :

– هل كنت خائفاً ابراهيم ؟

قال ابراهيم :

– كلا .

– اعني هل كنت خائفاً ان نصطدم معهم وانت تحمل شرشوراً ؟

قال ابراهيم :

– لست ادري .

ثم اضاف بعد لحظة :

– تبتدىء معركة بشيء صغير ويعلم الله كيف تنتهي .

واتخذا سبيلهما في طريق صاعدة. كان حوض المرفأ القديم عن يمينهما الآن . وثمة حاجز من الحديد المشبك يفصل منطقة الميناء عن الطريق العام . وكان وراء الحاجز مباشرة فسحةمن الارض شغلتها اكوام من الخشب المستورد .

وكان الخشب يحجب قاعدة الحوض القديم ولم يكن يظهر عبره سوى رؤوس صواري المراكب والبواخر .

قال ابراهيم بحرارة :

ــ لم اكن اتصور ان يهاجمونا بهذه القسوة . هل هناك احمد رفاق يضربون بمثل هذه الوحشية ؟

قال احمد :

ــ لاتنس اننا نحن بدأنا المعركة .

قال ابراهيم بعد ان لعق زاويتي فمه بطرف لسانه :

ــ ادري . لكن لم يكن في نيتي ان اهاجم احدهم . أبو لهب هو الهدف . فقط كنت اريد ان أهين أبا لهب .

ثم اضاف بعد لحظة :

ــ نحن بدأنا الضرب . لكننا لم نبدأ العدوان . اليس كذلك احمد ؟

قال احمد :

ــ بلى .

وتابعا طريقهما الصاعدة . قال ابراهيم :

ــ كان الحق معنا احمد ؟

قال احمد :

ـ نعم كان الحق معنا .. هذا مايبدو لي .

وسارا صامتين مسافة اخرى .. ثم اشعل احمد سيجارة..
رنا ابراهيم من طرف عينه الى احمد .

قال ابراهيم :

ـ انا آسف احمد ..

قال احمد :

ـ آسف لأي شيء ؟

ـ اقد ورطتك .

ابتسم احمد بوهن وقال ::

ـ لم يكن هناك مفر مما حدث .. فلو لم تبادر أنت لفعلت انا على كل حال ..

كان وجه احمد مكفهراً وعيناه محتقنتين .. وكانت سحابة من الكآبة قد أرخت ظلها على الوجه والعينين ..

كانا قد وصلا الى نهاية الطريق الصاعدة حيث كان في ميسورهما الآن ان ينظرا من خلف الحاجز الحديدي المشبك الى الحوض القديم ويشاهدا كل شيء هناك . السفن والمراكب والسيارات والرافعات والعمال واللنشات والبضائع على الارصفة . لم يعد ثمة شيء يحد من حرية النظر .. كان له الآن ملء الارادة ان يبدأ تطوافاً ، دون ان يصطدم بأيما

عائق ، يشمل الحوض القديم بمافيه الفنار والسفن الراسية خارجاً منطلقاً حتى الافق .

واقترب الشابان من الحاجز الحديدي المشبك والقيا نظرهما عبره وقد خيم عليهما الصمت . كانت الحياة قد بدأت تدب في الميناء . كانت ثمة رافعة عائمة ضخمة تنساب بسلاسة على صفحة مياه الحوض القديم وقد اتخذت سبيلها لتنطلق الى عرض البحر . وجعلت الشاحنات والناقلات المحملة والفارغة تغدو وتروح على الارصفة . وانطلقت صفارة احدى البواخر . وبدا الرجال من أعلى الطريق صغاراً الى جانب الآلات الضخمة.وكانت الشمس قد وفقت في تلك اللحظة ان تفتح لنفسها ، وسط الغيم ، فرجة ارسلت من خلالها حزماً من الضوء ألقيت بها فوق الميناء فظهر الحوض القديممسربلا بغلالة من الضوء والظل .واضفت عليه اعمدة النور الفضية المنسكبة فوقه جلالاً وروعة .

قال احمد :

— سيزداد البرد اليوم شدة اذا تحرك الارماني .

وعرض سيجارته لمسري الريح فمال دخانها المتصاعد الى اليسار منه :

— بل لعله تحرك فعلاً .

قال ابراهيم :

— الارماني سيكنس السماء من الغيوم .

قال احمد :

— ولكن البرد سيقص رأس المسمار . ليكن الله في عون شغيلة المكسر .

قال ابراهيم :

— الجو في الحوض القديم ادفأ . كنا سنشتغل اليوم في الحوض القديم . اليس كذلك احمد ؟

قال احمد :

— بلى . في الحوض القديم .

ومرت فترة صمت . قال ابراهيم بعد تردد :

— احمد ! لماذا نتزل الى الميناء ؟ دعنا نعمل شيئاً آخر . سمكرية . أو في البناء مثلاً .

وعبَّ احمد نفساً عميقاً من دخان سيجارته .

— كلا . لن افعل . يبدو لي انه ينبغي ان نفعل شيئاً ليس من اجلنا فقط ، وانما من اجل الآخرين ايضاً . ياالهي كم كانوا جبناء وبائسين عمال المياومة .

واخذ نفساً ثانياً من سيجارته :

— لسوف اواصل نطح الجدار الذي أقاموه . لن اعمل في البناء أو اي شيء آخر . عندما يبدأ المرء . . . عندما يبدأ الاعتراف بالهزيمة فذلك يعني شيئاً واحداً . . انه قد انتهى . إن احد اثنين ينبغي ان يتحطم . رأسي أو ذلك الجدار .

❋

استيقظت السراطين مبكرة ووقفت على مداخل جحورها لتلقي نظرة قبل ان تنطلق في نزهتها الصباحية على الشاطىء الصخري . كان الجو ربيعياً دافئاً والسماء صافية ومن حين لحين تهب برخاوة نسمة رطيبة منعشة فتلامس الماء وتدغدغه وتهمس له بكلمات الغزل الرقيق والحب الصباحي .

لكن البحر وقد بدا كأنه أراد أن يختبر صدق المحب ، هو الذي عرف في حياته كثيراً من كلمات الغزل والاطراء الرقيقة المذهبة يلقيها المحبون والمعجبون على مر الايام في مسمعه ، فظل بارداً فترة لامبالياً . ثم مالبث كبرياؤه الظاهر ان تداعى تحت لمسات النسيم ووشوشاته الملحة المتلاحقة فقرقر هناك عند الصخر ولغط وضحك فتجعد وجهه . وفي هذا السكون الذي لم يكن يعكره سوى وشوشات النسيم وفرح المويجات اللاغطة المقرقرة المزبدة راحت السراطين تجري على الصخر جريها المتردد والحذر . لكن السراطين لم تكن وحدها هي التي خرجت من جحورها

ومضت تقطع الشاطىء الصخري . واما كان هناك رجل دارت حول رأسه عصابة وشمر عن ساقيه وقد تدلى من كتفه كيس حقير . كان يحمل باليد اليسرى حذاءه . اما اليمنى فكانت حرةوغير ذات مرة استعان بها لحفظ توازنه واستند بها على الجدار الصخري ليمسك نفسه عن الانزلاق .

كان من عادة ابي الذهب اذا ماراد التنقيب في الرمل في هذه المنطقة من الشاطىء ان ينزل الى البحر من قرب البطرني . لكنه آثر اليوم ان ينزل من الشيخ سعيد . وبعد أن اجتاز بعض الصخور الجافة البعيدة عن مطال الموج والتي لايبللها ماء البحر عادة إلا في الانواء العالية توقف عند شاطىء رملي صغير يشبه القوس واخذ يجمع بعض الأصداف لحفيده . كان لابي الذهب ولد بكر وحيد من جنس الذكور كما كان له ثلاث بنات . كان الجميع قد تزوجوا وانشأوا بيوتاً وانجبوا ذريات . اما البنات فملأن الدنيا اولاداً فتياناً وفتيات . واما الأبن البكر فلم يمنّ الله عليه سوى بولد ذكر . وأي ولد ؟ كان خلو الوجه يرفل بالصحة والعافية كالخروف المسمن . لكنه ماغتم ان اصيب بشلل الاطفال واصبح عاجزاً عن اللعب والنط بله المشي كان الولد يقضي وقته مقعداً في البيت واحياناً يزحف الى عتبة الدار . ومن هناك كان يلاحق بعينيه الصافيتين

البراقتين اترابه الذين يلعبون بينما هو عاجز عن مشاركتهم لهوهم ولعبهم . كان ابو الذهب ينظر الى حفيده يأسى ويعجب من امر هذه الدنيا . بناته رزقن حاجتهن من الاولاد ، ذكوراً واناثاً . بل اكثر كثيراً من حاجتهن . في حين لم يرزق ابنه البكر إلا بنصف ولد ولم يتم الله عليه نعمته . الله الذي لم يتوصل ابو الذهب ابداً الى فهم حكمته بهذه القسمة الجائرة للذرية بين اولاده . وغاية ماوصل إليه ان الله لايريد ان يبقي له على ذكر بحفيد يحمل اسمه من بعده ويحفظ شجرة العائلة . وكم آلمه ذلك وحزّ في نفسه

واذ هبط ابو الذهب اليوم الى الشاطىء لينقب في الرمل بعيداً عن عمله في الميناء كان اول شيء عقد العزم عليه ان يجمع بعض الاصداف لحفيده . لقد قام البارحة بزيارة لبيت ابنه . فقال له حفيده

– جدي لماذا لاتصحبني معك الى البحر ؟

قال ابو الذهب :

– سأصحبك ذات يوم ان شاء الله .

قال الحفيد :

– متى ؟

قال ابو الذهب :

– عندما تصير كبيراً وقوياً .

قال الحفيد :

– هل سأصير كبيراً وقوياً ؟

قال ابو الذهب :

– طبعاً .

وفي فكره قال « اني اجيّر هذا السؤال الى الله » .

قال الحفيد :

– انا احب البحر كثيراً .

قال ابو الذهب :

– غداً سأجلب البحر لك .

وفي تلك اللحظة كان قد فكر بجمع بعض الاصداف للولد الذي يحب البحر كثيراً ولا يستطيع الذهاب إليه .

وما ان فرغ ابو الذهب من جمع الاصداف التي افظها البحر فوق الرمال وملأ منها جيبه حتى علق في كتفه كيساً من الخام اسود من فرط الاستعمال وحمل حذاءه ثم بدأ سيره الحذر فوق صخور مبللة مكسوة بنوع من نباتات البحر الناعمة المزلقة التي تعرض السائر فوقها لخطر السقوط .

وجرت السراطين فوق الصخور مذعورة خائفة غاضبة من هذا الزائر الدخيل الذي افسد عليها نزهتها الصباحية

ووقفت على اعتاب جحورها متأهبة ابدأ لدى اول اشارة تنذر بالخطر للاختفاء داخل تلك الجحور .

وتابع ابو الذهب سيره القلق كأنه يمشي في حقل من الالغام حتى وصل الى فجوة جنوب البطرني مد فيها البحر لسانه وهناك انزل كيسه المعلق في كتفه ثم وضعه قرب حذائه حيث لايصل اليهما ماء البحر .

واخذ ابو الذهب علبة التبغ ولف سيكارة . وما ان اشعلها حتى تركها معلقة بين شفتيه ثم بدأ عمله . فتح فوهة كيس الخام وتطلع في داخله . سحب منه طستاً نحاسياً . وهناك عند الخط الفاصل الذي لا يصل اليه ماء البحر انحنى وغرف بالطست مقداراً من الرمل الجاف الذي غسله موج الليلة الفائتة ثم غمره بالماء . شرع بعد ذلك يهز الطست هزات خفيفة الى اليمين والى اليسار مع إمالة الطست قليلاً الى الامام ليتيح للرمل المسرود ان يتساقط مع الماء المنسكب من حافة الطست المائلة الى الامام .

وحينما فرغ الطست من الرمل والماء اعاد ملأه من جديد وبدأ يهز الاناء بهدوء وصبر واناة . ولايدري كم مضى عليه من الوقت وهو على هذه الحال من املاء الطست وافراغه . وفجأة تلامح له شيء أخضر باهت في رمل الطست فرف قلبه كجناح طائر . والتقط ذلك الشيء

وتفحصه بعناية . كان قطعة نقد معدنية قديمة بحجم الليرة الفضية علتها في اجزاء منها طبقة من مادة ما لكنها لم تحجب رسومها تماماً . استطاع ان يخمّن ان على احد وجهيها فارساً وعلى الوجه الآخررسماً لوعل أوحيوانآخر منهذهالفصيلة. غيب القطعة النقدية الاثرية في جيبه وهو يجهل قيمتها . فكر : اتراها من الذهب ؟«ولكن الذهب لايصدأ » رد على نفسه . وفكر « مهما يكن فإنها تساوي شيئاً بلا شك . و شيء احسن من لاشيء » .

ابداً هو لم يعثر على شيء نفيس جداً . باستثناء بعض الاشياء التي درت عليه شيئاً من المال . اما ذلك الشيء الباهر . ذلك الشيء الذي ينتظره منذ امد بعيد والذي من شأنه ان يقلب حياته رأساً على عقب فلما يعثر عليه . حسناً هو يؤمن بأن لكل شخص فرصة واحدة في الحياة . ولعل فرصته هو لم يحن اوانها بعد . انه ينتظر دوره بصبر ؛ وان بدا في وقت من الاوقات وكأنه بدأ هو نفسه يمل من هذا الصبر . لكن مثل هذه الحالات كانت نادرة في حياته . ذلك انه من ناحيته هو لم يكن يسمح لنفسه بأن ينساق وراء حالات نفسية سوداء كهذه . وقد جرب مرة ان يترك نفسه على سجيتها . كان قد عيل صبره من حالة البطالة والفقر التي يحياها هو وعائلته . كانت البواخر التي تؤم الميناء قليلة في

تلك الايام ولم يكن يرسو فيه إلا بعض المراكب من وقت لآخر . فمشى مع تشاؤمه حتى نهاية الشوط . فماذا وجد في نهاية المطاف ؟ وجد أن الحياة لاتطاق دون امل . وقد ردد لنفسه ضاحكاً : «طيب فهمنا فقر . ونزيد الطين بلة فنعيش دون أمل ايضاً ؟؟ » وهكذا اصطنع لنفسه املاً . ان يعثر على شيء ثمين بين الرمال ذات يوم، ونهض في الحال فحمل طست النحاس ونزل الى البحر وبدأ يعمل . يملأ طسته بالرمل ثم يغمره بماء البحر ويروح يهزه بأناة وصبر عجيبين وكأنه على موعد مع الحظ . وقد واتاه الحظ فعلاً . ولكنه كان حظاً صغيرا . كان شيئاً اثرياً قديماً باعه بخمس ليرات ذهبية . وقد نظر الى تلك الليرات الذهبية الخمس نظرته الى ثروة عظيمة جداً لاتعدلها ثروة ما في الدنيا كلها . وبفضلها نعم اولاده بوجبة مستعجلة ، لكنها تاريخية ، من اللحم والخبز والخضر والفواكه . وهو إذ يحمل طسته وينزل الى البحر لتصويل الرمال انما يفعل ذلك ، من قبيل الوفاء والعرفان بالجميل . فهو لن يستطيع بعد أن يولي كلا من الشاطىء ورمله ظهره وينقطع عن زيارتهما وقدمدا إليه يد العون في يوم من الايام .

هذا ماكان من امره مع حظه الصغير في ذلك اليوم . اما حظه الحقيقي . حظه الكبير فهو مايزال له بالمرصاد .

يترقبه ويعذ له في خياله العدة حتى اذا ماقبل وجد أن كل شيء في مكانه كما ينبغي له ان يكون . وانه ليس ثمة اي مجال لخطأ . وليس عليه سوى ان يسير في الطريق التي رسمها له ابو الذهب .نعم ليس هناك مجال لخطأ كخطأ الرجل الذكي الذي واتاه الحظ مرة . لكنه لم يعرف كيف يقبض عليه بكلتا يديه فأضاع على نفسه فرصة العمر . كان يصول الرمال مثله وفي يوم حمل الحظ إليه شيئاً اثرياً قديماً . اعظم من اي شيء عثر عليه في حياته . فأخذه الى صائغ يمت إليه بصلة القربى .فحمله الصائغ بدوره ومضى به الى بيروت وهناك تدبر أمره . وحينما عاد من سفرته اعطاه عشرين ليرة ذهبية وقال له « هذا ثمنه . والله على ماقول شهيد » . غير أن أمارات الثراء المفاجيء مالبثت ان ظهرت على الصائغ بعد مدة وجيزة،وعاد الى اذهان الناس ذلك الشيء المجهول الذي حمله الصائغ الى بيروت .

حسناً هو لن يحدث له ماحدث لذلك الرجل الذكي اذا اتفق له وعثر على شيء . سوف يتدبر امره ولن تعوزه الحيلة لتصريف الامور . فقط ما على الحظ إلا ان يأتي ووقتها سيعرف من هو ابو الذهب واي صنف من الرجال هو حقاً .

وسمع بغتة وقع خطوات خلفه تهبط المنحدر وقد

رافقها تدحرج حجر . ظن الاقدام الهابطة لبعض الصبيان الاشقياء ممن يتسكعون عادة على الشواطىء فصمم على طردهم في الحال . كانوا كثيراً مايعكرون عليه صفاءه بأسئلتهم الكثيرة ،الخبيثة الساخرة احياناً .لماذا تصول الرمل؟ كم يوماً يلزمك لكيل ماء البحر ؟ بل إن بعضهم كان يلاحقه بنظراته المستريبة وقد شك بسلامة عقله . كان يعرفهم ويعرف ماسيقولونه ويفعلونه فيما اذا غض الطرف عنهم وتساهل في بقائهم . لذلك لم يدع لنفسه مهلة للتفكير . وانما عزم في الحال على ابعادهم عن المكان . التفت الى الوراء بعد أن اعتقد انه حمّل وجهه مايكفي من الغضب لحملهم على ترك المكان لحظة يطلب اليهم ذلك . لقد فكر ان اصطناع قدراً من الغضب والجد ، ومنذ اول لحظة ، يعطي نتائج فورية ،لا مجال للشك في قيمتها ؛ مع امثال هؤلاء الاشقياء . لكنه فوجيء لحظة التفت الى الوراء بأن الهابط لم يكن سوى احمد .

قال ابو الذهب :

ـ اهلاً احمد .

وخوّض خارجاً من الماء الذي كان يغمر ساقيه الآن حتى منتصفهما وتقدم للقاء احمد . كانت تلك هي المرة الاولى التي يراه فيها بعد حادث الميناء . القى ابو الذهب

الطست فوق الرمل ابعد قليلاً عن الخط الذي كان يصل إليه ماء البحر . ثم وضع يده بيد احمد وامسك بالاخرى ذراعه بعد ان جفف يديه الاثنتين حيث مسحهماظاهراً وباطناً على جنبيه .

قال ابو الذهب :

ــ ماذا فعلت ؟

ونظر احمد في وجه ابي الذهب وقد فكر « ترى هل يلومني لحادث الميناء ؟ » . ثم تطلع في عينيه متسائلاً . محاولاً ان يسبر اغواره .

واضاف ابو الذهب :

ــ انا عاتب عليك .

فقال احمد وقد أنس بشكل ما من لهجة ابي الذهب تأييداً ضمنياً لما فعل .

ــ لماذا ؟

قال ابو الذهب :

ــ لانك اخفيت عنا نياتك

كان احمد يتململ شوقاً لمعرفة اصداءماجرى في الميناء. وسره ان يجد أن اول صدى لم يكن ضده . ذلك انه خلال كل اللحظات التي اعقبت الحادث كان يتساءل ويعيد

التساؤل . هل اصبت ؟ هل اخطأت ؟ مانتائج ذلك وماذا جررت على نفسي ؟في بعض اللحظات كان يشعر بالندم. وفي لحظات اخرى كان يردد لنفسه : كان لابد من حدوث ذلك . كان يجب أن يفهموا أن الميناء ليس ملكهم وإن هناك آخرين يجب ان يعيشوا ايضاً » .

قال احمد صادقاً :

— لم يكن في نيتي الصدام مع ابي لهب. كنت فقط اريد ان أطالب بضمي انا وابراهيم الى المحاصين. لقد اردت ان احسم الامر . لكن الامور تطورت بعد ذلك . لقد شعرت في لحظة من اللحظات ان الزمام افلت من يدي . يبدأ احيانا شيء ما صغيراً ثم تفاجأ بأنه يكبر ويكبر حتى تعجز عن ايقافه ، مع انك انت الذي بدأته . كنا نطالبه بأن نصير محاصين ليس غير .

قال ابو الذهب :

— لو كشفت لنا عن نيتك . ربما لو كنت . لست ادري . انا من ناحيتي ربما ، لو كنت حاضراً وقتها ، ماالستطعت ان اوقف ماجرى . لكن مع ذلك كلب ينبح معك أفضل من لا شيء .

قال احمد :

— صحيح . كلب ينبح معك افضل من كلب يعوي عليك . وما اكثر الكلاب التي نبحتنا يومها . سأقول لك

شيئاً ياأبا الذهب . كنت احس انها مشكلتي ومشكلة ابراهيم. لقد اردت ان اسويها بنفسي فلم اشأ ان اقحم الآخرين . لم اشأ ان تأخذ المسألة شكل تظاهرة . كنت احسب ان ذلك ادعى للامان .

واخذ ابو الذهب علبة تبغ معدنية . ثم قعد على الرمل وراح يلف سيكارة . اما احمد فقد ظل واقفاً لحظة بعد ذلك . ومالبث ان جلس مقرفصاً . ومرت فترة صمت قال على اثرها :

ــ كنت في البطرني . استيقظت اليوم باكراً . لم يكن هناك ماأعمله . فارتديت ثيابي وخرجت من البيت . تسكعت قليلاً في الطريق . وعندما ضجرت قلت : هياولد وخذ فنجان قهوتك في البطرني . ليس هناك افضل من الشاطىء لمتعطل يريد ان يأخذ فنجان قهوة .

وقال ابو الذهب في فكره وهو يقدم علبة التبغ الىاحمد « ليس هناك افضل من الشاطىء لمتعطل يريد أن يقتل وقته » .

وتابع احمد وهو يأخذ علبة التبغ المقدمة إليه :

ــ لمحت ظهرك من فوق فنهضت على الفور وقلت : هذا والله ابو الذهب . من السهل العثور عليك في مثل هذا الجو .انت لا تبتعد كثيراً عن الشاطىء .

وقال ابو الذهب ضاحكاً بعد ان امّر سيكارته على طرف لسانه ثم الصقها :

— احياناً أتساءل فيما اذا كان حب البحر لايشبه اللعنة كثيراً . البحر لعنتي .

وعاد الى فكر ابي الذهب « ليس هناك افضل من الشاطىء لمتعطل يريد ان يقتل وقته » . فقال :

— المهم ماذا تعمل هذه الايام ؟ كيف تقضي وقتك ؟

قال احمد وهو يلف سيكارته :

— في التسكع كما ترى . واحياناً في القراءة .

ففكر ابو الذهب في نفسه « انه قتل للوقت في الحالين » وقال بعد أن اشعل سيكارته :

— التسكع لايطعم الخبز . والقراءة ليست افضل بالنسبة لعامل ميناء . انا لست ضد القراءة . القارىء باثنين . طول عمري كنت اغبط الذين يقرأون . واتمنى ان افك الحرف مثلهم . اتدري كيف كنت افكر ذات يوم . ابات ليلتي واستيقظ فإذا أنا بقدرة قادر أفك الحرف . فأتناول شيئاً مكتوباً وامضي في قراءته . كان العلم في ايامنا وقفاً لبعض الناس .

وضحك ابو الذهب من قولته وضحك معه احمد . ثم تابع ابو الذهب قائلاً :

ـ في الميناء يضيع الصالح في الطالح . ولا يحتاج المرء الى قراءات كثيرة لكسب اللقمة فيها .

وفكر ابو الذهب « الاب مريض مقعد في البيت . والولد عاطل والعائلة كبيرة » .

واشعل احمد سيكارته وتمهل حتى نفخ الدخان من فمه ثم قال :

ـ في بيتنا بعض الكتب تحتاج الى قراءة . كتب اشتريتها من الكُوَم باسعار رخيصة عندما خدمت عسكريتي في الشام . كنت هناك أتسلى احياناً انا وابراهيم بالقراءة . بعضها كان فوق الطاولة في البيت وبعضها في درج الخزانة . كانت تقول لي تلك التي لم تقرأ : طيب انت تذهب الى الشغل في الصباح وتعود الى البيت في ساعة متأخرة من الليل . متى تقرأني ؟ هل نسيتني ؟ » . وانت تفهم الباقي .

قال ابو الذهب :

ـ وهكذا اصطدمت بأبي لهب والآخرين لتقرأ الكتب؟

وهزّ احمد رأسه باسماً . وتابع ابو الذهب سائلاً :

ـ الكتب قالت لك ان تصطدم معه ؟

قال احمد ضاحكاً :

— تقريباً .

قال ابو الذهب :

— اللعنة على اسلافك وعلى كتبك .

قال احمد محافظاً على نفس لهجته المازحة :

— وهكذا ترى ان البطالة ليست شراً كلها .

قال ابو الذهب :

— ادام الله عليك هذه النعمة . والى متى ستظل تقرأ الكتب في البيت ؟ ماذا تنوي ان تفعل ؟ طبعاً لن تحاول ان تقنعني ان هناك مائدة تهبط عليك كل يوم من السماء .

فضحك احمد حتى القلب . وقال من خلال ضحكه المتقطع :

— اما هذه فلا . وهل حسبت انني فكرت السماء مطعماً . ولكن . ولكن ما اروع ان يكون مثل هذا المطعم الكبير . في السماء او غيرها . الطعام فيه كثير . متوفر . مبذول للجميع . يأخذ كل انسان منه كفايته ثم يمضي لشأنه يمارس هواية ما . يصيد السمك . يقرأ الكتب . يصول الرمال بحثا عن الانتيكات . يذهب الى السينما او النزهات .

قال ابو الذهب ساخراً :

— وماذا بخصوص العمل ؟ في هذه الحال لن يشتغل انسان .

قال احمد :

— من المفروض ان الكل يعملون . أما هواياتهم فيمارسونها بعد العمل . لن يقضوا نصف حياتهم في البحث عن العمل . العمل متوفر للجميع .

قال أبو الذهب :

— هناك اناس لايحبون العمل .

قال أحمد :

— ننذرهم . نوفر لهم عملاً ونضعهم تحت الاختبار لمدة شهرين ثلاثة . اذا اثبتوا أهليتهم فموائدنا تحت تصرفهم . وإلا أغلقنا مطاعمنا في وجوههم .

قال ابو الذهب :

— توفير العمل شرط ؟

قال احمد :

— طبعاً شرط .

قال ابو الذهب :

— والاختبار لشهرين ثلاثة ؟

قال احمد :

ـ والاختبار لشهرين ثلاثة . طيب وشهر مني أيضاً ، فيصير الجميع اربعة .

قال ابو الذهب :

ـ اذا كان الامر كذلك من ناحيتي انا والله لامانع لدي .

ومرت فترة صمت حاول خلالها خيال كل منهما ان يتصور هذا المطعم الكبير وكأن المزحة صارت شيئاً جدياً . والحلم حقيقة واقعة . وفكر ابو الذهب بينه وبين نفسه « لن يقلق الواحد اذا تعطل العمل بسبب المطر والبحار الكبيرة . لن يقول كيف ادبر رزقة العيال في الاجواء السيئة والانواء » وتساءل « ترى هل يقدمون كل انواع الاطعمة ؟ الشوربات ؟ شوربة العدس والرز . هل يقدمون اللبنية مثلاً . وكل الاطعمة اللينة التي لاتحتاج الى اسنان ؟ » . وفكر احمد «وقتها لن يبذل المرء نفسه من اجل العمل . لن يقف على ابواب الفرق وكأنه يتسول . ليست هناك محاصة ومياومة . الكل محاصون والعمل مبذول للجميع . لن تستغل القلة الاكثرية . ولن تعيش على حسابها كالعلق .

وقال أبوالذهب وكان لايزال تحت تأثير الحلم الذي بدا للحظة وكأنه صار شيئاً ملموساً . قال بلهجة

نصفها مزح ونصفها وهم لايخلو من أمل ان يصبح هذا الشيء الخيالي ، اللامعقول ، ان يصبح حقيقياً ومعقولاً :

ــ فهمت ان يذهب العامل إلى المطعم الكبير ويأكل هناك . ولكن ماذا بشأن عياله . هل يجرجرهم وراءه إلى مطعمك هذا ؟

وحاول ان يرسم في خياله صورة لجو هذا المطعم وقدخاله اختلط فيه الحابل بالنابل : الطفل الذي يبكي. الذي يزعق والذي يحرد . شيء مثل حمام انقطع ماؤه . اومثل يوم الحشر .

فضحك احمد وقال :

ــ بسيطة . المسألة ليست صعبة . سيكون هناك مطاعم فرعية منثورة في كل الأحياء . وليس من الضروري ان يجرجر العامل عائلته وراءه إلى تلك المطاعم . اذ يكفيه ان يبرز للمسؤولين هناك بطاقة عمله وعدد افراد عائلته حتى يحصل على الطعام بمطابق

هز ابوالذهب رأسه . ثم ابتسم وقال :

شيء جميل .

وسادت لحظة صمت لم يسمع خلالها سوى وشوشة الماء وهو يتقدم فوق الرمل ثم نشيشه وهو ينسحب . قال ابوالذهب بعدها بلهجة لايعوزها الجد والاهتمام :

— والآن وبعد ان راحت السكرة ماذا تنوي ان تفعل ؟

وفكر « الأب مقعد في البيت . والولد القادر عاطل . والعائلة كبيرة . شيء غير معقول » . وتساءل فيما إذا كان في الامكان عمل شيء من اجله .

والتقط احمد حصاة قلبها بين اصابعه قبل ان يقول :

— افكر أن أنزل إلى الأرصفة .

ردد ابوالذهب :

— الأرصفة .

قال أحمد وهو مازال ينظر إلى الحصاة وقد استقرت الآن في راحة يده . كانت حصاة مدورة ملساء .

— ليس من الصعب ان يجد المرء عملاً في الأرصفة .

واستمر ينظر إلى الحصاة . إلى نعومتها واستدارتها . وراز ثقلها في كفه ثم فكر « انا لم ار حصوة لها مثل هذه الاستدارة والنعومة . إنها مناسبة تماماً للنقف . حصوة مثلها إذا انطلقت من نقافة راحت إلى هدفها بخط مستقيم وطلقتها لن تخيب » .

« طاخ » وسقط العصفور . ثم اختلج قليلاً قبل ان تهمد حركته تماماً . كان الآن بين قدميه على الأرض مفرود

الجناحين . مائل الرأس وقد فارقته الحياة . وأخذت احمد رأفة عابرة بالطائر الصغير . وفكر « اما صائد واما مصاد » .

قال ابوالذهب وهو يرمي عقب سيكارته بعد أن سحب منها النفس الأخير .

— وماذا ستشتغل هناك ؟

قال احمد وعين فكره مازالت ترنو إلى العصفور الطريح بين قدميه :

— قال لي ابراهيم العمل متوفر هناك . الحديد . الخشب .

وفكر ابوالذهب « غير معقول . لابد من عمل شيء . ولكن هل هدأت الخواطر ؟ » .

قال أبوالذهب :

— على بركة الله . فكرة معقولة ان تعمل هناك بعض الوقت . لاشيء يدوم .

وكان أحمد قد استوى واقفاً منذ فترة . قال :

— كيف هم الأولاد هناك ؟

واشار بيده نحو الميناء :

— الخال وحيران والآخرون

قال أبو الذهب :

ـ اسفوا للحادث كثيراً . واتفقوا على الذهاب لزيارتك . لكن الظروف عاكستهم تماماً .

والواقع ان جملة من الأمور سارت سيراً عجيباً مع افراد الشلة منذ ان فكروا بزيارة احمد ، كأنما الشيطان نفسه أمسك دفة الحوادث . فقد ابت معدة امرأة الخال إلا أن تمرض في هذه الفترة بالذات وتعاودها احدى نوباتها ؛ الأمر الذي اضطر الخال إلى ملازمة البيت والبقاء بجانب فراش زوجته. ولم يختر ابن حيران عبدالواحد الا هذا الوقت ليتورط في مشاجرة مع زملائه بسبب الاحزاب ، فطرده مدير المدرسة ولم يقبل اعادته لاستئناف الدراسة إلا بعد ان قدم والده بصفته ولي امره تعهداً بعدم قيام ابنه بأي نشاط حزبي في المدرسة . وحدث في عائلة الفهد (وكان الفهد قد عاد بعد أن سافر على ظهر احدى البواخر حيث عمل بحاراً مدة من الزمن) حدث أمر مؤسف إذ اختفت اخته فجأة . اما ابوالذهب نفسه فقد اعترته احدى تلك الحالات التي يبدو فيها برماً حزيناً لحزن ابنه لإنه لم ينجب ولداً صحيحاً معافى .

وتنهد ابوالذهب ثم اضاف :

ـ لقد حدثت بعض الاشياء المؤسفة . كأنما حلت

لعنة على الاولاد منذ حادثك في الميناء . لن ازيد كربك . قد تسمعها ذات يوم .

قال احمد وقد ظهر عليه القلق فجأة :

ـ ماذا حدث للاولاد . لقد اثرت خوفي

قال ابوالذهب مطمئناً :

ـ ليس هناك مايخيف . كل مافي الأمر جرت بعض الحوادث المزعجة للاخوان . .

واخبره ماكان من مرض زوجة الخال . وصدام ابن حيران عبدالواحد مع زملائه . كما حدثه بغير قليل من التردد والأسف عن حادث اختفاء اخت الفهد .

ثم اضاف بعد أن خفض صوته حتى كاد يصبح همساً :

ـ يقال انها هربت مع شاب .

وامسك قميصه بأطراف اصابعه وهزه مبرئاً ساحته .

ـ على ذمة الذين يروون الحادث . والله اعلم . هكذا توالت المصائب منذ أن فكرنا بزيارتك . اتدري ماذا قال الخال في تفسير هذه الحوادث ؟ قال لإننا حينما اتفقنا على الزيارة لم نقل ان شاء الله . وكل اتفاق في رأيه لايربط بمشيئة الله لابد ان ينفذ اليه الشيطان ويعطله .

تأثر احمد وشعر بأسف ضاعفه بعده عن الميناء وافتقاده لشلة الاصدقاء حيث عجز عن مشاركتهم عواطفهم . واضاف قبل أن يودع منصرفاً :

— ليكن الله في عونهم . كأن الفقر وحده لايكفي .

قال ابو الذهب :

— في عونهم .وعيوننا جميعاً لاتغتم اخي احمد. لاشيء يدوم. مابين رمشة عين وأخرى تراقبها يغير الله من حال إلى حال .

ومضى احمد صعداً في درب خطته اقدام الهابطين الصاعدين في التراب الذي اهيل يوماً من اعلى الصخر ، وجعلته اشبه بشعاب الجبل . ولاحقه ابو الذهب بنظره . وما كاد احمد ينحرف ليتابع طريقة الصاعدة حتى هتف به :

— احمد . قل لي هل يستطيع كبار السن . اقصد اؤلئك الذين لم يعد في مقدرهم العمل . هل يستطيعون ان يأكلوا من من مطعمك بالبطاقة ؟

توقف احمد وقال باسماً :

— ولم لا . طبعاً يستطيعون . ألم يتعبوا كفاية في الحياة . إذن من حقهم ان ينالوا من المطعم مايشتهون .

ومضى ابوالذهب هازلاً :

— اتظن انهم سيقدمون الشوربة في المطعم ايضاً ؟

وانطلق احمد في ضحكة مفرقعة :

— ليس الشوربة فقط . وانما المعكرونة ايضاً .

قال ابوالذهب :

— ليتهم يطبخونها مثل تلك التي في البواخر . اعني بالطريقة الطليانية .

قال أحمد :

— سيطبخونها بالطريقة الطليانية وغير الطليانية. لاتشغل بالك من هذه الناحية .

ثم تابع طريقه وبقايا ضحكته المنسحبة لاتزال على على طرفي فمه . اما ابوالذهب فقد جلس القرفصاء ثم اخذ علبة التبغ وراح يلف سيكارة .

بعد رحيل احمد خيم سكون عميق على تلك الفجرة التي حفرها لسان البحر في اليابسة . وبرز نشيش الماء، كأوضح مايكون في تلك اللحظة ، نشيشاً متردداً موصولاً . كانت المويجات تتقدم بليونة ورخاوة . موجة اثر موجة . تتقدم بهدوء فتلحس الرمل ثم ترتد عنه ويصدر عنها في اقبالها وادبارها وشوشة وهمس حييان . حركة لاتفتر ولاتهدأ ايقاعية زافرة متصلة .

وانهى ابوالذهب لف سيكارته فأشعلها ثم رمى عود

الثقاب جانباً فسقط على الرمل الرطب . واقبلت موجة فدفعته امامها ثم حملته معها حين انسحبت . وفكر ابو الذهب في نفس اللحظة التي ضاع فيها عود الثقاب في هرج المويجات اللاغطة « الاب مقعد في البيت . والولد الكبير عاطل . والعائلة كبيرة . امر غير معقول . اراد ان يكون له ماللآخرين فانقضوا عليه مثل كلاب البحر الجائعة . سمكة جريحة بين كلاب اعماها منظر الدم ورائحته . امض اخي احمد . ليكن الله ي عونك . اشتغل بالحديد . بالخشب . سحابة وتمضي . مامن حال يدوم . كل شيء يتغير .

واستمر نشيش الموج المترددفوق الرمل متصلاً هامساً ووصل نشيده إلى اذني ابي الذهب ايقاعياً زاخراً حياً « كل شيء يتغير . يتحرك إلى الأمام كالموج ويتحطم مثله . ذهب الذين كانوا قبلهم . لا أحد قبلهم . لاأحد يقول أنا . لاأحد يقول إني قوي . دائماً هناك من هو أقوى مامن شيء يدوم . لافرح ولاحزن . لااستغلال ولاتسلط . لا حب ولاكره . لاليل ولانهار . اشتغل بالحديد . بالخشب اخي أحمد لايهمسحابة وتمضي . صار ماصار . ربما كنت مخطئاً وربما كنت مصيباً انا لاافهم مثلك ومثل حيران . قد تكون استعجلت . لكنك

فعلت ماظننته حقك ، وقفت وقفة رجل وضربت بيد رجل ولاينكس رأسه إلا الحمار . المهم كلمة قلتها . والنهار يبدأ بصيحة ديك .

ومد ابوالذهب يده فتناول طست النحاس وغرف مقداراً من الرمل . ثم نهض وخطا باتجاه الماء دون استعجال . ولطم الموج الصغير ساقيه وانحنى بأناة فغمر الطست بالماء . ثم راح يصول الرمل بصبر ودأب عجيبين .

■

١٩٧٧ /١١/ ٣٠٠٠

مطبعة وزارة الثقافة

دمشق - ١٩٧٧

سعر النسخة

٥٠٠ ق.س.ل